أحفاد وأجداد

العرقُ دساس

عبد الجبار عدوان

أحفاد وأجداد

العرقُ دساس

رواية

دار الفارابي

الكتاب: أحفاد وأجداد
المؤلف: عبد الجبار عدوان
الغلاف: الصورة الأصلية Ben Pauer من موقع Unsplash

الناشر: دار الفارابي-بيروت-لبنان
ت: ٣٠١٤٦١(٠١) - فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)
ص.ب: ٣١٨١/ ١١ - الرمز البريدي: ١١٠٧ ٢١٣٠
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: آب ٢٠١٩

ISBN: 978-614-432-747-0

© جميع الحقوق محفوظة

تباع النسخة إلكترونياً عبر موقع الدار.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الدار.

المحتويات

الإهداء ١١

زمن القرود

قهر الموت ١٥

تآمر وخيانة

أنجاس الزيلجن ٣٧
حفيد المتآمرين ٤٣
الجد اللص ٥٠
حفيد الزعيم ٥٧
سبم.. حفيد الزيزع ٦٤
بمارت... الجد الأرعن ٧١

أشراف وأنجاس

أجداد وأحفاد الاغتيالات ٨١
في سبيل المشيخة ٨٨
العرق دساس ٩٥
المختار والزيزع ١٠٢
أنوار ومشاعل ١٠٩

التعساء

تعاسة متوارثة ١١٩
حفيد الأنبياء ١٢٦
الجد المنبوذ ١٣٣
بدون رب أو جد أو حفيد ١٣٩
حفيدة المعذبين ١٤٥

لعنة التغريب

جد وجدته ١٥٥
هروب الأجداد وهجرة الأحفاد ١٦٢

أجداد وأحفاد المجاعات ١٦٩
أصل البلاء وفروعه ١٧٦
أحـفاد رئيس وأحفاد لاجئ ١٨٢

ثمن الزعامة

أحفاد الفساد الديمقراطي ١٩١
أحفاد الحراثين ١٩٩
دروس الرعب ٢٠٦
حفيد وجد ومخابرات ٢١٣
حفيد الملوك ٢٢١

ثمن العلف

قرود ذكية..! ٢٣١
القرود المسحورة ٢٣٨
لبن الحمير ٢٤٥
قرود وزناءات وعجول ٢٥٢
صداقة وعطاء ٢٥٨

هذه رواية خيالية تماماً تدور وقائعُها على كوكَبٍ آخر،
وأي تشابهٍ حقيقيٍ أو معكوسٍ في الزمان والمكان
والشخصيات هو محض صُدفة..

لقد استعملتُ لغوياً في هذه الرواية صيغة العاقل للقرود في انتظار أن تعقل

الإهداء

إلى قُراء المستقبل
ليتعرفوا إلى بدايةِ الحيونةِ ومسارِها

ملقا ـ الأندلس. مارس ٢٠١٩

زمن القرود

قهر الموت

جلسا متجاورين، الحفيد ينظر إلى الأعلى عندما يستمع، والجد إلى الأسفل قليلاً عندما يتحدث، إذ تكور ظهره ولم يعد بحاجة إلى ثني رقبته كثيراً، ليرى القرد الصغير أمامه. كانا فوق صخور تطل على المدينة المتهالكة، وتحتهما منزل حجري قديم قال الجد إنه بيت جده، وكان قد أخبر حفيده سابقاً أن ذلك الجد كان بملامح أرق كثيراً مما تكتسي به القرود الآن، وأنه أقرب إلى الوصف الذي يشاهده الحفيد في أحلامه لمن يقال عنهم بشراً، ولا يراهم سوى بعض أطفال القرود في الأحلام، ويظن بعض القرود أن البشر جنس يهيمون في الفضاء ولا يراهم أحد، وبالتالي فالرواية عنهم أصبحت أسطورية لا يعززها سوى حلم أطفال، ولم يعد هناك من القرود من يفسر عن يقين ماذا حدث ومتى بالضبط كانت البداية؟

كان الحفيد ذو السنوات الست يتساءل عن أسباب بعض التشابه الجسدي بين من يراهم في أحلامه من بشر وبين القرود الذين يعيش بينهم وينتشرون عبر الكوكب كله، كما قال له الأهل. أما الجد فكان يخمن بوجود روابط بين الجنسين، بل يشك بأن القرود كانوا بشراً، ولسبب ما، لم يُحسم في ذهن الجد تحول البشر إلى قرود، وبقيت أساطير مختلفة تشرح العلاقة وأسباب التحول البشري، ولكنها أساطير لم يعد الكثيرون يهتمون بها. كلما هربت الأفكار من ذهن الجد يعيد الحفيد عفوياً تحفيزه بطرح الأسئلة عما يراه في الأحلام، وعما يسمعه حول الظروف والتخمينات

التي قد تكون تسببت في تحول البشر إلى قرود.. يريد الحفيد التعرف إلى أصوله.

المرويات التي جمعها الجد الستيني ويحاول تذكرها وإيجاد روابط بينها لم تكن بالنسبة إليه عقلانية، ولم تكن أي أسطورة منها قادرة على تفسير متكامل مقنع، أو بالأحرى لم تعد القرود تملك العقول الناضجة والمعلومات الكافية لتفسير ما جرى، واستيضاح إذا ما كان التأثير السلبي مستمراً في غير مصلحة القرود، أم أنهم سيعودون بعد زمن تدريجاً إلى حالة البشر، وما هي العوامل المساعدة على هذا أو ذاك. من ناحية أخلاقية يفترض أن الحيوانات، والقرود الأصلية تحديداً، تتطلع إلى السمو في والتقرب من درجات الإنسانية والتخلص من الحيوانية، وذلك بتنمية غرائز التراحم والتآخي والعدالة والسلام، وبالطبع الوصول إلى قمة كل أنواع التعاون والثقة الذي يميز تعاون كل فئة من الحيوانات، وبعضها عن التعاون البشري واسع الأفق. لكن ما حدث هو العكس، إذ تراجع البشر عن سمات التعاون المنشود وانحدر الكثير منهم إلى المستوى الحيواني شكلاً ومضموناً، أو بالأحرى إلى المستوى القردي للآن. يبدو أن التراجع الأخلاقي ليس سبباً لما يحدث، ولكنه بالتأكيد نتيجة لشيء ما تسبب في التحول الجسدي والسلوكي والأخلاقي. حتى الآن الغالبية العظمى تحولت إلى قرود، ويبدو أن فئة مجهولة العدد تحولت إلى إنسان سماوي لا يشعر بها سوى أطفال القرود وهم شيء غير ملموس، كما أن بقية الحيوانات في هذا الكوكب حافظت على خواصها الأصلية، لم ترتق ولم تنحدر.

تحول البشر إلى قرود شكلاً، تبعه بسرعة انحدار في المضمون، إذ تراجعوا في بعض الأحيان والمناطق عن غرائز القرود الطيبة الأصلية. لم يفقدوا بعد قدرتهم على الحديث، ولكنهم انتكسوا عقلياً كما يظهر من تصرفاتهم العنيفة الغبية الأنانية سواء كأفراد أو جماعات. كان

التشابه التكويني كبيراً جداً بين البشر والقرود في الماضي إلى درجة أنهم استعملوهم في التجارب الطبية واختبارات مفعول الأدوية. فالقرد الأصلي يتشابه في الجينات والحمض النووي مع البشر، وتحمل القرود أجنتها لثمانية شهور وربع الشهر، وتنجب رضيعاً أو اثنين. أثبتت القرود الأصلية أنها أذكى من بعض البشر في تعلم مهارات، وأنها أتقنت الحديث بلغة الإشارة مستعملة مئة وستين حركة إذا وجدت من يجاريها من البشر. ولديها حس بالعدالة وإيثار الغير على الذات، وذاكرتها فوتوغرافية وقوية لدى الشباب وتتراجع مع الشيب، وحتى أشد أنواع القرود عدوانية تمارس نشاطاً عائلياً واجتماعياً سلمياً بين الآباء والأمهات، وتتعاون مع أبناء العمومة وتتعاطف معهم، كما أن الذكر يقود العائلة والأنثى ترعى الصغار. أما تزاوج تلك القرود الأصلية فقد تحول إلى مادة درسها البشر في الماضي ليتعلموا منها كيفية اختيار الأزواج بالرائحة والغرائز والنظر، ويتعلموا منها أيضاً التعايش لخلق أجواء مريحة في المكاتب. من الفوارق السلوكية بين الجنسين الآن أن الأصلي يعيش في الأشجار وعلى الصخور، بينما الآخر المتحول ما زال يسكن البيوت ويظن أنه يتشبه بالبشر.

ما يقلق بعض القرود، ومنهم الجد الستيني، أن فئات قردية متحولة أصبحت تتصرف بوحشية فائقة ومتصاعدة، تتجاهل بقية القيم المتوارثة والغرائزية، وهذه الفئة تتغير ملامحها وتوحي بالقسوة المكسوة بالغباوة، ولسبب ما، فهذه الفئة هي التي تتبوأ الحكم والقيادة في مناطق متعددة على ظهر الكوكب، ومن غير المعروف إذا كان المنصب هو المؤثر والمتسبب في التحولات السلبية، أم أن التحول سابق، وهو الذي يؤهل إلى تبوؤ القيادة والمناصب. وهناك فئة أخرى، على العكس من ذلك، ولا تزال تجمع في الشكل الجسماني بين الإنسان والقرد، ولكنهم أنانيون سلبيون ومسالمون، لا يهتمون بما يجري للقرود الغريبة عنهم حتى لو كان الأذى

نابعاً من تصرفات بلدانهم وقادتهم، أي لا يوجد لديهم الشعور الغريزي بالعدالة والاحتجاج من أجلها وإيثار الغير سعياً إلى تطبيقها، كما هي غرائز القرود الأصلية وخواصها. هذه المجتمعات أصبحت مثل قطعان الغنم تبحث عن الطعام والتوالد والراحة وموكلة أمرها إلى الراعي تماماً.

أحياناً كان الجد يحدث الحفيد عن نظريات يستحيل على الصغير استيعابها فيبدو الجد وكأنه يحادث نفسه، وفي أحيان أخرى كان يفكر في حفيده المستمع والمتعطش إلى معرفة الأصول فيعطيه شروحات قد يفهمها. الإشاعات والأساطير متنوعة ومتعددة وسهلة على الفهم وبالتالي الأوسع رواجاً، أن فضائيين كانوا قد خلقوا البشر من مواد متوافرة على الكوكب، ومنحوهم العقل ومكنوهم ببعض التقنية والمعدات وتركوهم لوحدهم، وأصبحوا يراقبون هذه التجربة العلمية ويتسلون ويستمتعون بما يشاهدون.. وحينما تحول الإنسان إلى السلبي، أوقفوا التجربة وخسفوا مستواهم إلى قرود كونها الأقرب إلى شكلهم وغرائزهم. هذه الأسطورة سهلة التصديق إذ تعتمد نظرية الخالق المجهول العارف بكل شيء، والمخلوق الجاهل بخلفيات الأمور وما عليه سوى الإيمان والتصديق. مؤيدو هذه الأسطورة يستشهدون بحقائق علمية وأخرى تاريخية عثروا عليها في الكتب. يقولون إن جسم الإنسان والصخور وأنواع التربة تتركب من مكونات متشابهة، فالأوكسجين يشكل ٦٥٪ والكربون ١٨٪ والهيدروجين ١٠٪ والنيتروجين ٢,٩ ٪ والكالسيوم ٢,١٪ والفسفور ١٪ وكميات ضئيلة من الألمونيوم والكوبالت والزنك والحديد والمنجنيز والماغنيسيوم والصوديوم واليود والكبريت والكلور والفلورين والسيلكون.. وهذا يشابه بشكل مذهل تركيب القرود وسائر المخلوقات من نبات وحيوان كما يشابه تكوين الكوكب ذاته ولو بنسب مختلفة.

أذاً، يمكن القول إن رواد فضاء قدماء حطوا على الكوكب وصنعوا من

مواده الإنسان والحيوان والنبات ونصبوا البشر على رأس الهرم ومكنوهم من تقنية التطور وتركوهم ليراقبوا مستويات الترقي الذاتي لديهم. المشترك بين البشر في مختلف نواحي الكوكب والأزمنة أنهم طوروا أدياناً وآلهة يعبدونها، وذكروا في معتقداتهم روايات تشير إلى خالقيهم الفضائيين. كل الآلهة للديانات المتعددة على مدار آلاف السنين لها نشاط وعلاقة مباشرة بالفضاء، كما وجدت أعمال هندسية قديمة متشابهة وصعبة البناء في أماكن متباعدة جداً على الكوكب ولم يكن بينها ترابط وتواصل حين أقيمت هذه الأعمال. وهناك إشارات واضحة في الآثار الحجرية وكتب الأديان المتعددة عن حروب فضائية وحركة تنقلات بين الكوكب والفضاء. وذكرت الكتب أنه تم التحقّق من مواد خنجر ملك عاش قبل آلاف السنين، وثبت علمياً أن مصدره الفضاء، إذ لا توجد مواد مشابهة له على الكوكب، وبالطبع لم تكن لدى البشر آنذاك تقنية تصنيع الخنجر من نيزك قد يكون ارتطم بالكوكب. المرويات الفضائية كثيرة ومتشعبة بين المنطقي والخيالي وتنتشر بين الأطفال والبسطاء من القرود، لكن الجد الستيني وأمثاله من الأقرب للواقعية يتجادلون في العادة حول نظريات أخرى، ويستقون معلوماتهم من بواقي كتب وتسجيلات ورثوها عن أيام البشر، ومما يتذكرونه أيضاً من روايات الأسبقين التي تتلوث وتندثر هي الأخرى من جيل إلى آخر. هكذا تتكون الأساطير وتخبو الحقيقة عبر الأجيال من جد إلى حفيد.

تجارب الذكاء الصناعي التي ربما خرجت عن طورها وسيطرت عبر تقنية النانو على الكوكب، وأحدثت التحول حسب تغيير في جينات الأفراد والشعوب، هي أحد العناوين الرئيسة الشاملة لما حدث. في التفاصيل تسكن الاختلافات في المروي من الأساطير. من الأسئلة المحيرة للقرود مثلاً تبعاً لهذه الأسطورة، كيف عم التغيير أطراف الكوكب الذي

تقسمه المحيطات والبحار والعادات والسياسات والأعراق؟ هل تم نشر أو انتشار أدوات التغيير عبر الجو، أو وضعها في مياه الشرب السطحية والعميقة؟ أو ربما عبر متصفحات سابقة مثل الإنترنت كانت تراقب كل بشري أينما وجد طالما أنه يستعملها. هذا بالطبع مع صحة افتراض أن التحول من بشر إلى قرود قد حدث بالفعل نتيجة لتجربة علمية أفلت عقالها بالمصادفة؟ أو ربما تجربة علمية أريد لها أن تفعل ما فعلت، إذ يقال إن فئات عنصرية جداً وتتبع لدين معروف بالأسس الأنانية التي تُشجع على السيطرة وقتل الأغيار ونهبهم، هي التي فعلت هذه الحادثة عن عمد وسبق إصرار. وما يدعم هذه المقولة أن جزءاً من البشر قد نجا من النتائج، ومن الممكن أن يكونوا هم الذين يراهم الصغار في أحلامهم يهيمون في المكان اللامعروف بالنسبة إلى القرود. من جهة أخرى، ليس بالضرورة أن تكون تلك الفئة الدينية هي التي وضعت المؤامرة وتسببت في ذلك التحول، بالرغم من قدرة أتباعها المالية والعلمية والسياسية وخبراتهم التآمرية التي اكتسبوها على مدى قرون، فقد كانوا مسيطرين أصلاً والجميع في خدمتهم ويسعون لنيل رضاهم خوفاً من ابتزازهم.

من جهة أخرى، تتذكر القرود ما قيل كثيراً عن زعيم إمبراطورية كبرى كانت مهيمنة على الجميع، وأصيب الزعيم بمس في عقله، أو كان مهووساً قبل أن يتنصب. ذلك الزعيم الإمبراطور، الذي كان تحت سيطرة المتآمرين ومرتبطاً بهم، يمكن أن يكون قد فعلها من دون أدنى شك؛ فقد كانت كراهيته للآخرين علنية، وكان يدافع عنها ويدفع بلاده للانعزال عن الجيران، ويميز بين أبناء بلاده حسب أصولهم العرقية وحسب انتماءاتهم السياسية، وكان قانون بلاده يتيح له اتخاذ قرارات فردية سيادية.. ربما ظن أن تطور بلاده العلمي لا غبار عليه، واستعمل التقنيات المتاحة بالشكل الذي تطور لتحويل البشر إلى قرود. وربما استعمل تلك التقنية لتطوير

ذاته وحاشيته إلى شيء مميز، فجاءت النتائج عكسية وتحول إلى قرد، ولهذا عممها على البشر مستفيداً من هيمنة بلاده على بقية دول الكوكب وقدراتها في التنفيذ.

حتى قبل أن يتسلم ذلك الزعيم مقاليد الحكم، وجدت في بلاده وفي بلدان غيرها، تجارب تهدف إلى التحكم في طبيعة البشر الأحياء وتحديد خواص وصفات للبشر قبل أو بعد إنجابهم. بعد الإنجاب، كان من الممكن إلغاء بعض جينات المريض ليتحسن وضعه أو لإزالة صفات سيئة حتى لا يورثها لأبنائه وأحفاده. كما وجدت تقنية تكشف عن الجنين وحالته ثم تغير في جيناته تفادياً للمرض قبل أن يولد. وحدث تطور نوعي في هذا المجال إلى درجة إطلاق لقب المخترع على الإله، أو أنه يريد أن يلعب دور الإله الذي اعتقد الكثيرون من البشر أنه خلقهم وخلق النبات والجماد والفضاء وهو على كل شيء قدير. ذلك الإنسان المخترع لتقنية تطوير الجينات أصبح بوسعه تعديل الصفات.. مثلاً بوسعه تعديل خواص طفل من عادي إلى خارق في مجال ما، مثل أن يصبح عالماً فطحلاً في أي تخصص، أو تعديل الخواص ليصبح الإنسان المعني شجاعاً لا يعرف الخوف ولا يخشى الموت، وقوياً بعشرات أضعاف أي بشري آخر، وبالطبع يمكن تطوير الإنسان العادي بصفاته العفوية المتوارثة والمختلفة عن غيره من البشر، تطويره من عادي إلى غبي جداً. هذه الخواص المكتسبة تصبح وراثية لأبناء الإنسان المُحسن وبناته، وبالتالي يمكن تطوير فئات جديدة بخواص منتقاة لإنجاز مهمات محددة. لقد شهدت الحالة البشرية في بعض دول غنية معينة قبل تحولها إلى قرود، شهدت طفرة في حقوق الإنسان وانتشار أفكار السلام، وأصبح بالتالي من الصعب على الزعماء السياسيين إرسال المواطنين إلى الحروب، ولم يعد الرأي العام في الدول المتمدنة يتحمل موت الأبناء في حروب اتضح أنها ظالمة في الأصل، بل تطورت

توجهات نظرية تعتني بالعبيد وبالأمم الفقيرة ولا تسمح بالمجاعات. هكذا يمكن افتراض سعي البعض إلى نتيجة تستفيد من التقنية في خلق جيوش مميزة ورأي عام خانع أو متقبل للحروب، بل هو رأي عام لا يملك من قراره شيئاً. وهكذا ليس من المستبعد أن يكون تحول البشر إلى قرود قد تم من طريق الخطأ وتعميم الأمر بسرعة نسبية لتصيب كل البشر، أو تحويلهم إلى قرود مع سبق الإصرار، للتحكم في ردود أفعالهم، مع استثناء من يُراد استثناءهم، وبالطبع في هذه الحالة لا تعرف القرود أين يوجد البشر الناجون، وما المكان الذي اختير لهم ليقطنوه، ومتى بدأ التحول في الأصل. هذا سيعني أن المُتحكم أو المتحكمين في هذه التقنية وقدرات تنفيذها قد أصبحوا آلهة يخلقون ويسخطون من يريدون كيفما يناسبهم.

تعرف بعض القرود من مطالعاتهم وما توارثوه من معلومات أن التقنية الخاصة بالتلاعب في الجينات البشرية ظهرت إلى العلن كنتيجة لعمل عالم مجتهد لم يكن يفكر في الأخلاقيات، ولكن هذا لا يعني عدم وجود علماء آخرين وجماعات ودول عديدة لديها مختبرات تطوير لم يُعلن عنها ولا يُعرف تخصصها، وما آلت إليه نتائج بحوثها وكيف استُغلت ربما من أصحاب القرار في تلك البلدان من دون مناقشة وإبلاغ للرأي العام في بلدانهم. الكثير من علماء الاجتماعيات والاقتصاد كانت لديهم آراء معلنة قبل التحول إلى وضعية القردة، قد تكون ساهمت في خلق أفكار دفعت إلى التحويل. هؤلاء كانوا يقولون إن الموت هو مصير كل إنسان في النهاية، ولكن الإنسان، وخصوصاً في الدول والمجتمعات الفقيرة، يتكاثر بسرعة فائقة ستؤدي عاجلاً إلى عدم قدرة الكوكب على إغاثة هذه الجموع المتزايدة. وقالوا إن الكارثة تتسارع مع نمو مجتمعات كثيرة السكان وانضمامها إلى الأمم الاستهلاكية، وبالتالي تسارع النقص

في الحاجات اللازمة للكماليات، وبالطبع ارتفاع نسب التلوث البيئي المساهم في اختلال تركيبة الكوكب وتغيير مناخه وخواصه، وزيادة احتمال حدوث كوارث طبيعية مدمرة.. والاستنتاج لأولئك هو الحد من أعداد البشر للحد من متطلباتهم، وهذا يحتاج إلى قتل جماعي هائل لإنقاص التعداد ومعادلة النمو، والقتل ليس من السهل إنجازه والتعامل مع نتائجة. هكذا نرى أن تحويل البشر إلى قرود يحد من نسلهم ويقلص طموحاتهم ومتطلباتهم للكماليات ما يعيد التوازن إلى الكوكب، وبالتالي تتحول المهمة إلى الإنقاذ وليس إلى القتل والتدمير. بمعنى آخر بدل انتظار الموت الكارثي المحتوم نتيجة لزيادة تعداد البشر وتأثيرهم في بيئة الكوكب، فالأفضل إنقاذ ما يمكن إنقاذه، خصوصاً وأن البشر فانون وكل منهم سيموت إن آجلاً أو عاجلاً، وكلهم سيبادون في كوارث إذا لم تتم عملية الاختيار للبعض وتحويل الأغلبية إلى قردة. بالطبع لا يُحدث الجد حفيده بهذه النظريات التي لن يستوعبها، كما أنه يعرف تطلع الحفيد إلى ربط أصولهم مع البشر، وتمنيه أن يكون التحول قد حدث نتيجة لخطأ وليس بفعل فاعل.

نظرية حتمية الموت بدورها قد تكون لها علاقة مباشرة لتحول البشر إلى قرود، فربما قررت الفئة المُطورة لتقنية الجينات والمتحكمة في تطبيقها، ربما تكون قد سعت إلى قهر الموت والوصول إلى حالة الخلود، وهذا يعني قمة الأنانية بالطبع، ويحتاج منهم إلى حجز الموارد لتكفي الخالدين ونسلهم، وبالتالي لا بد من التعامل مع الأكثرية المتكاثرة عبر التوالد الطبيعي سواء بالإفناء أو بتحويلهم إلى قرود قليلي النسل ومحدودي الاستهلاك وعديمي الخطر على الخالدين الذين ارتقوا هكذا إلى درجات إلهية جديدة، ونسفوا الفكرة السائدة والتي تعتمدها الأديان بأن كل نفس ذائقة الموت، بل نسفوا فكرة الآلهة الخالقة القادرة على

كل شيء.

قلة من القرود تؤيد في آرائها ما تظنه من سيطرة الربوت على البشر في مرحلة ما وتحويلهم إلى قرود رأفة بهم بدل إبادتهم، فالبشر في النهاية هم الذين صنعوا وطوروا باستمرار الربوت ومنحوه قوة التفكير والتدبير واتخاذ القرارات سعياً منهم إلى الراحة والكمال والجلوس كآلهة تأمر بتنفيذ ما تريد. ربما في فترة ما توافقت الظروف لاستقلال الربوت عن صانعه والتحكم في البشر، ومن ثم إيجاد طريقة سلسة لتحويلهم إلى جنس القرود، حيث كان الكثير منهم أصلاً يظنون أنهم تطوروا عنهم إلى بشر عبر مئات آلاف السنين، بينما كان المتدينون يؤمنون أن ربهم في السماء خلقهم من طين ومن مواد الكوكب، ويكفرون الذين يتحدثون في نظرية التطور من الخلية الواحدة إلى بقية الحيوات والوصول إلى القردة ثم تطور بعضها إلى البشر. فئة أوسع من القرود الحالية تتقبل فكرة خلق الآلهة للبشر ومن ثم سخطهم إلى قرود، ولا تعترض أيضاً على أسطورة الفضائيين الذين خلقوا البشر كتجربة اجتماعية على الكوكب وراقبوهم، ولم يرتاحوا لتطورهم الذاتي التخريبي فسخطوهم قروداً، كون هذه الأسطورة تؤمن بخالق من السماء وقريبة من الفكرة التي تنسب الأمور العصية إلى الآلهة وإرادتها، وبذلك يريحون عقولهم. بالطبع قد يكون تحويل البشر إلى قرود بهدف وقف التدهور وإعادة تأهيلهم وزرع الغرائز الأساسية لديهم مثل التراحم والعدل والإيثار والتعاون، والطباع الأخرى الإيجابية التي تتحلى بها القرود الأصلية وأضاعها معظم البشر. إذا لم يكن الأمر كذلك، أي عملية إنقاذ، فربما يتواصل التدهور تحت مستوى القرود وجنسها بدرجات وتذهب قدرات التذكر والتفكير والفهم.

فكرة التخلص من الموت، وما أنتجت من تطورات أدت في النهاية إلى تحول البشر إلى قرود، هي الفكرة الأكثر رواجاً بين أقلية من القرود

ما زالت تمتلك قدرات على المجادلة والتعمق الفكري وتتبع بعض خطوات التطور العلمي والاجتماعي والسياسي السابق التي أدت إلى نتيجة تحول البشر إلى قرود. تاريخ البشر، الذي اطلعت عليه القرود، يشير إلى سعيهم الدائم لقهر الموت، فلديهم أساطير عدة قديمة تدور حول أمور مثل إكسير الحياة، ونبع الخلود، وشراب الآلهة، وكأس الموت، وبالطبع أسطورة الملك القرد الخالد. وكانت أساطيرهم تعطي الخالدين صفات إلهية أو نصف إلهية وهي التي تملك الشباب والقوة الجسدية وقوة اتخاذ القرار وتنفيذه، وهذا أسمى ما كان البشر يتطلعون إليه ويجدون العزاء في تمنيه وتخيله والتقرب منه بوصولهم إلى منصب زعيم جماعة أو رب أسرة أقلّه، أو أي منصب يؤهلهم للتحكم في الآخرين. لكنهم بقوا بالفعل بعيدين عن فرصة الخلود، وإن لم يكفوا عن السعي إليها. ذلك القصور استغلته الأديان فروجت لحياة الجنة الخالدة التي تلبي كل الآمال والتطلعات في الحياة الأخرى إذا انصاع البشر في الحياة الدنيا.

كان متوسط عمر الإنسان سابقاً في حدود الثلاثين عاماً ويموت لأسباب كثيرة، ثم بعد تطور تجارب الأعشاب وعلوم الطب وصناعة الدواء، تحسن المعدل بشكل متسارع في غضون قرون من الزمان إلى ضعف وضعفي المتوسط. تصاحب تطور الطب مع علوم أخرى ومخترعات متتالية ربما أهمها علم الجينات والتحكم فيها. في البداية استعملوا هذا العلم طبياً لتحسين الوراثة، وإزالة الأمراض، ثم تحسين النوع، وتلا ذلك تطوير الصفات وتركيزها في إنسان محدد أو مجموعة منتقاة. كل ذلك كان بعضه يتم في العلن ومعظمه في السر، واعتمد المسيطرون على ذلك العلم نظريات اجتماعية جديدة تسول لهم استعمال الهندسة الوراثية لعلاجات التجدد لفئات بشرية، وعلاجات التخلص من فئات أخرى بدون حروب وخسائر وضجيج. قبل التوصل إلى ذلك التطور بزمن، خمن أو

عرف بعض العلماء أن إمكانية قهر المرض وصولاً إلى قهر الموت آتية لا محالة، وقد تسبقها نجاحات جلية في تجارب الاستنساخ، إلى درجة أنهم خزنوا ما يلزم لاستنساخهم مجدداً بعد الموت حين تتقن مثل هذه العمليات.

لقد كثرت منذ زمن إشارات مراكز البحوث عن التوصل إلى تقدم سريع في البيولوجيا الإلكترونية، ما جعل أنصار هزيمة الموت يعتقدون أنهم اقتربوا من هدفهم بسرعة، وكانوا بالطبع يُلمون بالنتائج الاجتماعية التي سيفرزها هذا التحول. هزيمة الموت لمن يستطيع إليه سبيلاً تعني في المقابل الموت السريع للآخرين. وقد تغربلت المجتمعات والفئات في كل منطقة بشكل واضح قبل الانتقال من حالة البشر إلى حالة القرود. الفقراء والمتخلفون لم يكن بوسعهم بالطبع الانضمام إلى المستفيدين من قهر الموت، وعلى الأرجح تم تعقيم الإناث لوقف التوالد، لكن مثل هذا الإجراء لم يكن سريعاً وكافياً أو مضموناً ولم يرغب المستفيدون في انتظار تحول طبيعي مثل الذي قيل أنه قد حدث قبل مئتي ألف عام. يقال أنه أنذاك وجدت ستة فصائل بشرية تطورت عن القرود، لكن فصيلة واحدة صمدت بعد أن ساهمت في إبادة الأنواع الخمسة الأخرى. في الثلث الأخير من تلك الفترة تحسنت تركيبة دماغ الإنسان وانتشر عبر الكوكب وتأقلم في الشكل والأداء مع محيطه الجغرافي، ولكن تأقلمه كان على الدوام يضر ويخل بالبيئة ويقرض أنواعاً من الحيوانات والحيوات. النتيجة أنه مع كل تقدم ازدادت الفوارق بين الناس وتعاظم الإخلال البيئي.

رجال السياسة والعلم، وبالطبع التجار، مهدوا لمرحلة اكتشاف المعرفة وانتشارها، متصدين لعلوم الأديان وقيودها، ثم بدأت مرحلة التصنيع واكتشاف الطاقة وتحويلها إلى حركة، وصولاً إلى مرحلة علوم البيولوجيا والجينات التي مهدت لمحاولات خلق إنسان سوبر جسدياً

وعقلياً، أي إلغاء الإنسان القديم الذي سبق وألغى بدوره أنواع الإنسان الخمسة الأخرى في الماضي. عندما عُرفت تجارب البحوث للعلوم الوراثية وقدراتها المتخيلة ثارت سياسة القيم والأخلاق المكتسبة بين غالبية البشر، وهي مكتسبات تعتمد على تعاليم دينية وموروثات أخلاقية نافعة لتماسك المجتمعات. ثار أصحاب هذه القيم ضد احتمالات تحول بعض البشر إلى ممارسة أفعال إلهية بشكل مباشر. كان من الممكن قبل ذلك احترام العلوم ونسب المخترعات الحديثة المتتالية إلى قدرات وهبتها الآلهة للبشر، لكن أن يقوم البشر بتحسين ذواتهم وخلق بشر آخرين بطرق جديدة ولديهم كفاءات لم تتحدث عنها الأديان، فهذا اعتداء على القيم والأخلاق والمعتقدات السائدة. أضف إلى ذلك أن البشر بعد كثرة حروبهم الكونية التي أبادوا فيها الملايين من أنفسهم، نمت لدى بعضهم في مناطق محدودة نوازع أخلاقية وقيم تسامح وتعاون وتعمقت أفكار حقوق الإنسان، وأن لا تعتدي حرية الواحد على الآخر.. كل هذا أرهب ثوار علم الهندسة الوراثية فلجأوا في أبحاثهم إلى السر تجنباً لاعتراض الرأي العام الإنساني المتعايش مع فكرة الموت والحياة بعد الموت، فكان لا بد للأقلية من تحويل الأغلبية إلى قرود من دون نقاش.

مخيلة الإنسان هي التي مهدت لتفوقه على بقية الحيوانات الكوكبية عبر قابلية التعاون في تشبع الخيال. فالجمال والأسود والفئران لا يمكنها تخيل جماعي لفكرة وجود حياة بعد الموت، لكن الإنسان كان بوسعه ذلك التخيل بل والتصديق الأعمى، كما أنه صدق خيالات كثيرة وعميقة شكلت حياته اليومية والشمولية، وهذا الخيال هو الذي تصدى لعلوم الهندسة الوراثية التي تنسف أساطيره وتخيلاته، وهي أسس حياته. اعتبر الإنسان إنجازاته الخيالية حقيقة تجب حمايتها؛ فبعد أن كان البشر يذبحون ويحرقون أمثالهم لأسباب ظنوا أنها دينية ولها علاقة بالآلهة، واكتشف

لاحقاً أنها كاذبة وجنونية، أصبح بعضهم يدافع بشراسة عن مكتسبات جديدة، حقوق الإنسان مثلاً، أو الحرية الشخصية، ويضحي بحياته أو أقله يتبرع بعضهم بأمواله لحماية حقوق وحريات مُضطهدين لا يعرفونهم شخصياً، فكيف يرضى بقهر الموت الذي يتطلب تحجيم تعداد الناس بقتلهم أو سخطهم وتخصيص الخلود لقلة من المستفيدين، وبالتالي الإخلال بالنظام الفكري والاجتماعي القائم، والتعدي على وظائف الآلهة.

الموت هو فلسفة الحياة وجذرها لدى غالبية البشر سابقاً، والقرود حالياً، فهو بالنسبة إليهم حق وأجل محدد لا يتقدم ولا يتأخر. والموت رديف للحياة الأخرى حيث الحساب والعقاب والثواب في الجنة أو في النار. إذا انتفى الموت انتفت الحكمة واستوى الفاجر والطائع والقاتل والمقتول، وبالتالي تكالب الجميع على الحياة دون خوف أو رجاء مما ينتظرهم بعد الموت. وبالإضافة إلى ذلك، فالإيمان بالموت والبعث له غايات تربوية مجتمعية، فيُعتبر الأول مصيبة اللذات في الحياة وهادمها، وفي المقابل يستعمل البعث للترهيب والترغيب، ودعوة إلى تنفيذ فلسفة المجتمع طوال الحياة. من هنا بالذات، لا يمكن تقبل فكرة قهر الموت ضمن الفلسفة السائدة، ويتوجب على أصحاب هذا العلم اتخاذ قرارات ديكتاتورية ذاتية بدون استشارة.

من الممكن بالطبع أن تكون عقائد اجتماعية انتقائية موائمة قد واكبت التطور الطويل الذي أثمر تحويل البشر إلى قرود، كأن يقال إن الآلهة هي التي سخرت لجنس بشري أن يبيد الأجناس الخمسة الأخرى في الماضي، وإنها الآن راضية عن تطوير فئة من البشر وسخط بقيتهم إلى قرود، بل يمكن العثور على اقتباسات عديدة في كتب الأديان تؤيد وتبشر بهذا التطور.. وربما تكون الفئة المختارة وصاحبة القرار قد أقنعت ذاتها بما تريد ولم تكترث برأي الأغلبية كما هو الحال على الدوام.

لا يُعرف عن أي حقبة في تاريخ البشر أن كان المتدينون أكثرية بشكل طويل، ففي كل مرة يتشكل دين وآلهة تضطهدها الأكثرية ثم تتحالف قوى الدين مع السياسة والمال وتنساق إليها الجموع حتى تنهار الإمبراطورية السياسية وتفلس ويتشتت دينها، فيأتي غيره سواء كان روحياً أو مادياً، وتدور العجلة من جديد. ضمن هذا السياق لا يُستبعد تجدد الدين وعودة القناعة بألوهية بعض البشر، تماماً كما في الماضي أيام الإمبراطوريات وما سبقها وما تلاها من الديانات الحديثة التي كثر فيها الأنبياء، حتى إذا مات أحدهم اعتبروا حاكمهم التالي نبياً، وكان الأنبياء كلهم على تواصل مستمر مع الآلهة. الفارق بين الماضي والحاضر أن الفئة التي اختارت ذاتها والمتحكمة في الهندسة الوراثية والمال والسياسة أصبحت بالفعل تخلق وتطور وتبيد وتسخط، وليس مثل آلهة الماضي ذات الأفعال الخيالية. ضمن هذا السياق يتناقض الحكم على هذا الإنجاز، فقد يراه المستفيدون إنسانياً عظيماً حمى الكوكب والأجناس من مخاطر حتمية، بل يمكنهم الادعاء أنهم وصلوا إلى خلود ونعيم الجنة الموعودة، وقد يقوّمه المسخوطون كجريمة لا نظير لها، ولذلك الفريق رب يحميه ولهذا بالطبع رب سيشفع له في الحياة الآخرة.

القرود على أنواعها ودرجات إدراكها، لا يمكنها معرفة ما حدث لها بالضبط ومتى، وبالتأكيد ليست في وارد معرفة ماذا حدث للباقين من البشر، أين أخذهم الإنجاز العلمي، وما هي البيئات الجديدة التي وجدت؟ وهل أصبحوا خارقي القوى فائقي الذكاء؟ وهل قهروا الموت وحدوا من قدراتهم الإنجابية حتى لا يتكرر معهم الحال؟ وهل يسيرون على الكوكب أم هم معزولون في جزيرة خاصة أو يهيمون في الفضاء لا يأكلون ولا يشربون ولا يتبرزون؟ لكن بعض القرود تعرف أن البشر، قبل التحويل، عانوا مشكلات زيادة السكان والإعمار، وقلة الموارد

وعظم الفوارق بين المناطق وداخل كل منطقة، والضرر بالبيئة، وأن الحلول فشلت وتعاظمت الفوارق حتى توصل العارفون إلى حلول التحويل إلى قرود، ربما متعمدين أو بالصدفة. قد يكون أصحاب القرار تدارسوا ما العمل بهذه الأعداد البشرية الهائلة، وناقشوا فرص خصيهم أو تخديرهم أو إلهائهم بألعاب، لكنهم في النهاية توصلوا إلى فكرة التحويل إلى قرود، فالسادة لم يعودوا بحاجة إلى خدم وعمال أنتجوا وسائل خدمة أفضل وأرخص.

ما يعزز لدى القلة من القرود العاقلة مقولة أن التحويل تم بالخطأ أو بالصدفة وليس عمداً، هو عدم استغلال هذا العلم المتاح في تغيير طبيعة البشر قبل أو بعد تحويلهم إلى قرود؟ لقد كان الكثير منهم متوحشي التصرفات ضد أمثالهم، قتلة، واستعماريين، وعنصريين، وأنانيين. وبالطبع تطور في المقابل سكان بعض المناطق الأخرى إلى درجة مدنية متقدمة جداً.. ألم يكن الأجدر بأهل المعرفة والقرار إذاً، أن يطوروا الجميع إلى مثل أولئك المتمدنين بدل سخط المتوحش إلى قرد؟ وإذا كانت هناك أسباب مجهولة حتمت التحويل إلى قرود، ألم يكن الأفضل تغيير جيناتهم وإزالة مسببات التوحش؟ فالبشر بغالبيتهم سابقاً وغالبية القرود الآن لا يختلف نهجهم المتوحش في التعامل بعضهم مع بعض. موبقات على مستوى فردي وتعذيب وقتل وحروب وظلم على كل المستويات.. هذا الحال يدفع بالقردة الواعية إلى الاستنتاج أن التحويل من بشر إلى قرود قد تم فعلاً بطريق الخطأ، كون هذه النتيجة الحالية السائدة لا تخدم أياً من الأطراف المعنية.

درجات التطور البشري قبل التحول إلى قرود، وبكل مستويات ذلك التطور، هي قفزة هائلة عما كان عليه الوضع قبل بضع عشرات آلاف السنين. كانوا يلبسون الجلود واعتبر اكتشاف النار والطهي عليها حدثاً

فائق الأهمية، ومنذ ذلك الاكتشاف تدخل النار بشكل يومي في حياة كل إنسان. لم يكن البشر آنذاك أصحاب تأثير على الكوكب والبيئة وبقية المخلوقات، بل كانوا فقط مختلفين في الشكل والغذاء عن تلك الحيوات.. ثم تطوروا وبقيت الحيوات شبه عديمة التطور. كل تطور جزئي دفع بهم إلى أكبر منه. انتقلوا من طعام جمع الحبوب البرية إلى اللحوم النيئة ثم المطبوخة على النار، فتأثر حجم الدماغ وتحسنت قدرات الحديث وطوروا لغات الإشارة ثم الأصوات.. وهكذا حتى وصلوا إلى موقع الصدارة على كل الحيوات وتنافسوا فيما بينهم واستغل بعضهم بعضاً الآخر. لكن ما أوصلهم إلى بناء الثقافات والأمبراطوريات وتخيل الأديان وتطوير العلوم بأنواعها، هو التعاون المرن فيما بينهم وقدرتهم التخيلية الهائلة. أحياناً كان خيالهم الفردي والجمعي يعوّقهم، وأحياناً أخرى يدفعهم إلى الأمام. الخيال المؤدي إلى الخوف من المجهول والتقوقع والخنوع كان يمهد لسيطرة الظلام والظلم، والخيال الفعال يخدمهم فيتمدنون. وكان المتخلفون في العمق يرون التمدن أحياناً فيرتدون قشوره، ولكنهم عملياً يعيشون في الظلام والتقوقع. خيال يدفع إلى التطور الثقافي والعلمي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وخيال آخر يعمق التخلف والتجمد والأنانية ولبس القشور في أحسن الأحوال. هكذا بالطبع أشهرت الموبقات وذاع صيتها على مستوى المتخلفين في الكوكب، فبالرغم من تراجع حجم العنف مثلاً، إلا أن الحديث ضده وتقصي أخباره والإجراءات لكبحه قد ظهرت فبدا وكأن العنف يتزايد، ولكنه في الحقيقة يتراجع لدى المتمدنين ويُشهر به على مستويات أوسع فيظهر أكبر حجماً. لا يوجد في تاريخ البشر عصور سابقة أفضل من عصور لاحقة، لكن التطور كان مكرساً وسريعاً في مناطق وبطيئاً في مناطق أخرى، ولهذا تعاظم الفرق بين البشر حتى وصلوا إلى مرحلة

حتمية الفرز. فحين يصل التمدن لدى بعض المجتمعات إلى درجة سن قوانين لحقوق الحيوانات وحماية البيئة، في حين يستمر البعض الآخر في قطع الرؤوس ونشر الأعضاء وتعذيب إخوتهم وأخواتهم بطرق مبتكرة هي بالتأكيد أهون قليلاً عما ساد لديهم قبل ذلك، حينذاك يتوجب الفرز. كان المتمدنون والمتخلفون، حتى قبل قرنين فقط، يشتركون في أساليب سلخ جلود المخالفين وهم أحياء، وخوزقتهم، وتعليقهم مكتفين مع وضع العسل على أجسادهم ليصبحوا وليمة للحشرات والجوارح، وكانوا بالطبع يقتلون بالحرق، ويرحمون المخالف بالشنق أو قطع الرأس والفسخ لأربع بقوة الخيول، هذا دون التذكير بالاغتصابات والإهانات التي تملأ كتباً، وكانوا يصدقون الخرافات والسحر.. لكن طرق الجميع تفرعت بسرعة نسبية فوصل بعضهم إلى درجات تمدن لا يستطيع خيال البعض الآخر مجرد استيعابها. حقق الذين كانوا يحرقون الساحرات لركوبهن المكانس ذلك الخيال ونجحوا في الطيران بأنواعه، بينما استمر المتخلفون يرفضون فكرة دوران الكوكب ويصدقون تخيلات وهمية، ويؤمنون بوجود الجن والسحر.

عاش المتمدنون في عالم متوازٍ بين الملموس والمتخيل الإيجابي فتقدموا، وعاش المتخلفون في عالم متوازٍ، أيضاً، بين الملموس والمتخيل السلبي فحافظوا على تخلفهم، وتعاظمت فوارقهم مع المتمدنين. أما الحيوانات فتعيش على الكوكب فقط في عالم الواقع بدون خيال، وإذا تعاونت فيما بينها فمن أجل تحقيق مكسب مادي، عادة ما يكون توفير الطعام والسكن. الحيوانات لا تخاف من ظلام الليل، ولا تؤمن بخالق أو تعرف عنه، ولا تتعامل بالأموال، وهي حتماً لا تعرف شيئاً عن الموت والحياة الأخرى.. عالمها واقعي تماماً ترى الغذاء فتسعى إليه. وهذا على خلاف البشر الذين يتخيلون ويصدقون وينفذون مخترعات متخيلة، مثل

المال والقوانين والأعراف والديانات والآلهة والحساب والعقاب في الآخرة. التخيل المشترك الأكبر بين المتمدنين والمتخلفين، هو قناعتهم بسطوة المال وإيمانهم به.. قد يختلفون في الدين والقوانين والطباع بدرجات متفاوتة بل ومتناقضة، ولكنهم يؤمنون بالمال بالرغم من كونه حقيقة خيالية حديثة العهد. في الواقع تم ربط المال بالحياة والموت، واستوعبت الأديان هذا الخيال فقدمت المال على البنين وعظمت أصحابه خصوصاً إذا تصدقوا منه. ربط الإنسان بين الموت والمال، أو بالأحرى قلة المال، وعرف الموت بأنه صراع ضد وانهزام أمام الجوع والمرض، لذلك يستغرب الفقراء من المتخلفين موت الأغنياء، وقد ينعتونهم بالبخل لأنهم لم ينقذوا أنفسهم بالعلاج المُكلف مالياً، وهنا أصلاً أساس مبدأ سعي الأغنياء إلى قهر الموت مهما كلف من تضحيات مالية ومتطلبات اجتماعية. كان الموت يضمن استمرار البشرية وتجددها، وجاء من فعل الأمراض والجوع والكوارث الطبيعية، والحروب طبعاً. لكن التمدن السريع لبعض البشر وتطورهم في مجال الطب، وانتشار الأخبار الطبية ومتابعتها من المتمدنين والمتخلفين على حد سواء أطال في الأعمار ونشر الأمل في انتصار الحرب ضد الموت، إلى درجة أن الأغنياء من بين المتخلفين والمتمدنيين على السواء كانوا يجمدون أجسادهم قبيل موتهم في مصحات خاصة ومكلفة انتظاراً للعلاج الذي سيقهر الموت.. ذلك طبعاً قبيل عملية تحول غالبية البشر أو تحويلهم إلى قرود.

الإيمان بالأديان أعطى جميع البشر، قبل وبعد أن تحولوا إلى قرود، أعطاهم الشعور بالمساواة بنسبة كبيرة نظرياً بين الجميع بمن فيهم الغني والفقير، بالرغم من تمييز الديانات للأغنياء عملياً بعض الشيء. لكن على الطرف الآخر فالإيمان بالمال والذي أصبح أعز ما يتمناه الجميع، عزز الشعور بالفروق بين من يملك الكثير ومن يملك القليل ومن لا يملك

شيئاً، كلهم يتمنون المزيد سعياً إلى سد الحاجات وصولاً إلى الكماليات التي كلما اعتادوها تطلعوا إلى المزيد منها، وأصبح الاستهلاك آفتهم الأشد وهدفهم المنشود، وما يشعل مخيلاتهم ويتنازلون في سبيله عن المبادئ والمعتقدات. وبينما انشغل الجميع بتأمين المتطلبات على اختلاف مستوياتها، اتضح أن العلم والمعرفة والقوة التي تؤدي إلى المال آخذة بالتجمع في أيدٍ قليلة، وهذا ما مهد لخلق الصراع المؤدي بالنتيجة إلى تحويل الأغلبية إلى قرود تكتفي بالقليل من الاستهلاك لتعم الكماليات المادية والاجتماعية الفئة الغنية المختارة من دون منافسة. كل ما أشيع عن الأخلاق والمبادئ والقيم العظيمة، لم يتبعها ويلتزم بها سوى قلة لا تذكر ولم تؤثر في مجريات الأمور.. المتدينون لم يلتزموا كأفراد أو جماعات بقيم أديانهم، والملحدون خالفوا قيمهم الدنيوية كلما أتيحت الفرصة لهم، والمؤمنون بالمال والقيم الاستهلاكية انتهوا إلى أشد أنواع التنافسية الشهوانية. لم يأخذ أي منهم ثقافته النظرية على محمل الجد أو ينتصر لها عبر تطبيقها بشكل محترم لا يَظلُم.

عموماً، لم يعرف البشر سابقاً باليقين من هم، واختلفوا في الاتفاق على من خلقهم ولماذا، ولا يُجمعون متى خُلقوا؟ والآن لا يعرفون ماذا حدث لهم ومتى كانت بداية التحول، هل كانوا قروداً وعادوا إلى ذلك، وهل هناك بقية منهم ارتقوا إلى مصاف بشرية سامية، وهل تم ذلك بالصدفة، أو بأمر خالق، أو نتيجة لمخطط سري نفذه المالكون ضد المعدمين؟ الثابت أن أفعال غالبيتهم المسجلة قبل التحول وبعده لا تحمل ملامح ثقافية راقية، أو قيماً محترمة تؤثر وتفعل العدل والحق والتعاون. إن الوقائع في القصص التالية هي غيض من فيض لتوضيح درجة التحول البشري المتسارع منذ زمن على طريق التبلد والخيانة والخساسة والحيونة.

تآمر وخيانة

أنجاس الزيلجن

كان منتشياً من تسارع المشاعر بين السعادة والاستغراب. سعادة نابعة مما اعتبره نجاحاً لمخطط جده، واستغراباً لجهالة الأقوام في ذلك الجزء من الكوكب والذين تنطلي عليهم الحيل ذاتها مرة تلو الأخرى. «هناك بالفعل فارق عظيم بين سلالة القرود البيضاء والشقراء والزرقاء، وبين تلك السمراء والبنية والحمراء والصفراء اللون والجلفة الصحراوية». تمتم بذلك ووضع يده بين الكرسي ومؤخرته المنتفخة. «ربما من خلقنا غير الذي خلق البنيين والسود والصفر.. بالتأكيد نبينا ودِيننا غير نبيهم ودينهم.» تذكر أن دين القرود الشقراء يُعمل به من بعض أقوام وألوان القرود الأخرى. «هذه خدعة أخرى مررناها على المتخلفين. السؤال المحوري هو: هل الذي خلقهم وخلقنا واحد، وهل يوجد الإنسان بالفعل بالرغم من عدم مشاهدته، أو ثبات أي معلومة من الأساطير المنتشرة حول وجوده؟ ولو وجد فما علاقتنا به وبهم؟».

أفاق من تخيلاته ونظر إلى مذكرات جده المحفوظة في ملفات مغلفة بجلد الخنزير فوق رف الكتب، لقد طالعها مراراً ويعتقد أنه يعرف معانيها ومقاصد محتوياتها غير المُعلنة، وقد فكر أكثر من مرة في نشرها، ولكنه تراجع عن ذلك كونها تضم وثائق ونقاشات سرية لم تُعلن بالرغم من مرور قرن وأكثر من الزمان على أحداثها. يخاف من المسؤولية أمام سلطات القوم الزيلجن الزرق، ويخشى فضح خساسة جده، خصوصاً وأن الأحداث تكرر ذاتها والخطط القديمة يتكرر تنفيذها على أحفاد القرود

الملتحية البنية. «هم يورثون الحكم لأبنائهم، ونحن نورث الأفكار والخطط لحكامنا، فيستمرون في غبائهم ونواصل ابتزاز أموالهم بالخداع، ونجعلهم على الدوام لنا محتاجين وشاكرين. همهم الاحتفاظ بالكرسي، وهدفنا استمرار الهيمنة عليهم وتحقيق الأرباح منهم». تبسم وسحب يده وحك بهدوء أسفل أنفه.

لم يشفع له اسم عائلته في تسلق سريع لسلم الوظائف، بل لم يستفد والده من شهرة جده. في الواقع صاحب المذكرات ليس جده بالفعل، بل هو أخ جده، فهذا قد مات من دون أن يُنجب. آنذاك قبضت السلطة الأموال من أصحاب الدين الأقدم، الجمود، وعقدت الاتفاقيات التي أسست للنهب المستقبلي مع بعض أتباع الدين الأحدث في هذا الكوكب، ولكن الجد لم يتسلم رشى، وهم يفتخرون بذلك، ولم يورثهم شيئاً يذكر، بل بهت اسمه بعد وهلة من تسارع الأحداث والحروب، ولم يعد يتذكره سوى أحفاد الذين تضرروا آنذاك من سياسة القرود الزرق، وبالذات سياسة جده ومن سبقوه وتبعوه في ذات الوظيفة. لقد دفعته مذكرات من يعتبره جده إلى الاهتمام بالأحداث الدائرة الآن، بل راجع التاريخ لألف سنة مضت، ولديه قناعه أنه استوعب ذلك، وأن دور جده كان متناغماً مع ضرورات البقاء والنصر للقرود الزيلجن الزرق، وحلفائهم الشقر والبيض على بقية الألوان، بل تثبيت دينهم المتوسط العمر، على حساب الأديان الأخرى الأقدم والأحدث. هو مقتنع أن الأمر ديني ومصلحي مُقنعٌ بشعارات القانون وادعاء حماية نسل القرود مهما كان لونها.

القرد، ويلي روفلب، يرى مجريات التاريخ باختصار شديد كالتالي: القرود الجمودية، المتكونة من عدة ألوان وأشكال ودين واحد، تصدت لدين القرود الشقر منذ نشأته، ولكنهم هُزموا وتشتتوا وأُبعدوا عن السياسة والإدارة فاتجهوا للاقتصاد والتجارة وتفننوا في جمع المال، وإنما بقوا

خانعين. انتشر الدين الثاني وتعددت طوائفه واختلف رعاته، ثم تقاتلوا فيما بينهم بضراوة لقرون، حتى ولد للقرود البنية دين فتي تجنب في البداية الاقتتال الذاتي عبر تنشيط الغزو وجمع الغنائم. احتلوا الكثير من المناطق المنتمية للدين الأشقر، ولم يتمكن القرود الشقر والبيض والزرق من ضبط أوضاعهم الذاتية إلا بعد خمسمئةِ سنة على انتشار خصومهم البنيين، فشنوا الهجمات، ولكنهم فشلوا بالمجمل حتى اهتدوا إلى الخطة التي شارك جد ويلي في تطبيقها.

كان مسؤول القردة الزرق الذي حكم قبيل الجد روفلب قد استضاف نظراءه من خمس دول مجاورة، واستثنى الشقر، أكلة الملفوف المخلل من الاجتماع، وتشاوروا طويلاً واقتنعوا أن الطريق الوحيد لدرء الخراب المقبل عليهم يتطلب وحدتهم، لنهب مستعمرات الشقر وحليفهم الذي يدير منذ قرون بلاداً واسعة غنية مؤهلة لاستكمال التحضر، يسكنها البنيون البرعل المتوحدون في اللغة والدين والطباع. اتفق المؤتمرون على تعطيل فرص تقدم البنيين وقرروا نهبهم. تعاهدوا على تقسيم تلك البلاد، وعدم نقل أي تقنية وعلوم إليها، وإثارة العداء بين طوائفها وقبائلها، ولضمان ذلك ارتأوا زرع جسم غريب من القرود يفصل المنطقة جغرافياً ويشاغلها، وقرروا أيضاً خلق إدارات في الأقسام توالي القرود الزرق، وتغض النظر عن الجسم الغريب المقرر زرعه هناك.

عندما عرف، دليشتور، أغنى أغنياء الجمود بالأمر، عرض على الزرق أن تكون القرود الجمودية هي هذا الجسم الغريب المنشود، واستعد بالدعم المالي وقبول أي شروط، ولم تكن القرود الأخرى تعارض، بل رأت في الاقتراح مبرراً للتخلص من قرود الجمود، صناع المشاكل، أو سببها منذ نشأة دينهم.

بوشر التنفيذ باستعمال القوة، حيث أمكن بدون خسائر، الكذب دوماً

طالما ينفع، وتغطيته بتبريرات أو بادعاءات السرية، الإيقاع بين الأطراف المضادة من كل الأطياف البنية وعلى كل المستويات، أي بين المركز والأطراف، وبين الأطراف وبعضها وبين المراكز أيضاً، توزيع الوعود حتى لو كانت متضاربة والتملص منها عند الضرورة، توزيع بعض الأموال مع إيهام بالمزيد، وبالطبع النهب حيث توجد غنائم، خصوصاً وأن مناطق الزرق وبقية المتآمرين أصبحت تعاني مشكلات اقتصادية ومالية وتراجع، تطلب البحث عن مصادر جديدة للتعويض. الفرق بين مخطط الزرق وأنصارهم، وبين ما ساد سابقاً لقرون وأقام إمبراطورية لا يحل الليل فيها، الفرق هو أن الإمبراطورية أقيمت بالعنف المباشر والاحتلال والمتاجرة في كل شيء بما فيه سلب وبيع القرود ذاتها. آنذاك كانت مجموعة سفن مزودة بمدافع بارود تجوب الشواطئ.. عندما تلوح بلدة أو مجموعة قرود تطلق عليهم النيران ويهبط الغازون للأرض فيحتلون وينهبون ويحكمون ويعاقبون كما يحلو لهم. عندما لم يعد هناك ما يُنهب، وأصبحت الكلفة عالية، وتراجعت قوة الإمبراطورية وأموالها، عثروا على الخطة الجديدة لتحقيق النتائج نفسها ولكن باستعمال القليل من العنف وغالباً فقط التلويح به، إلى جانب سياسة فرّق تسد والكذب والخداع والتظاهر والتحايل سعياً وراء المال.

أين المال إذاً؟ لقد تكرس لدى الجموديين الضعفاء قتالياً، ولدى قرود العالم الجديد الأقوياء، ولكنهم لا يحبون إدارة القرود الزرق الذين كانوا يحتلون العالم الجديد بالقوة وعانوا من نهجهم السابق. هكذا توجب على جد ويلي ومن سبقوه أن يبحثوا عن مصادر الثروة بمحاربة الخصوم من بعض القرود، مثل الشقر الذين انضموا إلى البنيين لاقتسام أراضيهم ومستعمراتهم، واستعرت الحرب العظمى التي كلفت الأموال واحتاجت إلى غيرها من قرود العالم الجديد، وهنا تقدم الجموديون

بعرضهم ومطالبهم لأخذ قطعة صغيرة معينة من المغانم المتوقعة تكون هي الجسم الغريب المنشود، ومقابل ذلك يشاركون في تمويل الحرب ويقنعون القرود في العالم الجديد أقله بالتأييد، وربما ببعض الدعم في الحرب. هكذا تم الاتفاق وبدأ التنفيذ.

«هنا ظهرت براعة جدي..» يظن ويلي روفلب حسب اطلاعه على المذكرات بتفاصيل تلك المرحلة. توجه العمل فوراً للإيقاع بين مركز حكم الدين الأحدث للبنيين وبين الأطراف، وبين الأطراف ذاتها. أشاعوا عن تخلف المركز وهولوا بظلم إدارته للبلاد المدارة، وقدموا الوعود بمساعدة القرود البنية الملتحية على الاستقلال إن هي ثارت على المركز وشاركت في الحرب ضده. بالإضافة إلى ذلك تم التعرف إلى القرود المؤثرين في الأطراف وتقديم الوعود لهم بحكم وإدارة خاصة لمحيطهم ومناصرتهم على جيرانهم. لم تكن هذه الخطة اعتباطية، ففي المذكرات جزء يحتوي على نتائج دراسات وآراء قدمها على مر سنوات رحالة وجواسيس كثر تجولوا في بلاد القرود الجافة الرملية، وتعرفوا على طباعهم وما يثيرهم وما يُرضيهم. كان الزرق قد نازعوا البنيين طوال عقود سبقت، ونجحوا في انتزاع مناطق منهم، وفشلوا في معظم المناطق الأخرى، ولذلك لديهم القليل من الدراية المسبقة للمناطق الحضرية البنية، لكن المناطق الرملية كانت عصية حتى على الكرت، مركز البنيين، واتضح أن قرود الصحراء هم الأنسب لمواجهة المركز.

هي مناطق متخلفة في كل شيء، وتسودها قبائل متنازعة تعيش على التعصب ضد الجيران ونهبهم.. نهب غذائهم وإناثهم (الزناءات) والتنكيل ببعضهم بعض. لذلك لم يكن أحد من مراكز القوى في كوكب القرود يهتم بهم وبأرضهم الفقيرة، ولكنهم الأنسب لمناوشة مركز القرود الكرت البنيين وأطرافه وقواه المنتشرة حول الرمال الشاسعة، وسيكون

ثمن تسخيرهم بسيط للغاية، حسب المذكرات. تجمعاتهم تُلقب باسم القرد الزعيم، والزعماء يعتمدون على أبنائهم، ولهذا فكل منهم يتزاوج مع عشرات الزناءات لزيادة الإنتاج، وبالطبع تجد أفراد كل قبيلة متشابهي الشكل والطباع نظراً لاشتراكهم في الأب. هناك من يتزوج تسعين أنثى وعدداً إضافياً من دون زواج بحيث ينكح الواحدة مرتين أو ثلاث في العام بهدف الإنجاب، والمتعة بالتأكيد. هذا طبعاً ضد تعاليم دينهم، ولكن ربهم كان يعرف وقال عنهم إنهم الأشد كفراً ونفاقاً. كُتب عنهم في المذكرات، أنهم كاذبون مخادعون، قابلون للرشوة، غير منتجين ويعشقون الراحة، يقاتلون بشجاعة وينهزمون بسرعة، وإذا انهزموا فقد ينهبون حليفهم أثناء الهروب حتى لا يأخذ المنتصر غنائم ذلك الحليف، فهم أولى بها!! مع كل ذلك فهم يعتبرون أنفسهم على خُلق، وتنتشر بينهم قصص رؤية البشر ومعرفة بصفاتهم المثالية ومعاشهم الرغيد، بل ويوهمون أنفسهم أن أرواحهم سترتقي بعد الممات إلى مصاف أولئك البشر.. إنهم من القرود الحالمة.. يقتلون وينهبون ويخونون ويكذبون، ويعتقدون أنهم يحملون بشكل ما صفات إنسانية.

حفيد المتآمرين

كان الجد يُلهم حفيده في طرق جمع المال بسرعة وغزارة: «يوم ١٦ سبتمبر ١٩٩٢ صنع أحدنا يوم أربعاء أسود للقرود الزرق الذين نعيش بينهم. لقد كسر عملتهم وخسرت خزينتهم ثلاثة وثلاثين بليون جنيه ذلك اليوم، واضطرت زعامتهم للانسحاب من اتفاق عملات مع الجيران. قبل ذلك بعام انضم الجنيه إلى سلة عملات للدول المتجاورة المتحدة كخطوة تجريبية للعمل لاحقاً بعملة موحدة لكل تلك الدول. قضى ذلك الاتفاق بحماية كل عملة مقابل العملات الأخرى ضمن حد أدنى لا تنخفض عنه وحد أعلى لا تزيد عن سعره». لم يبلغ الحفيد، المستمع للنصح، الثانية عشرة من عمره بعد، ولكنه كان مستوعباً تماماً لما يتحدث عنه جده، فالعائلة أب عن جد ومنذ قرون هي الأغنى على ظهر الكوكب. «كانت تلك أمنية للزرق للاحتماء باقتصادهم الضعيف ضمن المجموعة الاقتصادية المتحدة، لكن مثل هذا الاتحاد ليس في مصلحة المضاربين، ولا نريد نحن عموماً للقرود الزرق الانضمام للآخرين لأسباب جمة ستعرفها لوحدك عندما تكبر.» تقبل الحفيد الاستثناء بهز رأسه لتحت وفوق، ودق بيمناه على صدره. «هكذا اقتنص أحد أهم المصرفيين المضاربين يوماً هبط فيه الجنيه قرب الحد الأدنى، وباشر باقتراض ملايين الجنيهات لأجل قصير وبيعها في السوق فوراً لإغراقه. كررت مؤسسته العملية كل بضع دقائق وكثر البيع مما كان يُلزم البنك المركزي للشراء لحماية الحد الأدنى. هبط السعر وضخ البنك المركزي مليارات لتغطية

الفرق.. ورفع البنك نسبة الفائدة إلى رقم قياسي ليحسن فرص الجنيه، لكن في نهاية اليوم أقر الزعيم، رجيم، بالهزيمة وانسحب من اتفاق العملات، إذْ عوم الجنيه وتركه لتفاعل السوق، وربح مضاربنا الجمودي بليون جنيه من اقتراض على الورق لجنيهات لا يمتلكها ثم بيعها، وعندما انكسر الجنيه سدد القروض واحتفظ بالباقي».

هذه نيران صديقة وجهت ضد بلاد لم تدخر وسعاً في حماية الجمود وتسهيل خططهم ومنحهم وطناً بدون وجه حق، والتغاضي عن فظائعهم لاحقاً ضد الغير وتسليحهم، بل حمايتهم علناً أمام مجمع أمم القرود. صحيح أن الزرق قبضوا منذ البداية أثماناً لهذا التآمر، ولكنهم لا يستحقون هذا الطعن. إنه المال الذي لا يستطيع أو يجرؤ أحد على كشف دوره وسطوته، ومن يتطوع للمهمة فلن ينجح في ضبط جوانبها مهما وسع خياله.

«لكن هذا بلدنا يا جدي، ربما أنهم يظهرون الحب لنا في العلن ويكنون مشاعر معادية، لكن انخفاض الجنيه يضرّ بنا..». لم يكمل الحفيد وانتظر الجواب.

«المال هو وطننا، ومصالحنا هي الأهم، لو لم نعملها لعملها غيرنا وارتقى إلى سلم التبجيل وعدنا نحن إلى الفقر، وبالتالي إلى الاحتقار. ثروة عائلتنا وعائلات أخرى كثيرة من ملتنا، هي الضمان لبقاء جنسنا وديننا في مأمن من تكرار غوائل الزمن.. إنهم يدرسونك في المعبد تاريخنا وما فعل بنا الزرق والشقر والبيض والثلجيين، وما ينتظرنا الآن من أخطار يخطط لها البنيون؟». أومأ الحفيد بالإيجاب، وعرف الجد أن لديه شكوكاً، فأنصت لاستدراجه.

«هل جنسنا موجود بين البشر أيضاً وعانوا مثلنا وينهجون نهجنا؟».

«أنا لم أشاهد أي بشري طوال حياتي، ولذلك لست متأكداً من

وجودهم بيننا أو يهيمون فوقنا، ولو وجدوا وبصفاتهم المثالية التي تُنسب إليهم لما كان عليهم تحمل ما عانيناه ولوجب عليهم التدخل لنصرتنا..».

«لكن بعض أصدقائي في المدرسة يدعون أنهم شاهدوهم، وقالوا إن البشر لا يمكنهم مشاهدتنا».

«القرود الصغيرة من الأغيار لديهم خيالات واسعة يغذيها دينهم، أنا لم أشاهد أي إنسان، وأنت كذلك، ولهذا لا وجود لهم». خفض الحفيد رأسه وحك صدره. «دعني أقص عليك كيف جنى جدي ثروة طائلة في يوم واحد». عادت ملامح الصغير للانشراح وتحفز لاستيعاب درس جديد.

«أنت تعرف من كتب التاريخ المدرسية القائد الشهير لجيراننا قرود الغال، نويلبان، الذي وصل إلى درجة إمبراطور واحتل معظم بلاد الجيران ووصل إلى بلاد الصحارى حتى انهزم في عام ١٨١٥». أومأ الحفيد بمعرفته وأكد ذلك بأن جند القرود الزرق هم الذين هزموه.. تبسم الجد وأكمل: «هم الذين قاتلوا وماتوا في المعركة وتركنا نحن لهم وهم الانتصار، لكن بالفعل نحن الذين قضينا عليه لأنه فشل في احتلال بلدنا الديني وإعادته إلينا، ثم خاننا بعد عودته من حملاته ونقض عهوده وانقلب علينا في عاصمة بلاده». ارتفعت حواجب القرد الصغير واقترب من جده الذي توقف عن الحديث ليرد على مكالمة هاتفية.

«فرع عائلتنا في بلاد الغال تبنى هذا الإمبراطور عندما كان جندياً صغيراً، وساعدناه حتى تمكن من الحكم». عاد الجد يعلم حفيده بعد الانتهاء من الهاتف. «آنذاك وعدنا بالضغط على قيادات بلاده الدينية وأعلن في صحف بلاده أن بلادنا المقدسة لنا وعلينا العودة وتعهد بالمساعدة، لكن حملته الحربية إلى هناك فشلت ولم تعط الأموال التي دعمناه بها أي مردود.. صحيح أننا لم نخسر الكثير لأننا كنا نبيعه الأسلحة والمؤن لجنوده، لكننا خسرنا. انقلب علينا وأعاد لرموز ديانته اعتبارهم في مؤتمر

علني وهاجمنا وطالب قرود بلاده أن تعتبرنا غرباء». أصبح الجد يتحدث بيديه متجنباً إصابة حفيده الذي فغر فاه. «حرضنا الدول المحيطة ضده وفي النهاية اعتقلوه ولكنه هرب من المنفى وانضمت إليه بعض فرق الجيش. في هذه الأثناء كان جد فرعنا هناك، ناثان، يرسل المعدات ويمول الدوق قائد القرود الزرق الذي أبحر إلى الغال.. انتبه الآن لما هو أهم من الانتصار العسكري..». بلغ التشوق مداه فاتكأ الصغير بيديه على الكرسي وجلس القرفصاء. «.. كان جدنا هنا يعرف النتيجة الحتمية للمعركة وأرسل من يوافيه بالتطورات تباعاً، ولكنه أشاع في السوق رويداً رويداً أن المعركة أقرب إلى الخساره، فهبطت أسعار الأسهم قليلاً حتى اقترب الحسم وانتشر خبر زائف بهزيمة الزرق وانتصار الإمبراطور السابق. باع جدي الكثير من سندات الحكومة فتبعه السوق حتى انهارت الأسعار، وهنا اشترى جدي كل ما باع وأكثر منه بأسعار زهيدة لأنه كان متأكداً من انتصار الزرق حسب ما وصله من معلومات خاصة.. منذ ذلك اليوم امتلكنا اقتصاد هذه البلاد».

«لم أكن أعرف أن الإمبراطور وعدنا بوطن خاص وشجع على ذلك في العلن.. ظننت أن الزرق فقط هم من وعدوا ونفذوا».

«لم يكن الإمبراطور هو الأول أو الوحيد، الكثير وعدنا ولم ينفذ، لكننا تعلمنا من كل التجارب، ونقحنا مخططنا حتى نجح بعد قرن آخر، بوعد من الزرق دفعنا ثمنه المال، ونشطنا رغبة العالم الجديد الناشئ بالانضمام إلى الحرب الكوكبية الأولى إلى جانب الزرق والحلفاء ضد الشقر والبنيين. انتصر الحلفاء وبدء تنفيذ المخطط حتى أخذنا دولتنا، وما زلنا نناضل بكل الطرق المبتكرة من أجل حمايتها وأمنها وتفوقها».

«لكن لم تعد هناك صفقات أسطورية مثلما فعل جدك في حرب الإمبراطور والدوق!».

«الصفقات لا تتوقف أبداً، بعضها يومية وتحدث بهدوء وروتينية، وأخرى صاخبة نبدو بعيدين عنها لكنها مهما لفت ودارت تمطر في خزائننا». قال الجد وقد عاد يخفض رأسه وكتفيه لفترات أطول أثناء الحديث، وشعر الحفيد بتعب القرد العجوز ولكنه واصل الاستماع ولم يرغب في إنهاء هذا اللقاء الممتع. «كلما شرب قرد في الكوكب من قارورة ماء، أو تناول علاجاً، أو خسر نقوداً في كازينو، أو تناول ماك، أو شرب كوكا، أو حجز في فندق، أو أو أو، فلنا في ذلك نصيب لا يقل عن الثلث، كما في حالة مياه الشرب، أو النصف، أو حتى ملكية تامة. إذا لم تكن الملكية لعائلتنا، فإنها لإخوتنا الجمود الآخرين، أو تعود علينا جميعاً بالنفع المستقبلي». رفع الجد رأسه ونظر إلى حفيده مظهراً ابتسامة سخرية وأكمل: «تريد صفقات أسطورية؟ ماذا تظن ما يفعله القرد الأحمر في البيت الرمادي؟ إنه يتوجه ويُدار من زوج ابنته، ابننا، ويتحكم في العالم ويقبض المليارات من القرود الصحراوية، يحرضهم بعضهم ضد بعض، ويمنحهم الحماية مقابل دفع الكاش وشراء الأسلحة وخفض سعر نفطهم، والاستثمار بنقودهم.. كل ذلك يعود بنفع مباشر لمصانعنا وبنوكنا وشركاتنا التي تُشغل القرود الناخبة للأحمر مقابل أجرة بسيطة ونجني الربح الصافي.. أليس هذا أسطورياً؟ أريدك أن تفكر دوماً أبعد مما ترى.. أنا تعبت الآن اتركني لأرتاح قليلاً على الأريكة».

«جدي لدي سؤال أتردد في طرحه أمامك.». قال الحفيد وهو يساعد جده على الانتقال من الكنبة إلى أريكة الشازلون. ضغط الجد على كتف حفيده ففهم موافقة العجوز على الاستماع للسؤال. «.. سألني أصدقاء في المدرسة إذا كان والدك قد مات فعلاً في غرفة الخزنة.. قالوا إنه ذهب يتفقد النقود فانغلق الباب مصادفة ولم يتمكن من فتحه من الداخل ولم يسمع أحد في الخارج صراخه..».

«هذه أسطورة شعبية يواسي بها الفقراء الأغبياء أنفسهم، تماماً كما يعتقدون أنهم سينضمون إلى عالم الإنسان بعد موتهم.». قال الجد بعد أن أوقف استرسال حفيده بإشارة من يده. «إذا رأيت أن في هذه الأسطورة أي منطق فيمكن أن تسأل عن حقيقتها، لكن الخرافات والخزعبلات يجب أن لا تشغل ذهنك وتضيع وقتك أبداً. منذ متى نخبئ نقودنا في غرف خاصة حتى تأكلها الفئران؟ هذه تخيلات الجهلة». ثم أشار بيده إلى القرد الصغير ليخرج وأغمض عينيه وتحركت تحت الجفون. قبل أن يصل الصغير إلى باب الغرفة سمع جده يطلب منه: «استمع اليوم إلى أخبار الكوكب السياسية، وابحث عن دور طائفتنا وأموالنا فيما يحدث، وعندما تكتشف شيئاً فلا تنسه، حتى تخبرني به لاحقاً».

«تريد اختباري يا جدي.. سأكون عند حسن ظنك». قال وهو يغلق الباب خلفه وعزم على إثبات قدراته. قفز إلى ذهنه أن الجد طلب تتبع السياسة وليس الاقتصاد، وأنه عمم البحث في الكوكب وليس منطقة محددة. فتح هاتفه الجوال وبحث في مواقع الأخبار، ثم جلب كوباً من العصير وجلس يراجع ويدون ملاحظات على الهاتف:

الزعيم الأحمر يريد مقابلة زعيم إيروكا ويأمل نزع سلاحه النووي مقابل فك الحصار عن بلاده. هذا يعني إزالة خطر سلاح نووي قد يتسرب إلى أعداء الجمود، فهذا الزعيم صديق للكثير من قرود البرعل. الإيجابية الثانية المحتملة هي فتح تلك البلاد أمام الشركات الكبرى التي تملك طائفتنا معظمها أو أقله أغلبية أسهمها. إذاً، هذه خطوة لمصلحتنا لو نجح القرد الأحمر في المهمة.

انتهت التظاهرات التي استمرت أسبوعاً في ندرالا بعد مطالبة صندوق النقد الكوكبي بدعم تلك البلاد. هذا خبر يحتاج إلى التفكير، اقتنع القرد الصغير، فزعيم تلك البلاد ينازعنا السيطرة على عاصمة

وطننا، والصندوق الكوكبي تحت قيادة جماعتنا. إذاً، إنقاذ ذلك النظام فيه فائدة لنا، ربما حسب نظرية (القرد الذي تعرفه خير من الذي تجهله)، وما نعرفه متصالح معنا ويهمه حماية حدوده وحدودنا هناك ومنع الفوضى في مصلحة الجميع.. إذاً، الإنقاذ تم بدعمنا، أو أقله لمصلحتنا في هذه المرحلة. تذكر ما سمعه من جده أن التخطيط والتنفيذ يتمان بنفس طويل جداً، ولكن بتقدم ثابت.

«عليّ التدقيق في كل نواحي الخبرين لأفلح في الاختبار.. لن أتوسع في البحث أكثر من ذلك الآن».

الجد اللص

لم تظهر عليه علامات السعادة وهو يحتفل بعيد ميلاد حفيدته الأولى، وباكورة جيل جديد للعائلة، من ابنه الثاني. الابن الأول، الذي أنفق عليه ١٢ مليوناً في حفل زواجه، لم يفلح حتى الآن في الإنجاب. لم تحمل الحفيدة ظاهرياً في عامها الأول أي ملامح من جدها. هي جميلة مثل كل صغار القرود الزرق، لكن وجه جدها يعكس كل سمعته السيئة وجشعه ودناءته وكذب مشاعره وزيف قسماته، وربما لهذا السبب تصعب رؤية ملامح مشتركة مع الحفيدة. هو من القرود التي بقيت صغيرة الحجم قصيرة القامة مقارنة بالأخريات، أنف مدبب وممتد إلى الأمام، وأذنان أكبر من التقليدي، وأسنان صفراء متباعدة، ومقدمة رأس صلعاء يعقبها شعر خفيف أصفر وأبيض.

لقد ارتقى إلى سلم الأغنياء، وأصبح من أغنى ألف قرد في كل الجزيرة التي تضم أكثر من ستين مليوناً من القرود الزرق. حدث هذا التطور خلال عقد واحد من الزمن بعد أن أُبعد هذا الجد عن قيادة الحزب الذي يفترض أنه يمثل القرود العاملة الفقيرة، وفقد بالتالي منصب الزعامة الذي امتد لدورتين ونصف. تجميعه لهذه الثروة وإنفاقه الباذخ هو خير دليل عما أشيع حول أخلاقه. إنه قرد أزرق غير أصيل وتتركز في صفاته خباثة قومه ودجلهم وأنانيتهم، فظهر أحياناً كشيء مغاير لهم، ولكنه لا يختلف عنهم إلا نسبياً.

جد ريلب هذا كان يعاشر جدته، دون زواج، وهما يعيشان ويعملان

مهرجين في الشوارع يكسبان القروش من المارة. حين أنجبا قشتهما (قرد صغير) لم يتمكنا من تسجيله أو إعاشته فمنحاه لعائلة أعطته اسمها: ريلب. تلك القشة أصبحت لاحقاً والد الزعيم المطرود الذي أصبح الآن جداً مليونيراً. عاش ذلك الوالد في كنف متبنيه وتعلم وأصبح يُدرس القرود في الجامعة، ثم سعى إلى الحياة السياسية ومات دونها. هكذا انتهج ابنه، ريلب الجد الحالي، خطه في التعلم وخوض الحياة السياسية بكل الحيل حتى أصبح زعيماً منتخباً، وانتهى مطروداً والأكثر كراهية من بين كل الذين سبقوه في هذا المنصب.. ولكنه الوحيد من بينهم الذي توصل إلى المال. لقد عزز فرص نجاحه في الانتخابات ثلاث مرات عبر إنفاق أموال جمعها من متبرعين تم ترشيحهم بالمقابل لينالوا صفات ومناصب شرفية تهتم بها القرود الزرقاء الغنية، خصوصاً حديثة الثروة.

كرهته القرود الزرقاء لأنه كذب عليهم في مجلسهم المنتخب، وثبت كذبه الذي قادهم إلى الحرب واحتلال بلاد للقرود البنية النفطية، كان هدفه الخفي أن يخدم سياسة قرود الجمود لينال رضاهم وصداقتهم وأموالهم حين تنتهي زعامته.. ولسخرية القدر تنصب بعد طرده من زعامته حكماً ومصلحاً بين الجمود وقرود البرعل، وفتح شركة استشارات عقارية باشرت بقبض الملايين من كل الأطراف.. طبعاً هو لم يقبض راتباً عن عمله كمُصلح!! وبالطبع لم يصلح أي شيء، ولذلك مُنح شهادتي دكتوراه من جامعتين للجمود... «بغِشيش» أكاديمي فوق «البغِشيش» المالي.

تنظر دول القرود الغنية بالمال والعلم إلى سياستها مع دول القرود البنية والصحروايّة فتشعر أنها فقدت السيطرة، أو أن النتائج تخطت كل توقعات المؤامرات القديمة المتجددة: فساد، تقسيم، تحكم. يقول ريلب مبرراً جر بلاده وغيرها إلى احتلال وتدمير بلاد عدة: «حاولنا التدخل عبر نشر القوات والاحتلال في البلد الأول، وحاولنا التدخل بدون

قوات في بلد ثانٍ، وحاولنا عدم التدخل في البلد الثالث، لكن كل هذه السياسات لم تمنع الدمار». هكذا يريد التنصل والادعاء أن تلك القرود لا تريد ديمقراطية وهي تدمر ذاتها في كل الأحوال. في الواقع لم يطلب أحد أصلاً من المتدخلين أن يفرضوا الديمقراطية أو يغيروا أي وضع. لكن التدخل العسكري الذي تسبب به كان أصل الفساد، وخلق الفوضى والجماعات الإرهابية. والتدخل الثاني بدون قوات كان تدخلاً أوقع بين الناس وغرر بهم وحرض العالم على قادتهم حتى أنتجت تلك السياسة الدمار والانقسامات فوق المتوقعة. أما الكف عن التدخل في الحالة الثالثة فقد صاحبه تشجيع المتطرفين ليتدخلوا، وسهلوا مهمة سفر أي إرهابي يذهب هناك وإعاشته، ما تسبب في فواجع إنسانية، وأدى إلى هجرة ملايين القردة من هناك إلى بلدان أغنى ومتسببة في تلك المأساة. ريلب طبعاً لا يرى الأمور بهذا المنظار ورفض الاعتذار، وأكثر ما تمكن من الإقرار به هو: أن الوضع قبل الغزو كان أفضل مما هو الآن.. هذا التصريح المبطن يراد منه تذكير القرود الجمود أن عليها أن تتذكر وتدفع. لقد طلب منهم أن يعينوه مستشاراً لدى صديقهم ومطيتهم القرد الأحمر، لو نجح في ذلك لتحولت ثروته من ملايين إلى مليارات نتيجة لما سيقبضه بدل إ مرار مصالح وسياسات. لكن الجمود اكتفوا بتعريفه إلى زوجة القرد الأحمر وابنته عبر زوجة واحد من أهم وأغنى قرودهم، سلطان الإعلام.

ورث عن جده التهريج، ونجح في جمع الملايين وليس القروش في الشوارع، وأضحك الجمهور وضحك على الناخبين، أو عرف أنهم مؤهلون للضحك عليهم. في عام ٢٠٠٣ أكمل تحوله من قرد إلى كلب مدلل مطيع للقرد السكير الذي كان يدير البيت الرمادي آنذاك. شاركه في التهريج والكذب المنظم المتعمد خدمة للجمود، وقرعت طبول الحرب.. تحرك الشارع في بلاده وخرج مليونان من لطفاء القرود النشطة ليعارضوا

الحرب، ولكن تسعة ملايين أعادوا انتخابه للمرة الثالثة بعد الحرب التي تسببت في مقتل مئات من القرود الزرق وآلاف من قرود السكير الغازي ونصف مليون من القرود المغزوة، معظمها غير مجندة. وخلفت ثلاثة ملايين يتيم وهربت ملايين أخرى من الخوف والفوضى والحرب الأهلية وتم تدمير جيلين من الآمنين الذين عاشوا بدون اختلافات طائفية.. كل ذلك عُرف بالتفصيل ولكنهم أعادوا انتخابه!! انتخبه القرود الزرق ربما لأنه يشعرهم بماضي الإمبراطورية التي لم يكن الليل يحل عليها ثم أفقرت وانطفأت كل أضوائها، فأعاد بغزواته تنشيط خيالاتهم وأحلامهم بنهب الثروة من الآخرين، كما في الماضي، وتوزيعها عليهم عبر خدمات وتسهيلات ومخصصات تقاعد ورعاية صحية.. أي النهب والاتكالية والغرور الأجوف.. الذي تقبله الكسالى والقرود المسنة والأخرى المتعصبة إلى جانب اللامبالية إلا بيومها، وتلك الأخرى سهلة الانقياد والتي أرادت تصديق أكاذيب ريلب والسكير بأنهما سيغزوان لإزالة الخطر عن الكوكب ولمصلحة قرود المنطقة الذين سيتمتعون فوراً بالديمقراطية وبالرفاه عندما يتم التخلص من قادتهم.

الآن، وقد أصبح ريلب جداً ويحتفل بجيل جديد من عائلته تغير مزاج الكثيرين. أصبح الزرق يقرون أن الوضع قبل الغزو كان أفضل، ومثلهم فعل القرد الأحمر الذي تسلم القيادة في البيت الرمادي، ولم يتأخر زعيم القرود الجليدية عن الانضمام إلى زعماء الكوكب في مثل هذه الاعترافات. كيف لا وقد وصلت ملايين القرود المهاجرة هرباً من نتائج ذلك الغزو إلى شواطئ الذين غزوا أو أيدوا أو سكتوا عما جرى.. كذلك أصبحت أعمال العنف والقتل والتفجيرات والدهس متكررة كقدر لا رادع له في شوارع هذه الدول التي كانت آمنة.. من المستفيد إذاً؟ إنهم قرود الجمود المُحتلون لأراضي الغير في تلك النواحي ويطمعون

بالمزيد، والمنتشرون عبر الكوكب، والذين تمكن رؤيتهم في كل موقع تأثير وخلف كل قرار يؤدي إلى الكوارث. قرود الكوكب نائمة أو واهمة أو متضررة وهم المستفيدون الوحيدون، إنه العصر الذهبي لقرود الجمود التي عانت لقرون اضطهاد الأغيار لهم، والآن عرفت كيف تقلب الطاولة وتتحكم في زعماء الكوكب الأقوى.

قرود البرعل، أو بالأحرى معظم زعمائهم والبعض من الطوائف، تقبلت الغزو في حينه، والكثيرون صدقوا، أو تمنوا صحة ما سمعوه عن الديمقراطية، والغالبية بالطبع كانت قد انسلخت روحياً وفكرياً عن زعاماتها. ابتلعوا إطاحة الزعيم، ثم تشربوا بقية السم وتحركوا ضد الزعماء في مناطق أخرى.. مرت الايام والسنوات وعمت الفوضى والخراب والقتل والانقسامات.. بعد كل ذلك تغير المزاج وعادوا يتمنون أيام زمان، زمن القرد الدكتاتور، والقرد المزركش، والقرد الطماع، والقرد الشبيح، والقرد المغرور. المتمنون هم معظم قرود البرعل، وبعض من زعماء القرود الزرق والبيض والشقر والثلجيين، غالبية قرود الكوكب تغير مزاجها وأصبحت تفضل عودة الدكتاتور إياه، إلّا الجمود، فهم يحثون مطيتهم، القرد الأحمر، على المزيد من الخراب، ويمهدون له الطريق، تماماً كما أحاطوا من قبل بالزعيم السكير التائب، وأقنعوه أن رب القرود اختاره لهذه المهمة المقدسة التي قد تقربه من صفات الإنسان السامي، وبالتالي واجبه أطاعة الكتاب كما يفسرونه، واكتشف أن كل مستشاريه من الجمود، أو لديهم مصالح مادية معهم، وهم الذين كانوا أسقطوا والده إذ عطلوا انتخابه لدورة ثانية كونه تصدى لبعض سياساتهم في المنطقة ومنع عنهم بعض الدعم في عهده لإحلال توازن في سياسة بلاده.

كان المزاج ضد الدكتاتور، وعلى هذا المزاج رتب ريلب وحليفه السكير أمور الغزو والتدمير لخدمة الطرف الثالث.. لكن النتيجة حتى

الآن أسوأ مما كان. القرد المغرور كان يسجن المعارضين بدون سين وجيم، وأحياناً كان يغسل المعارضين في أحواض الأسيد حتى يذوبوا ولا يوجد من يتهمه بسجنهم وتعذيبهم ويثبت الجريمة عليه.. أما القرد الشبيح فقد اعتمد مثل من سبقه من قبيلته أسلوب تغيير أسماء المساجين فور تشريفهم السجن. هكذا يغيب الأصل من الوجود وتثبت كشوفات أسماء الأسرى أن من يبحث عنه أهله أو منظمة حقوقية، هو غير موجود أصلاً.. ربما هرب من البلاد واختفى ليسبب الإحراج للدكتاتور. أما سياسة الغازي المُحرر الديمقراطي فقد دمرت الأخضر واليابس، ومُورس في معتقلاته كل أنواع التعذيب المحرمة في ربوعهم، واستحدثوا أسلوب الترفيه للمجندين والمجندات بتعرية الأسرى وتكويمهم بعضهم فوق بعض بينما يلتقط المُحررون الديمقراطيون الصور للذكرى أمام هؤلاء المحطمين نفسياً.. هكذا أصبحت المعادلة بين ديكتاتور يضمن الأمن والمعيشة، وديمقراطي يُخرب الأمن ويُجوع ويُشرد ويُعذب بنسب عالية.

كان مخطط الزرق الرسمي وجيرانهم منذ ١٩٠٧ يعتمد على استيلاء ونهب وتقسيم إرث بلاد الديانة الحديثة والتخلص من سلاطينها. والنتيجة بعد عقد من الزمن على طرد ريلب من الزعامة، أُنجز بالفعل ذلك المخطط وخدموا الجمود، ولكنهم دمروا جزيرتهم التي يتراجع تأثيرها ومالها وصحتها عاماً بعد الآخر. في كل استفتاء أو انتخاب يصوت الزرق ضد مصلحتهم الذاتية ويأملون في استمرار توافر الخبز والمربى كل صباح. كل القرود السياح من بلاد تعتبر أفقر من سكان الجزيرة يستغربون ما يرون من أكوام القمامة، وانتشار الجريمة بأنواعها وفنونها المتجددة، وسكان مشردين ينامون تحت الكباري، والتخلف في البنى التحتية في هذه البقية من الإمبراطورية. القرد الأزرق ابن الإمبراطورية العظمى سابقاً، يحتاج للانتظار أسبوعين ليرى طبيبه، وساعات من الجلوس لتحضر إليه

الممرضة، ومع ذلك يدفع الأزرق ضعف معدل ضرائب ذلك السائح في بلاده. البيوت الجديدة التي يراها الزوار في العاصمة لا يستطيع الزرق شراءها، ولكنها من نصيب قرود أغنياء البلدان الأخرى بما فيها الدكتاتورية.

ربما الزرق الذين يشنون الحروب تحت شعار تعميم الديمقراطية، فخورون بما لديهم منها! الزعيم الأعلى غير منتخب، ومجلس تصديق القرارات غير منتخب ولدى أعضائه مزايا فوق الخيال لا يحلم بها القرد الأزرق العادي. لكن هذا القرد بوسعه الانبساط لدى مشاهدة الزيجات الذهبية والمناسبات البلاتينية أو التيتانيومية والمشاركة فيها.. أما المجلس المُنتخب فيتمتع أعضاؤه بأفلام الجنس، وقفش مؤخرات الزناءات السكرتيرات، وقد تحولوا إلى محترفي كذب ويقودهم كل مرة الأقل كفاءة من بينهم على الإطلاق. أما السياسة الخارجية فهي منذ ما قبل ريلب مُسيرة من البيت الرمادي وتخدم لشن الحروب ضد من هب ودب.. الحجج يمكن اختلاقها دوماً، وهناك بالطبع حجة الدفاع عن «حقوق القرود» بينما لم يتوقف الزرق عن مسح مؤخرة زعامات لم تتوقف منذ إنشائها عن تعذيب قرودها واضطهادهم، زعامات لا يمكن أن توصف بأنها قردة.

حفيد الزعيم

لدي أسباب لانتقاد جدي ولومه، ولكن وجب عليّ القول إن معظم الذين انتقدوه لم ينصفوه، وها هم يتمنون عودة أيامه بعد الويل الذي ذاقوه، واكتشافهم للخداع، وإقرارهم بالتقصير الذي يغرقون فيه.. الآن أتُيحت لهم فرصة انتخابات، فماذا فعلوا، ومن انتخبوا، وماذا فعلوا بالصناديق، وأين أوصلوا البلد؟ أما منتقدوه من الخارج فهم ليسوا أفضل منه سياسةً أو تطبيقاً أو نزاهة، سابقاً أو الآن، ولن أتجاهل الحديث عنهم. هكذا كتب أحد الأحفاد الأحد عشر للديكتاتور الزعيم المغرور الذي سقط بعد عقدين ونصف من بناء وتزعم بلاد قارع النهرين. القرد الفتي، نيسح، ليس أكبر الأحفاد وكلهم من بنات الزعيم الذي فقد ولديه، أخوال الأحفاد، في معركة التصدي للغزو، بينما حاول الأب الجد الزعيم التخفي لمواصلة المقاومة، لكن الخونة باعوه وحوكم وضُحي به يوم العيد برضا زعماء قرود البرعل الذين لا يستطيعون الآن حماية مؤخراتهم.

نيسح وأبناء خالاته وأعمامه لا ينسون أن جدهم قتل أبويهم، الأخوين وزوجي ابنتيه، ولديهم شعور مختلط، فهم يحبون جدهم القاتل ولكنهم لا ينسون آباءهم. كان ذلك عام ١٩٩٥ حين عزل الجد أحد الأخوين من عمله، فخاف، وهرب مع أخيه وزوجتيهما والأحفاد، هربوا والتجأوا إلى العاصمة الجارة، نامع. مكروا ومكر الزعيم لهم، طمأنهم بمراسيل وتأكيدات عائلية فعادوا إليه.. بضعة أيام ويتمّ الجد أحفاده ورمل ابنتيه، وزعزع ثقة العائلة التي كان يحرص على الاهتمام بها.

«تزوج جدي ثلاثاً أخريات بشكل شبه سري، ولكنه لم يطلق جدتي، فهي أم بناته الثلاث وولديه اللذين عول عليهما. واحدة من الزوجات الأخريات أحبها جدي وطلقها من زوجها وتزوجها، فأنجبت ولداً ولكن كان من الممنوع الحديث عنه، ولا يحمل اسم جدي الذي لا ينكر فضل جدتي، ابنة خاله، الذي تبناه مع والدته بعد وفاة والده.. رباه وزوجه ابنته». قبل الغزو بعامين تزوج الزعيم الرابعة واتضح له بسرعة أن الغزو آت لا محالة فأمر أفراد عائلته بالخروج وزودهم حاجتهم وبقي مع ولديه.

«ما زلت أتذكر آخر لقاء جمعني بخاليّ الإثنين قبل أسبوع من الحرب، فهما كانا على يقين أن الأسوأ آتٍ، وأن نهايتهما اقتربت، وبعد مقتلهما فإن الشيء الوحيد الذى أتذكره فى تلك الفترة أن خالي اللطيف، كان مكلفاً حينذاك بقيادة الحرس الخاص بوالده، كان يتفقد أحوالنا باستمرار ليطمئن على سلامتنا، وعلى ما أعتقد كان ذلك اللقاء الأخير الذي دار بيننا قبل مقتله». كان عمر نيسح آنذاك تسع سنوات. «خالي الثاني كان معروفاً بشخصيته العنيفة وغريبة الأطوار، وارتكب جريمة قتل بحق طباخ والده ومرافقه أثناء عشاء على شرف تكريم زوجة زعيم زاره».

«كنت لا أعلم ولا أدرك ما يحدث، ولجأنا إلى مخبأ فى يوم الغزو المشؤوم بنية الهروب، وتوجهنا إلى قرية قرب الحدود، وغادرت البلاد مع أمي وأخوتي، وعمتي وأولاد عمي، وذلك عبر سيارات خاصة بعائلتنا، وتم استقبالنا وتكريمنا في نامع العاصمة، فقد كان جدي يهتم بشؤون هذا البلد الذي وقف معنا بقدر المستطاع بينما تآمر بقية الجيران والأخوة وشاركوا رمزياً في الغزو.. يا لهم من قرود».. ابتعد عن الأفكار السيئة وتذكر: «كنا فى مرحلة الطفولة نلعب فى الحدائق أمام جدي، وكنا نتسلق شجرة النخيل، ونشارك الاحتفالات ومآدب الطعام، وكان جدي دائماً يقول لنا عبارات طيبة ومواعظ فى لم شمل العائلة، ويحدثنا عن

حياة الإنسان في عالمه الخيالي فنتمنى أن نصبح بشراً أو نرى أي إنسان لنتلمس الفروق بين القرود والبشر. لم نكن آنذاك نعرف المصير الذى ينتظرنا، والذي قضى على كل هذه الأشياء الحسية والخيالية». تأثر من الذكريات وأضاف: «جدي دائماً كان يشدد على الالتزام بمكارم الأخلاق، ويحث على الفكر القومي، وذلك أكثر من تركيزه معنا على الدراسة.. اعُتقل جدي وقطع اتصالنا المباشر معه، لكنه لم يتوقف عن توجيه النصح والإرشاد لنا عبر المحامين، وكان يرسل لنا تمنيات عيد ميلادنا عبر الصليب الأحمر». العم الثالث، الذي نجا من غضب الجد، ساعد زوجتي أخويه وأحفاد الزعيم في فترة بداية اللجوء. أما البنات الثلاث فلم ينتقدن والدهن في أي مرحلة بل وقفن معه في المحنة ونظمن الدفاع القانوني في محاكمته.

«لا يمكن الادعاء اليوم أن وضع بلادي أفضل مما كان في عهد جدي، لا الآن ولا بعد نصف قرن سيعود الوضع الاقتصادي والأمني والتعليمي والسيادي، كما كان. ثروات بلدنا تثير شهوة الضواري الغرباء من الخارج، والعملاء الفاسدين في الداخل. ها قد عايشنا أكثر من انتخاب لكن سوء الإدارة والتنافس على السلطة والفساد والحروب والقتل ورائحة الدماء وتقسيم البلاد قائم على قدم وساق. الدول الجارة التي تآمرت علينا خوفاً من هيمنة جدي ترتع في التخلف رغم أموالها، وفي كل يوم تثبت ولاءها للجمود وتخليها عن دينها ومصالح بلادها والقرود من الجنس والدين واللون نفسه.. همّهم البقاء في الكرسي حتى لو ساعدهم الشيطان الأكبر للقرود».

«الدولة التي قادت الغزو واتهمت جدي أنه يؤسس لحكم عائلي.. هذه الدولة شهدت محاولات متكررة لإقامة حكم عائلي. المرة الأولى بين أخ وأخيه، والثانية بين أب وابنه، والثالثة بين زوج وزوجته، وكأنه

لا يوجد في هذه الدولة بطولها وعرضها سوى بضعة قرود تتناوب الزعامة في العائلة الواحدة.. اتُهمنا بقلة النزاهة السياسية، بينما الانتخابات هناك يربحها من يملك المال، فأي نزاهة هذه؟.. الأخلاق العائلية التي كان يتمتع بها جدي لم تتوافر عند أي من زعمائهم، صحيح أنه لم يتسامَ ويقترب مما كان يحدثنا عن أخلاق الإنسان، لكنهم نزلوا بأخلاقهم عن مستوى القرود. نعم السلطة تثير شهوة الجنس، وجدي حل مشكلاته هذه بالحلال، بينما هم يمارسون الرذيلة من قفش مؤخرات العاملات إلى الاغتصابات مروراً بالكلام البذيء والزنا. لقد وقع جدي بسبب صراحته وصدقه في الكثير من المشكلات، لكنهم بالمقابل كاذبون محترفون. ضمن كل المقاييس، وحسب دينهم، فمصيرهم جهنم، بينما سيكون جدي في النعيم».. «اتهموا جدي باضطهاد حقوق القرود وبارتكاب جرائم حرب، لكن مراجعة التاريخ في كوكب القرود تثبت أن أفظع أنواع المجازر الجماعية كانت دائماً من صنع أولئك الذين كانوا يدعون أنهم أكثر تحضراً، أو أن ربهم معهم».

«برعل العباءات الذين حركوا الغزو ضدنا وشاركوا فيه وتسببوا بالنتائج، هم ذاتهم الذين أوقعوا بجدي ليتصدى للفنش في بلاد ناريا إثر ثورة دينية نجحت هناك. خافوا من النتائج فحرضوا جدي ومولوا الحرب وأظهروا له الخنوع واستعدوا للانقياد إذا هو نجح في حمايتهم. نصف مليون شهيد سقط في بلدنا ومليون ضحية من الفنش، ولم يخسر البرعل سوى المال، ولكنهم جمعوا أضعافه لتسبب الحرب في ارتفاع سعر زفتهم. عندما انتصر جدي دبروا له فخاً وحرضوا على غزوه، فكان ما نعرفه.. لكنّ لابسي العباءات لم يستفيدوا ولم تتحقق لهم قيادة دينية أو سياسية أو نفسية على البرعل ولا على الفنش، بل انقلب السحر عليهم كما سابقاً ولاحقاً. في عام ١٩٦٧ حرضوا قرد البيت الرمادي ليطلب من

الجمود مهاجمة زعيم البرعل الصاعد فكانت الهزيمة مزيداً من احتلال أراضي البرعل. إثر تدمير البرجين انتشر أن المنفذين من بلاد التحريض المقدس، لكن الانتقام ذهب إلى بلاد فقيرة ثم تحول بفعلهم إلى بلادنا البريئة تماماً من تلك الفعلة، فغزوها.. هذا أعطى متنفساً للفنش فتمددوا وصنعوا الصواريخ وأصبحوا على أبواب القنبلة النووية فارتعب أصحاب العباءات وعادوا لاستئجار دول أخرى والتقرب الرسمي والعلني هذه المرة من دولة الجمود المحتلة حتى تؤمن لهم الحماية. كانوا قبل ذلك قد ساهموا في تحويل خط سير ربيع البرعل وحركوا الإرهابيين ودفعوا الملايين وشوشوا بكلابهم النابحة، فدمروا عدة دول ولكنهم فشلوا مع كل أصدقائهم في هزيمة البرعل الشوريين حلفاء الفنش.. هكذا عادت الأحوال تنقلب عليهم.. وها هي بلادنا، جارتهم وجارة الفنش، تقع تحت تأثير خصومهم الذين يتمددون في المنطقة، والنتيجة بعيدة عن رؤية الحسم».

لقد ضاعت هيبة البلاد بعد الزعيم المغرور، وتكالبت عليها دول الجوار إلى درجة أن إحداها أقامت السدود وحجبت ماء النهر، بينما الجار الثاني حول مجاري الأنهار الصغيرة التي كانت تغذي النهر الآخر. ٢٠١٨ انخفضت كمية المياه إلى النصف واضمحلت الأنهار وبدأت المدن الرئيسة تعاني نقص ماء الشرب، ناهيك عن الزراعة.

«لنتذكر أن المستفيد هم الجمود، وأن جزءاً من مخططهم الذي وضعوه مع القرود الزرق، قبل أحد عشر عقداً، ودفعوا ثمنه مالاً كثيراً، يسير حسب المطلوب.. ولكن لا بد من تسجيل أن بعض الجمود قرود محترمة وصادقة بل دفعت حياتها ثمناً لمواقفها، ومنهم صانع الأفلام وسور. اشتهر ورشح ذاته لانتخابات محلية فانتبه إليه قرد جمودي من

سلالة الأغنياء الاثني عشر، نيك رلفكور. هنا أوجز لكم بعض ما قيل، ثم ما قاله وسور علنا وتمت التغطية عليه حتى قتلوه».

لاحظ نيك شعبيته وذكاءه فسعى إلى تجنيده وضمه عبر التعرف إلى محاميه. أصبحا صديقين يلتقيان بشكل دوري. قال وسور إنه أحب نيك رلفكور لذكائه الذي لاحظه عبر الأحاديث العامة. بعد أن تعمق الحديث بينهما وقبل أحد عشر شهراً بالضبط على تفجير البرجين قال نيك لصديقه وسور وهو يضحك: «سيكون هناك حدث هائل في بلادنا، وهذا الحدث سيكون هو السبب الرئيس لدخولنا إلى بلاد المتطرفين حيث الجبال والكهوف. سنحتل بعد ذلك بلاد قارع النهرين لنسيطر على كل آبار النفط هناك ونبني قاعدة عسكرية لنا في المنطقة». أكمل المخرج السينمائي: «قال لي نيك بعد أن نجعل تلك المنطقة جزءاً من النظام العالمي الجديد، سنقتل أيضاً الديكتاتور، جارنا يفاشت، وسنسيطر على بلاده الجارة اليوزنف». كان نيك يضحك وهو يدلي بهذه المعلومات، تمهيداً لكسب وسور. وبعد أن وقع ما قاله نيك بالفعل أخبرني وهو يتابع التبعات لمرحلة ما بعد التفجير: «إن الجنود الغازين وبكل سذاجة يبحثون داخل الكهوف عن قاعدة المتطرفين والإرهابيين وهم ليسوا موجودين أصلاً في تلك البلاد، وأن كل ما يبحثون عنه هو كذبة كبيرة من تخطيطنا». قال نيك حرفياً لوسور: «إن الحرب على الإرهاب إنما هي كذبة كبيرة للسيطرة على شعبنا هنا وضمان عدم اعتراضه. إن أحداث أيلول/ سبتمبر كانت من عمل الحكومة والمصرفيين وأصحاب المال في بلدنا، حتى نستطيع أن نخلق حرباً لا نهاية لها على الإرهاب! والكذبة التي تلتها هي إقحام زعيم بلاد النهرين في أسلحة الدمار الشامل».

«هل هذا ما قاله نيك لك بالضبط؟» سأل المذيع، فأجاب وسور:

«نعم هذا ما قاله».واستطرد «... لقد كنت خائفاً جداً، لقد علمت

حينذاك بأن الحرب على الإرهاب كانت كذبة كبيرة. إن هدفهم هو إقامة حكومة واحدة تسيطر على العالم كله». وقال أيضاً إن العملة الموحدة لدول القرود الشقر كانت مرحلة أولى. أما المرحلة الثانية فستكون بأن نلغي العملة التقليدية، وستتم زراعة رقاقة إلكترونية في جسم كل قرد تحتوي معلومات عن جميع الأموال الشخصية والمعلومات الخاصة به. بعد هذا اللقاء التلفزيوني تلقى المخرج عدة تهديدات بالقتل وبشكل مباشر من آل رلفكور إذا لم يتراجع عن تصريحاته، ووضع تحت الحراسة المشددة. ولكن في ٢٤ آب/ أغسطس من عام ٢٠٠٧ توفى في منزله وقيل إنها أزمة قلبية.

الأحداث اليومية التي يمر بها الكوكب وسكانه تثبت أنه منصاع لرغبات المال، وأصحاب المال. أما تتبع مصادر المال وطرق التحكم فيه فتوصلنا إلى قلة في قمة الهرم يتحكمون في البنوك وغالبية الشركات ومصانع الأسلحة ومن ضمنها الأسلحة الأشد فتكاً، ويديرون الكازينوهات والفنادق الفخمة عبر الكوكب، ويتحكمون في وسائل الترفيه والسياحة وبالطبع صناعة السينما التي تدر المليارات وتدير عقول القرود وأفئدتها في كل مكان.. إنهم معروفون ويمكن بسهولة العثور عليهم عبر أبسط أساليب البحث على الإنترنت: من هم الأغنى؟ من هم الذين يديرون سياسات الدول الغنية والقوية؟ من يدير ويتحكم في البنوك والصناديق الخاصة والعالمية، وأسواق الأموال الرئيسة؟ من يحرك الانقلابات عبر العملاء أو تجويع الرعية لتثور وتدمر ذاتها؟ من يمتص المال بشتى الطرق من الأغيار؟ إنهم الأبعد على الإطلاق مما نعرفه ومما يرشح للقرود عن صفات البشر وإنسانيتهم.

سبم.. حفيد الزيزع

تندم على مطالعته بعض ما جاء في الكتاب عن جده، فبعض الأحداث تلبست ذهنه منذ مساء الأمس، بل حلم بأشياء تتعلق بمحتوى هذا الكتاب الممنوع في بلاده، والذي سمع عنه وطلبه وأحضروه له في زيارته الحالية لعاصمة قرود الغول. «لم يحدثني والدي، قصر الإله عمره لأحتل مكانه، عن أي أشياء مما في هذا الكتاب عن والده.. هل كان يكذب عليّ أم يخفي الحقيقة، أم أنه لم يعرف هو الآخر.. ربما محتوى الكتاب كله كذب». ارتاح لهذه الخاطرة، قرر اعتمادها عل ذهنه ينسى ما طالع. تحرك إلى طاولة الطعام وهو يحمل بطنه من أسفله. «وزني يزداد بسرعة».. فكر وهو يمسك بفخذة الخروف بيسراه ويتلقف الأرز في فمه من يمناه.. هذه العادة في تناول الطعام ما زالت تلاحق القرود الملتحية البنية منذ زمن الفقر، حيث الهجوم على الطعام واختطاف ما تيسر وابتلاعه بسرعة فائقة ثم ترك المائدة لإظهار العفة. القرود الشبعانة عبر الزمن تتناول طعامها بهدوء وتطعم أطفالها وضيوفها وإناثها، ولا تُفرغ المائدة حين تعود إلى المطابخ.

لقد طالع هذا القرد الملتحي، سبم، أن جده كان زير زناءات (إناث) ومغتصباً لمن تروقه منهن وتتمنع، وأنه فقد عينه من زناءة أخذها من زوجها ولكنها ليلة النكاح فقأت عينه، فتركها وزوجها لأحد إخوته. في هذا السياق عرف أن جماعته من القردة المقربين كانوا على الدوام يتزوجون ويطلقون ليتبادلوا الإناث فيما بينهم من دون مخالفة لدينهم.

هذه الفكرة لا تروقه، ولكنه متفهم لموقف الذين سبقوه، إذ كانت خياراتهم محدودة في عهد جده وما سبق، فلا سفر إلى بلاد الشقراوات أو جلب أي لون من القردة الأجمل إلى قبيلته وسط الصحراء. بالكاد كانوا يحصلون على قوتهم، وكانوا يتلقون الرواتب والدعم من القرود الكرت أحياناً ومن الزرق أيضاً حتى سبعة عقود مضت، وحين أعطتهم الأرض ما تحتها وهبوه للشقر والزرق والبيض مقابل استعادة ما يكفيهم وضمان الحماية لهم من خطر جيرانهم المفترض أنهم أبناء جلدتهم. هو، سبم، مكتف للآن بابنة عمه رسمياً، وقد أنجبت له من قد يخلفه وأنثى تعاضده وتوقفت لتحافظ على بريقها.. مشط ذقنه بأصابع يده وتبسم حين تذكر أن جده وقع في فخ الشقر حين أرسلوا له زناءة زرقاء تعمل في التجسس. خطبها وزوجوها به، لكن المسكينة لم تصمد تحت هرماق الجد وهربت تاركة أرض الرمل.. جاء في ذلك الكتاب أيضاً أن خادماً خاصاً كان يسهر على صحة قضيب الجد، من رعاية وتزيين وتدليك ليتفادى مضار كثرة الاستعمال ولضمان الجهوزية.

«لقد كانوا بحاجة إلى قرد مختص في علم النفس ليعالجهم».. عاد سبم وتذكر أن الأجداد ربما لم يكونوا مدمني جنس مثله، ولكنهم أكثروا من الإناث ليزيدوا الإنجاب وتضخيم القبيلة لحماية المنطقة وللزحف على الجيران. «.. مدمن الجنس يمارسه مع زناءة واحدة طالما أنها جميلة ومغرية ومحبة للأمر، لكن زناءاتهم ربما كن يشعرن بالجنس كواجب مفروض عليهن.. لا يمكنني أن أحكم، لكن الأمر خال من الحب على كل الأحوال، ولهذا ما زال القرد عندنا يقيد حركة إناثه ويمنع أي حرية لهن، فعملهن الأهم هو الفراش والإنجاب والرعاية المقيدة. سنرى ما يمكننا تغييره وبأي سرعة». حتى الآن تصدى سبم بشجاعة لأحفاد حلفاء جده الصارمين المتزمتين، منع مهامهم التفتيشية، وسهل نسبياً حياة الإناث

وحركتهن، ولم يحتج القرود العاديون من أزواج وإخوة وأباء الإناث على بداية منح الحريات لهن، وهذا يعني أن الجميع كانوا مرعوبين من القردة المفتشين المتزمتين، وخنوعهم لم يكن التزاماً بتعاليم دينية، وإنما هو خوف من تحالف السلطات مع المتزمتين.. «إنهم بالفعل قرود جبناء، جالسون الآن يلهون ويأكلون وينكحون بانتظار المزيد من المنح لأقدمها لهم.. ولكنهم الأسهل انقياداً، ولو عادوا لشقِّ عصا الطاعة كما قبيل وأثناء تحكم جدي بهم فسيكون عليّ قمعهم بالكرابيج.. سيكتفون بالقليل القليل وبالتدريج، المهم هو توفير العلف والألعاب في الداخل، وتعزيز أساطير تخيلاتهم برؤيتهم للإنسان العاقل في الحياة الوهمية، وتهويل الخطر الدائم من الخارج، وبالتالي الانشغال في الحماية من الجيران، وهذه مهمتي».

يعتبر القرد سبم نفسه الحاكم الناهي بالرغم من وجود آخر كحاكم رسمي. لكن الحاكم ضعيف ومريض، واستطاع سبم التحايل على الحاكم وتولي الأمر بالإنابة، وأبعد زوجة الحاكم عن زوجها حتى لا تؤثر في قراره، ثم تحالف مع مؤثرين من أبناء جيله من الشقر والجمود، وعزز موقعه عند القرد الأحمر زعيم الشقر، بالقبض والصرف، واعتقل كل من قد يعارضه من القردة الملتحين وأرهب غيرهم. هو أول من انتقل الحكم له من أب لابن بعد أن كان من قرد لأخيه على مدار عقود، قرار ضروري بسبب مشيب الأعمام، ولكنه استعدى بذلك مئات أولاد الأعمام الذين يكبح الخوف هياجهم. لو كان الحكم والتحكم يتمّان مثلما كان قبل قرون، فربما كان له نصيب كونه ضخم الجثة ويمكنه مصارعة منافسيه والفوز بالمنصب. لكن هذه الطريقة انطوت عبر كوكب القرود وحلت بدلاً منها أساليب شتى، بعضها بالتراضي بين قبائل القردة وغيرها بالاختيار المتحايل، وهناك الحكم بالعنف وادعاء تأييد كل القرود، التي بدورها

لا تتوانى عن التجمع والهتاف بحياة وعدالة القرد الحاكم، وبالطبع هناك طريقة التوريث والتحالف مع ذكور الدين ذوي الأنياب الطويلة الصفراء ليباركوا ويهللوا. يُسجل لقردنا هذا أنه لم يتخلص من والده بعد، فهو يعزز موقعه بانتظار انقضاء الأجل.

شعر بضغط المعدة والشبع المتخم، وتحركت بالتالي لديه غريزة الجنس، وأراد التسلط على أي زناءة تواجهه، لكنه تذكر أنه خارج بلاده وربما توجد عيون تراقبه عن بعد. فجأة قفزت إلى ذهنه رواية سمعها في صغره. نُسب إلى جده القول إن جماعة من القردة حضرت لطلب العفو عن بعض أفرادها المعارضين المعتقلين، فقص عليهم جده ما فعله جده في موقف مشابه. جد الجد ذاك أحضر طعاماً إلى معزبيه، طالبي الرحمة، وقد وضع رؤوس أقاربهم المقطوعة فوق الصواني وطلب منهم الأكل، فرفضوا، فتم قتلهم. عندما سمع ضيوف الجد هذه الرواية امتنعوا عن طلب إطلاق معتقليهم. إنها السلطة، رديفة الظلم والشبع والنكاح. سلطة الحفيد تُشترى الآن بالمال من القرود الأجنبية المسلحة القوية. تندم لأنه لم يجلب زناءته في هذه الرحلة، ولا يسهل عليه الآن جلب منكوحة إلى مقره المُراقب. قبل أن ينفذ قراره بملاعبة ذاته كما تفعل قرود بلاده المستضعفة، جاء إليه من يحمل أخبار الحروب التي وجد نفسه وارثاً لها ومتورطاً فيها.

قرود أرض النمي المجاورة من الجنوب هم من أفقر قرود الكوكب، ولكنهم جبليون أشداء يمكنهم الحياة على لحاء الشجر، حتى البعير لا قدرة له على تحمل ما يتحملونه. «طوال عمرنا نطعمهم الفتات ونشغلهم ولكن فئة ضالة منهم تآمرت مع خصمنا الشرقي، ولم نتمكن حتى الآن من القضاء عليهم، حتى بعد أن خربنا أرضهم وزرعهم ما زالوا يقاومون». خاطب سبم ذاته وهو يستمع إلى الأخبار الواردة من هناك. «الجار

الشرقي في أرض الفنش يتحدانا أيضاً في أرض الشور الذين سلطنا عليهم كل قرود الأرض وأسفلهم، لكن زعيمهم الأشبه بزنبوط البصل لم ينهزم، بل على العكس استعاد الأرض ورسم الهزيمة على جباهنا.. لعل القرد الأحمر يفي بوعوده وينفذ ما قبض ثمنه مثل قرود الغال والقرود الزرق.. أقله نؤجل الهزيمة ونخرج عبر اتفاق ببعض كرامتنا». تنهد سبم وكاد يشتم والده وأعمامه الذين زجوا بالبلاد وأورثوه هذه الحروب المكلفة التي تجرجر بعضها وتؤدي الواحدة إلى الأخرى، وتحرمه من الاستمتاع بماله ومقتنياته.

هبط عنده مستوى الاندفاع الجنسي مع سماع أخبار استمرار الفشل. مظاهر الإحباط والقلق أشعرته كالعادة بالصداع، «أحتاج إلى حلفاء يُعتمد عليهم ليخلصوا على خصومي، أو أقله يشاغلونهم معي. الجمود لديهم خبرة ومصلحة في الحرب ضد الشور والفنش، كما لديهم تأثير بدون منازع على القرد الأحمر، لكنهم ماكرون يريدون مني أثماناً قبل أن ينجروا إلى الحرب. المشكلة أن أبناء ديني يكرهون الجمود، والأمر معقد، وأسهل شيء تجاهل التعقيدات والقفز عنها والتجاوب معهم في السر ثم في العلن عند الحاجة وفي اللحظة المناسبة، الثمن الذي يريدونه دفعناه منذ عقود، وإذا أرادوا المزيد سنبيعه وكأنه إنجاز».

عزم على السير حافياً فوق النجيل. في الرواق الممتد بعرض القصر لاحظ أن السماء تمطر، ارتكز على حافة الحاجز وأخرج رأسه للأمطار. أضاء بعضهم بكبسة زر الإنارة والنافورة وظهر من شبه الظلام تمثال لأحد ملوك الغال وكأنه قرد موقر يحرس ما كان في السابق قصره وحديقته وأرضه. تبسم سبم، فلو شاهد المفتشون السابقون الذين طردهم من عملهم، لو شاهدوا هذا التمثال في حديقة قصره الأغلى في الكوكب لأشهروا كفره. «لكنهم لم يتجرأوا، فجرجرة الرعية بالشبهة شيء، والذم

في الزعيم شيء آخر تماماً، بل كانوا يسوغون ما يريده ولي أمرهم». حسناً فعلت أن قضيت عليهم وعلى مؤسستهم البغيضة، قال سبم بصوت منخفض وشعر بتحسن في مزاجه. انشرح أكثر وهو يتذكر إيعازه باستجلاب مسرحيات إلى البلد، ولاعبي مصارعة ضخام، وإنشاء هيئة للترفيه لتطوير هذه الصناعة وتوزيع السعادة على الرعية ليتعزز وهمهم عن وجود البشر المثاليين ويخدرهم حلمهم بتعلم شيء من ذلك الإنسان الخيالي.

أفاق من النوم مرتعباً، فقد شاهد إبليس يحادثه في أمور شتى، شرب بعض الماء ومد يده إلى الهاتف وبحث في النت عن تفسير رؤية إبليس: الأمر يدل على ترك الصلاة، الاختلاس وكسب الذنوب، المكر والخديعة والسحر، الارتداد عن الدين، الفرقة بين الزوجين.. خطر له أن ابنة العم تظن أنه يخونها في هذه الرحلة. بحث في موقعه الإخباري المفضل فعرف أن القرد الأحمر قد أمر بشن الهجوم الذي قبض ثمنه سلفاً، وأنه أشرك معه القرود الزرق والغال الذين وعدوه أيضاً بضرب خصومه. نهض من الفراش وتوجه إلى المطبخ وطلب من مرافقيه تفاصيل ما حدث. لاحظ من حديثهم أن الغارة فاشلة، وأن القرد الأحمر ضحك عليه، قبض ولم ينفذ، أو نفذ بدون أي نتيجة حتى أن الغارة كلها لم تقتل أي حمار أو أسد أو قرد واحد عابر سبيل. تصدع رأسه، هاجم بيض الإفطار ولحومه، وتجلت له تفسيرات أخرى لرؤية إبليس في المنام. «هذا يعمق الفشل، بل الهزيمة في حرب الشور. أردنا قلب النتيجة لكن الأحمر ضحك علينا مجدداً، قبض ولم ينفذ. ياليت الأب والأعمام لم يحركوا تلك الحرب. أردنا التخلص من رئيس الشور حليف جيراننا، والنتيجة تعزز موقعه ونمو قوة جارنا الذي فتح علينا جبهات ملاصقة. القرود تموت كالذباب في كل مكان ونحن لا نتقدم من هدفنا». خاطب ذاته واستقر رأيه أن يستنجد

بالجمود، ويتنازل لهم فيما يخصهم على أن يضربوا له الشور وحلفاءهم الفنش. «أليس جد جدي جمودياً كما يقول الجميع، وجدي ذاته تعهد بعدم محاربتهم بل بدعم قيام دولتهم.. عليهم الآن رد الجميل ومشاركتنا في التصدي لأعدائنا وأعدائهم». ارتفع خفقان قلبه، وحاول تذكر تفاصيل محادثاته مع إبليس في الحلم.

بمارت... الجد الأرعن

اطمأن على بداية القصف وذهب للنوم، أو بالأحرى لمشاهدة التلفزيون في السرير. لم يكن يتوقع سماع الأخبار فوراً، فالإعلان سيتم بعد نهاية الضربة. كانت الساعة في بيته الرمادي العاشرة مساء، وفي الموقع المُتلقي الخامسة فجراً. «هذه أربح صفقة عقدتها على الإطلاق، صحيح لن تدخل النقود إلى جيبي، ولكنها ستؤمن لي دورة حكم ثانية. مصانعنا توظف وتنتج وتصدر، منتجاتنا مطلوبة في كل مكان، وحمايتنا للقرود الصحراوية تُقدم بأغلى الأثمان. لا أدري لماذا كانت تدخلاتنا الحربية في السابق تفقدنا قرودنا الشابة وتخسرنا المليارات؟ لسنا بحاجة لنحرضهم على بعضهم، فطوال تاريخهم يتصارعون وما علينا سوى حماية من يطيع ويتمكن من الدفع، وتلك للآن حماية نظرية لم ندفع فيها نقوداً أو نخسر أي قرد».

الزعيم الأحمر، بمارت، احتفى بحفيده التاسع في أواخر الصيف الماضي، وورث عن جده حب جمع المال بأي أسلوب كان. هو لا ينسى أن ثروة جده بدأت بذبح بغال ميتة وإطعامها للعمال، ثم توسع بفتح منامة تحولت إلى صالون شراب ثم بسرعة إلى ماخور، فمواخير أخرى. وكان الجد قد طرد من بلاده الأصلية لتهربه من دفع الضرائب ومن الخدمة العسكرية. ورث الوالد ثروة الجد ونماها وأورثها لبمارت الذي نشط في إقامة الكازينوهات للقمار وملاحقها، ومارس الدعارة قبل فوزه بدعم من أمواله بموقع الزعيم الأول والأعظم في كوكب القردة. «لا توجد أموال

نظيفة، كل الأموال قذرة». هكذا يُذكر ذاته على الدوام، وبهذا يرشد أولاده وبناته، ولهذا السبب تركته اثنتان من زناءاته قبل أن يرتبط بالثالثة التي أصبحت في موقع محرج الآن بسبب ملاحقة زناءة عاهرة تؤكد أنه واقعها في فترة زواجه الأخير وتطالب بالمزيد من المال لتسكت.

أفاق فجراً، كالعادة، أمسك بالريموت وشغل التلفاز على محطته المكروهة ليستقي الأخبار. بحث عن هاتفه الذكي في الفراش ودق على أحرفه زعقة الصباح. إنه القرد الأعظم في الكوكب ولكنه يلجأ إلى الزعيق مثلما يغرد أي قرد آخر، وذلك لانعدام ثقته في الصحافة والإعلام. «الإعلام المزيف، والقرود الصحراوية يحتاجون للبهدلة وللتربية، ليتني أستطيع الانتقام من الإعلام بقوة الانتقام نفسها من القرود المارقة عبر الكوكب». لا يغيب عن ذهن بمارت عزمه على ترقيص القرود الصحراوية انتقاماً منهم لتدمير الأبراج. هذه الفكرة زرعها في ذهنه القرد النتن، زعيم الجمود المنتخب، أفهمه أن الصحراويين لا يستجيبون إلّا للضغط والضرب وإبقائهم تحت التهديد وشفط أموالهم ومدخراتهم، ووضعهم دوماً أمام الأمر الواقع.. «سيتصارخون ويتقافزون، ولكنهم يخفضون رؤوسهم ويحنون ظهورهم في النهاية».. كان النتن يقول له، ويمرر المحتوى نفسه بكلمات أخرى عبر جمود مقربين من القرد الأحمر.

عندما وصل إلى منتصف ولايته الأولى واصل التصرف وكأنه في حملة ترشح، يقاوم ويهاجم وينشط للحفاظ على الجائزة. كان يشعر بضعفه بالرغم من كثرة وهول التهديدات التي يطلقها، ويرى متنفسه في الزعيق ضمن معركة على مدار الساعة، ولم يكتشف الفرق بين الترشح والفوز، وبين ممارسة الحكم. القرود المحيطة به تقر أنه يعاني خللاً عقلياً. يهاجم الأطياف كلها، دينية وإعلامية وطوائف وأجناساً، لكنه يستثني أي نقد للجمود. يُفترض أنه من صناع الأخبار، ولكنه يلاحق

المحطات لثماني ساعات يومياً، ويغضب ممن يسأله عن شغفه بالتلفاز.. «أنا لا أشاهد التلفزيون كثيرًا». ويعلن: «أعلم أن القرود التي لا تعرفني تحبّ القول إنني أشاهد التلفزيون كثيرًا، وبخاصة القرود ذات المصادر المزيفة والصحفيين المُضللين. لكنني لم أعتد مشاهدة التلفزيون كثيرًا بسبب انشغالي بالوثائق. أنا أقرأ الوثائق كثيرًا». يقول لنفسه: إنه مضطر لمشاهدة التلفاز ليرى الذين يكذبون عليه ويزعق ضدهم، فلا بد للقرد الأحمر من الدفاع عن الذات، وإذا لم يسعفه الوقت لمشاهدة برنامج ما فلديه جهاز تسجيل لكل ما يفوته. «ماذا يريدون مني؟ أنا لست مثالياً لست إنساناً طاهراً عفيفاً، أنا قرد يريد مصلحة ذاته وبلاده أولاً، وكزعيم سأجد دوماً من ينتقدني سواء فعلت هذا أو عكسه تماماً.. لن أهتم بهم، ولن أحيد عن رؤيتي ووعودي».

«اليوم سأحتل كل المانشيتات والأخبار، لقد هددت ونفذت ونجحت في هذه الضربة». ضحك بصوت مرتفع إذ لمع في ذهنه النجاح رخيص الثمن غالي الكلفة التي قبضها لهذه الضربة الجوفاء. هو أكثر القرود التي يتحدث عنها سكان الكوكب، ولكنه يشعر بالغرور عندما يسمع أو يرى اسمه يتصدر النشرات. يحرم ذاته من إظهار العاطفة حتى لا تدمر غطاء القوة الذي يتلذذ بالظهور به. ذات مرة سقط القناع.. كان في اجتماع مع مجلس قرود حزبه وأخذه الحديث إلى مخاطر المخدرات والإدمان، وحدثهم عن كفاح أخيه مع الكحول ثم خاطبهم: «ألستم مسرورين بأنني لا أشرب؟» لم يكن بينهم جريء يخبره بأنه زانٍ، كاذب، وغير ذلك مما كتبه أحد مستشاريه ونشره في كتاب أثار جنون القرد الذي يظن أنه الأعظم.

أمسك ساندويتش الفطور بكلتا يديه حتى لا تهتز أي من الطوابق الأربعة بين ضفتي الخبز، هامبرغر وشرائح خنزير مقددة وبيضه مقلية

فوقها جبنة، وقضم ومضغ وبلع بسرعة الضباع. «يتهمونني بسوء الإدارة! كيف أدير وهم يعطلون كل قرار أتخذه؟» مفهوم القرد الأحمر للحكم نابع من الأساليب الإمبراطورية القديمة، بل مما سبقها حيث يحتفظ الزعيم بمضرب ثقيل إلى جانبه.. يظن أن القرود اختارته وبالتالي يمكنه فعل وقول ما يريد وعليهم التنفيذ فوراً. لكنهم يطالبونه بعدم مقاطعتهم وهم يتحدثون، وهناك من يُذكره بأنه لا يعمل لديه وإنما لدى المؤسسة. «كلهم كاذبون محتالون يقللون من قدراتي ومقداري ليصعدوا على ظهري. وحين أتصدى لهم يتهمونني بالجنون أو القصور. عليّ تذكيرهم دوماً أنني لست إنساناً ولست ملاكاً». أنهى الفطور وباشر يرتشف القهوة وينظر إلى شريط الأخبار المتلفز. «هناك زناءة مسؤولة قالت عني: أكبر مشكلة يحتاج الآخرون لاستيعابها، هي أن الزعيم غير مُهيّأ لذلك المنصب. الأمر يُماثل أن تدخل غرفة ويُطلب منك إجراء جراحة في المخ. وحينما تفتقر إلى المعرفة، سيكون الأمر مُربكًا.. هذه الزناءة يمكنها الحصول مني على عملية في أي وقت».

في المكتب وجد ابنته قد وصلت قبل بقية المستشارين، قبلته قبلة روتينية، وذكرته بالموعد للفحص الطبي. «كل شيء تمام؟» سألها.

«لقد تأكدت من الترتيبات السابقة، الأسئلة ضمن ما أخبرتك به، والطبيب لن يدلي بشيء بعد ظهور النتائج إلا بعد اطلاعنا وموافقتنا عليها. كل شيء سيكون على ما يرام». قالت لوالدها وأخبرته أنهم سيتحركون إلى مركز الفحوصات بعد الاجتماع مع المستشارين هذا الصباح. «لن يكون هناك جديد، الحديث عن نتائج الضربة الجوية وردود الفعل من الآخرين».

صاحبت الأقاويل الزعيم منذ ترشح للقيادة بأنه مختل ومريض نفسياً، وأثيرت تكهنات جديدة حول قدراته الإدراكية بعد صدور كتاب الذئب؛

نار وغضب في بيت بمارت الرمادي، حيث أشار الذئب إلى عدم قدرة القرد الأحمر على مواصلة دوره بسبب نقص لياقته الذهنية، وقال الذئب الكثير من الأشياء ومن ضمنها أن كل مساعدي الزعيم يرونه ويعاملونه كطفل يريد إشباع رغباته فوراً. لهذا وافق الزعيم على فحص صحي إضافي بعد أن هاجم الذئب بأقذع الأوصاف وقال عن ذاته: «أنا عبقري، أنا لطيف حقاً».. وغير ذلك من التصريحات المثيرة للاستغراب. أثناء حملته الانتخابية أعلن طبيبه الخاص أنه سيكون «أكثر قرد يتمتع بالصحة يتم انتخابه على الإطلاق للزعامة». والآن سيتعرض الزعيم لأول فحص طبي منذ دخوله البيت الرمادي، لكن الإبنة رتبت كل شيء.

بعد ثلاث ساعات من الفحوصات التي شملت اختبارات التمييز بين رسومات للجمل ووحيد القرن والفيل، عاد الأحمر إلى بيته، وبعد ساعتين أعلن طبيب البيت، الذي رافقه أثناء الاختبارات، أن النتائج لم تظهر أي علامات غير عادية في الاختبار الإدراكي، وأنه يتمتع بصحة جيدة.. «ليس لدي قلق إزاء قدراته الإدراكية أو الوظائف العصبية». قال الطبيب للصحافيين وأضاف: إن حالة الزعيم البالغ من العمر واحداً وسبعين عاماً «ممتازة». وأضاف الطبيب: «كل المؤشرات الصحية للزعيم تقول إنه بصحة جيدة، وسيظل كذلك خلال فترة حكمه، فهو يتمتع بمميزات الانقطاع لفترة طويلة عن التبغ والكحوليات».

صحفي صعب عليه ابتلاع ما يقال، سأل: كيف يمكن لقرد يتناول الدجاج المقلي والمياه الغازية والبيتزا وكل خلطات سندوتشات اللحوم بين الوجبات ولا يمارس الرياضة، أن يتمتع بصحة جيدة؟ أجابه الطبيب «إنها الجينات.. فهو لديه جينات استثنائية».

كان يومه يقترب من نهايته، وشرد ذهنه في ضيوف العشاء الساعة السادسة، لم يتذكر وجوه بعض زوجات من دعاهم، لكن عاد إلى ذهنه

ما قاله لصديق بعد استلامه البيت الرمادي: بوسعي دعوة من أريد للعشاء وعليه أن يحضر. «لحسن حظهم أنني أثرثر معهم فقط، ولا أنكح زناءاتهم كما فعل ربع سكان هذا المنزل السابقين، الربع الذي اكتشف أمره.. كان أحد الزعماء يفصل الأزواج عند المبيت، كل في غرفة، ويذهب للزناءة المختارة في سريرها ويطالبها بإفساح مكان لزعيمها ولا ينتظر إجابتها، ولا تجروء على صده. أنا لا أفعل ذلك، ولكن الداعرات تلاحقنني بقصص من الماضي، يردن شهرة ومالاً على حسابي». أعاد تذكير ذاته بنتيجة الفحص الطبي، تبسم وقرر أن يثرثر مع ضيوفه الليلة عن مغامرات الجنس لسكان بيت الزعامة هذا.. «عليهم أن يعرفوا الفرق بيني وبين السابقين.. هذا موضوع جيد للثرثرة. لقد طلبت من الطهاة أن يعدوا لنا شرائح اللحم جيدة الطهو، وسلطة الجبن الأزرق الدسمة، ولحم الخنزير المقدد، وحساء الطماطم». في كل عشاء يحضر الطاهي للزعيم وجبتين من الآيس كريم مع أنواع أخرى من الحلوى. في العادة يستعرض الزعيم بعد العشاء لضيوفه الحمامات في البيت ويمتدح ترميمه لها، ويرافقهم إلى غرفة نوم زعيم سابق في الطابق الثاني.

«أنا لم أصنع هذه المشكلة، هم خلقوها لأنفسهم، وسلفي هو الذي مهد لها ودعم الإرهاب».. قال الأحمر لضيوفه رداً على سؤال أحدهم عن أوضاع وآفاق مشاكل القرود الصحراوية. «.. سياستي هي كما رأيتم اليوم، الضرب بعنف، لا مجال للعبث معنا، استراتيجيتي هي تعزيز القوة، لقد انتهى الزمن السابق. كنت أقول لخصمي، الذي احتل هذا البيت قبلي، إن الذين هزمتهم وأزلتهم من الحكم في تلك النواحي أفضل مما صنعت بذلك الغزو.. نعم كانوا سفاحين لقرودهم، ولكن الوضع الآن أسوأ بملايين المرات، إنهم يقطعون رؤوس بعضهم ويحرقون خصومهم أحياء. حكامهم السابقون كانوا أرحم وأفضل للجميع، كانوا يمنعون

الإرهاب ويقتلون فوراً أي إرهابي، أما الآن فتلك النواحي تحولت إلى جامعات لتخريج الإرهاب الذي تمدد عبر الكوكب». لم يترك لضيوفه فرصة التعليق ولم يجرؤ أي منهم على مقاطعة واضحة، استمعوا إليه وهم يغترفون من الآيس كريم. «نفط الصحراويين كان يذهب للإرهاب بأشكاله، ونحن قاتلنا وخرجنا من هناك بدون نفط أو مال، لأننا أغبياء. لديهم الكثير من المال ولم يأخذ أسلافي في الزعامة أي نصيب، أفلسوا بلدنا وخربوا تلك النواحي بتدخلهم. عقيدتي هي بسيطة جداً: إنها القوة. إنها القوة. لا أحد سيعبث معنا في ولايتي، ستبقى القرود قروداً حتى وإن حلم الواهمون بالاقتراب من الإنسان. جيشنا سيكون الأقوى وسنأخذ ما نريد وسنقبض ثمن أي فعل أو قول يساعد تلك القرود على الاحتفاظ بعروشها».

أشراف وأنجاس

أجداد وأحفاد الاغتيالات

التقيته في بيت عزاء، نحيف الجسم مع انحناءة خفيفة للرقبة والكتفين، شاء الحظ أن يُجلسوه بجانبي. تأملته فتبسم، اقتربت برأسي منه وسألته عن الأحوال، فرد بحمد ربه على ما أعطاه. «تبدو مثل القليل الذين يهتمون بصحتهم.. وزنك جيد بالنسبة إلى سنك». أردت كسر الصمت والحديث في شيء ذي معنى بدل ترديد الجمل التقليدية بين من يلتقون في هذه المناسبات ولا يعرفون بعضهم بعضاً. تحدث عن الحمية وفوائد الوزن الخفيف على أعضاء الجسم وخصوصاً العظام، فأضفت: إن الوزن الخفيف يطيل العمر، فأبلغني أن عمره خمسة وثمانون عاماً، وأضاف: إن ذاكرته على خير ما يرام. نظر إلي بتمعن عندما تبسمت، فقلت طول العمر وجودة الذاكرة يعنيان كنزاً من المعلومات المتوارثة.. فهم قصدي وربما قرأ في ملامحي ما أردت معرفته.

«نعم، أتذكر بوضوح قصصاً كان جدي يرويها لنا ونحن صغار».. بعملية حساب سريعة تبين أنه من مواليد ١٩٣٣، وإذا كان استمع إلى القصص قبل سن السابعة، وكان عمر جده سبعين عاماً آنذاك فهو من مواليد ١٨٧٠، وبالتالي فما يخزنه هذا العجوز عن جده ستكون تجارب ومعلومات حية عن زمن مثير. «كان جدي مجنداً في الجيش الكرتي، وقضى خدمته في بلاد النهرين، وفي المدينة التي كانت بمثابة العاصمة». لم أصدق أذني، فهذه المدينة كانت مقر الوالي الذي يشرف على كل الأراضي جنوباً بين البحر غرباً والخليج شرقاً والمحيط جنوباً. كل شيء

يتوقف الآن على جودة الذاكرة وبالطبع على عقلية الجد وماذا كان يروي لأحفاده الصغار من قصص. «جدي تزوج من هناك، وأحضر زوجته معه إلى قريتنا بعدما انتهت خدمته في الجندية». كان عليّ إخفاء سعادتي بما أسمع، فنحن نجلس ونتهامس في بيت عزاء.

«حظ جدك كان من السماء، فمعظم المجندين ماتوا في الحروب، وهناك قلة عادوا أحياء إلى أهلهم، وبعضهم بالفعل أحضروا زوجاتهم معهم.. هذا ما طالعته في كتب المذكرات، وما سمعته من روايات».. قاطعني الحفيد بوضع يده على يدي وشرح لي أن الجند الذين ماتوا كانوا في فترة الحرب الأولى الكبرى التي انهزم فيها الكرت في عدة مناطق، ولكن جده خدم الجندية في فترة سبقت الحرب بسنوات. أكملت: «لم تكن آنذاك أي من هذه الدول الحالية في المنطقة قد خُلقت، كانت الصحارى تحتوي قبائل متحاربة تترزق من هذا وذاك، أو من قطع الطرق وأخذ الإتاوات، وغزو بعضهم بعضاً، وكانت فترة تنافس بين القرود الزرق وحلفائهم من جهة، وبين الدولة الدينية من جهة أخرى، وقد أقيمت هذه الدول لاحقاً في إطار تلك المنافسة». توقفت عن الحديث لمصافحة قادمين جددٍ إلى العزاء.

«صدقت».. قال الحفيد الثمانيني وقد شعرت أنه استأنس بحديثي، فقال: «دول تلك المنطقة قامت على الخيانة والقتل والدم، قتل الآباء للأبناء والأخوة لإخوتهم».. لم أعلق سوى بالإيماء لفتح المجال لاستمرار رواية الحفيد عن جده، والتي كانت بمثابة رواية شاهد عيان. «ذات يوم وصل المدينة فارس على جواد منهك مقبلاً من الجنوب، من رأس الخليج، وبدا لمن شاهده كمُطارد من الشياطين. عرفنا لاحقاً أنه سار يومين وليلتين بشكل شبه متواصل.. قال جدي لنا». قال الحفيد الثمانيني لي وقد اعتلت الدهشة ملامحي، وأكمل: «اتضح لاحقاً أن

الفارس كان الخليل، وهو صديق للكرت ومكلف منهم بمراقبة الشيخين الأخوين حاكمي الضفة لرأس الخليج وما يحيطها من نجوع، ومهمته استمرار التأثير فيهما لمولاة الدولة الكرتية وإبعاد تأثير القرود الزرق عن الحاكمين. وطالما حضر بهذا الشكل فذلك يعني أنه تأبط شراً». سألته عن الزمن التقريبي لتلك الحادثة في محاولة مني لمواكبة الرواية، فأخبرني أنه العام ١٨٩٦ وكان جده شاباً فتياً في منتصف خدمته العسكرية.

«لست على دراية بأحداث مهمة عن ذلك العام في تلك البقعة من الكوكب». قلت مطمئناً للحفيد لأشعره بجهلي وبشوقي ولإعطائه فرصة للحديث براحة إذا شعر بأنني لن أدقق في كل ما يُسمعني أياه.

«كانوا أربعة أخوة ورثوا المشيخة عن والدهم الذي ورثها عن والده وجده من قبله. اثنان من الأخوة استأثروا بالإدارة تحت تأثير هذا الخليل، وأبعدوا أخاهم الثالث إلى الصحراء لقيادة قوة دفاعية تتعامل مع البدو وقطاع الطرق، ولكنهما وبإيعاز ونصح من الخليل حرماه من المال لدفع الرواتب، على أمل أن يتم قتله من أي كان ويتخلصوا منه، كانا خانعين وكان نمروداً. حاول هذا الأخ الصحراوي مراراً الحصول على المال دون جدوى، فاكتملت في ذهنه خطة متكاملة.. خطة كسح مسح». قال الحفيد وقد نظر إلى عيني مباشرة، وواصل: «كان يعرف دروب المدينة الصغيرة وتفاصيل بيوت أخويه. اصطحب ولديه وعشرة مقاتلين ممن يثق بهم، وتوجهوا إلى المدينة ليلاً. عرّف أخ الحاكمين عن نفسه لحراس البوابة، ففتحوا له وسار بهدوء إلى بيوت أخويه ضمن ترتيب مسبق مفصل لمهمة كل واحد، أو بالأحرى المجموعات الثلاث التي قادها هو وكل من ولديه.. كانت أهم التعليمات هي الهدوء واستعمال الخنجر والسيف حالما يسمعون الإشارة وهي رصاصة. هكذا وقف الأخ الصحراوي فوق رأس أخيه الحاكم وأطلق رصاصة لم تقتله على الفور، فتح المغدور

عينيه فوجد أخاه يعيد حشو البندقية، فناشده بالأخوة، واستقرت رصاصة ثانية بين عينيه. في هذه الأثناء ذبح أكبر الولدين عمه، الحاكم الثاني، واحتجزوا الإناث في غرفة وفرضوا الهدوء على المكان». صمت الراوي نقلاً عن جده الذي لم يكن في تلك النواحي، ولكن خدمته كانت على بعد مئةٍ وسبعين كيلومتراً في الشمال حيث مقر الوالي.

«إذاً، لم يتمكنوا من الخليل». قلت مستنتجاً. فهز رأسه مؤيداً قبل أن يواصل، وتناولنا قدحاً من القهوة السوداء يمر بها أحد المعزبين في بيت العزاء. شعرت ببعض الإحراج كون مكوثي قد طال، وكلما قدم المعزبون مزيداً من القهوة فهذا يعني أن عليك أن تستأذن، لكن المكان لم يكن مزدحماً فتجاهلت الأصول.

«نعم هرب الخليل، فقد بحثوا عنه في بيته دون جدوى، ولم يكن بالوسع مطاردته إذ على الأخ وأبنائه ضبط الوضع مع بزوغ الفجر، فهناك جثث الأخوين وبعض حراسهم والإناث المحتجزات». أيدته بحركات من رأسي فواصل: «في الصباح، بدأ الأعيان والتجار بالوصول إلى قاعة الحاكم كالعادة ليصبحوا عليه، فوجدوا الأخ الصحراوي ينتظرهم على الكرسي محاطاً بولديه ووجوه حراس جدد. هكذا لم يعرفوا ما يقولون أو يفعلون، ولم تكن لديهم شجاعة للسؤال أو المغادرة. كانوا كالعادة يصبحون (السلام عليك يا محفوظ) لكنه لم يرد تحية أي منهم. اكتمل العدد فسحب الصحراوي سيفه من غمدة ونكسه بين ركبتيه وجال بعيون كالصقر على الحضور ثم قال بصوت أجش: «يا شعبي، اعلموا أن أخوي قد ماتا الليلة الماضية، وأنا سأحكم بدلاً منهما، وإذا كان لدى أحدكم شيء يقوله فليتقدم أمامي ويقوله».

«مين أخو أخته سيتقدم ويعترض».. ثم استدركت «ولماذا يعترضوا، فهؤلاء التجار ورواد المجالس همهم استمرار مصالحهم وتوسعها، وهذا

الأخ الحاكم الجديد يحتاج إلى تأييدهم وبالتالي لن يضرهم».. قلت هذا ثم قاطعني الحفيد بمثال شعبي يتماشى مع ما نطقت به. أضفت: «ذاكرة جدك وذاكرتك تبارك الخالق».

«جدي وأبي وأنا أميون، وذاكرة الأمي قوية لأنه لا يعتمد على ما يكتب، بل يحفظ ما يسمع. هذه التفاصيل التي كان جدي يرويها لنا، لم تحدث أمام عينيه، ولكن القصة تسربت بسرعة وانتشرت بين قرود الصحراء وبين الجنود، فلم تكن هناك أسرار في عالم القيل والقال». اطمأننت عند سماع أمية الحفيد وجده، وأصغيت لعله يُكمل، فالرواية ما زالت في منتصفها. «نادى القاتل على الخدم وطلب منهم إحضار ابن أخيه المغدور، فجلبوه من فراشه أمام عمه الذي قال له: اذهب واغسل أباك وعمك ورتب جنازتيهما يا بني، فقد حكم الإله أن عليهما أن يموتا الليلة وأن أحكم بدلهما، لقد حان موعدهما.. حمداً للرب». صعق القرد الفتى لما سمع وحدق عمه فيه لوهلة ثم نزلت دمعتان من عينيه، وصرخ على الفتى أن «يذهب وينفذ ما طلب منه».

«دموع تماسيح وليست دموع قرود، ناهيك أن يكون لها علاقة بالإنسان وما نسمع عن معتقداته التي منها احترام أخوة والصداقة.. لكنه الكرسي، عليه اللعنة». قاطعت الحفيد ولم أزد لأمنحه فرصة إنهاء روايته.

«الخليل طبعاً لم يعد ولم يسمع أحد عنه شيئاً وضاعت مصالحه ومنصبه في تلك الربوع، فأخبر الوالي بأن الأخ ذبح أخويه وأنه قبض الثمن من القرود الزرق، المنافسين والأعداء للكرت، وحاول إقناع الوالي أن علاقاته في المنطقة تؤهله لمحاربة الحاكم الجديد واستعادة البلاد للسيطرة الكرتية. بالنسبة إلى الوالي هذا قرار حرب لا يمكنه اتخاذه، فأخبر السلطان بالتفاصيل، وهذا بدوره أراد الاستماع لوجهة نظر الأخ القاتل، فربما يخضع للخلافة إذا كان هدفه الحكم المحلي فقط، وليس

الخيانة والانتقال إلى صف القرود الزرق. هكذا كتب السلطان مباشرة للأخ يستفسر عما جرى.. بالطبع كان السلطان يعرف الحقيقة، ولكنه فتح الخط للتفاهم قبل اللجوء إلى الحرب المُكلفة». نظر الحفيد إليّ منتظراً الإدلاء بتخمين عن الخطوة التالية، ولكني أعلنت استسلامي بحركات من يدي.

«كتب الأخ للسلطان: إن المشيئة الإلهية ألهمتني لمغادرة الصحراء وزيارة إخوتي في تلك الليلة المشؤومة، وعندما دخلت بيتيهما وجدتهما مذبوحين من رجال الخليل الطامع في السلطة، فأفشلت خطته الانقلابية ولم أستطع الإمساك به، وهو الآن مختبئ عند الوالي، وأنا أطالب بتسليمه ليُحاكم.. طبعاً أعلن الأخ ولاءه للسلطان واستمرار حماية المصالح، وأعرب عن أمله ببعض الدعم الإضافي لبناء قوة ضاربة تُقر الأمن في الصحارى المحيطة بمدينته». وضعت يدي على فمي لإخفاء ابتسامة، وقلت إن هذا مجرم ذكي، وبالتأكيد السلطان تقبل قصته، وسألت إذا كان الوالي سلم الخليل. «طبعاً لا، فهذا رجلهم وكان يخابرهم بالتفاصيل منذ سنوات، وهم يعرفون الكراهية الدفينة بين الخليل والأخ القاتل، فقد كان يحرض الأخوين الساكنين بإيعاز من الكرت على الأخ الصحراوي النمرود لإبقائه في البراري بحجج الحماية والدفاع إذ كانوا يعرفون مساعيه نحو القرود الزرق، ويتمنون موته». اتضحت الصورة أمامي، وتذكرت ما أعرفه عن ذلك الأخ الذي لقب بالكبير، وحكم طويلاً ومن بعده ولداه اللذان شاركا في الانقلاب، ومن بعدهما حكم أولادهم وتحكم السلالة حتى الآن بشكل مطلق. القرد الكبير سيطر على الأوضاع بغزوات شرسة في الصحراء للمعارضين والمتمردين، وعقد تحالفات في البداية مع الكرت والقرود الزرق، ثم وضع البلاد تحت حماية الزرق، وأصبحت سياساته مثالاً يحتذى به لقرد شاب آخر لجأ إليه واستطاع بتكتيك ونصح الكبير

ضم معظم المنطقة الصحراوية والسواحل تحت حكمه ولقب البلاد الشاسعة باسم جده.

«لا بد أنك سعيد بتذكر ذكريات جدك، عسى أحفادك يسعدون بما ترويه لهم». تمنيت عليه تمهيداً للوداع، لكنه أمسك بيدي وأشار إلى قرد وسيم يجلس على مسافة قبالتنا، وأخبرني أن هذا أحد أحفاده الذين توقف عن تعدادهم عندما أصبحوا أربعين، وهو مهندس، ولكنه وغيره منذ الصغر يتهربون من الجلوس والاستماع، كلهم يفضلون روايات الهاتف الجوال على رواياتي.. شعر الحفيد بما يقال عنه فرفع عينيه عن جواله وتبسم وأعاد النظر إلى الجوال. «قرود آخر زمن». همست للعجوز، واستأذنت.

في سبيل المشيخة

«كانت فترة الحكم الأولى لأجدادي منذ ١٧٣٠ خالية من الصراع العائلي خلال خمسة أمراء، المؤسس ثم ابنه ومن أب إلى ابن حتى شب النزاع بين أبناء العم وانتهت الحقبة باحتلال اليرصم لبلادنا بطلب من الكرت، وتلاهم خمسة أمراء آخرون بعد انتهاء الاحتلال، ثم تنازع إخوتي الحكم طوال تسع سنوات، هزمنا فيها أنفسنا حتى تولى خصمنا ابن الديشر السلطة، ولم تتح لي فرصة الحكم سوى لعام واحد واضطررنا للجوء إليكم.. القرد ابن الديشر المتوفى هذا العام، وهو الأمير السادس لقرود جبل رمش، قتل هو الآخر ابن أخيه الأمير، وأربعة من إخوته، وذلك انتقاماً منهم لقتلهم فيما سبق عمهم بعتم، وأخذوا الكرسي منه. هكذا أصبح شيخ قبيلة رمش، وسلب بلدنا بعد أن أجرناه وأصلحنا بينه وبين أبناء أخيه قبل أن يقتلهم غيلة. أما ابن الديشر الحالي وهو ابن المغدور بعتم، فقد تسلم الإمارة بعد عمه العقيم، ويستعد لغزونا. لا يمكن القول إنها أيام طيبة، ولا أدري متى سيهدأ البال». كان القرد الأمير اللاجئ منذ سنوات يتحدث بوجود لفيف من القوم على رأسهم القرد الأمير المُضيف، كرابم، المغتصب للحكم هو الآخر بعد قتل أخويه، وبحضور الابن اللاجئ، الزيزع، جيد الإنصات والذي يتعلم أسباب فشل والده وصراع أعمامه، ويسعى للتعلم من كرابم، الذي يعتبره أسداً وحرباء في آن واحد. فنصف أعماله أسرار ونصفها الآخر خداع، ضرب القبائل بعضها ببعض، وتقرب من الزيلجن وعقد معهم معاهدات حماية، كما أنه

يعيش أيامه بهناء بين الجواري والرقص والانشكاح.

بسفك الدماء يا جارتي تحقن الدما وبالقتل تنجو كل نفس من القتل

علق كرابم على ما سمع من ضيفه مكرراً هذا البيت الشهير من الشعر والمنتشر بين شيوخ القرود في عالم: إما أن أقتلك، أو أغلبك، ثم أجلوك عن البلاد وأستولي عليها، وإما أن تفعل أنت ذلك فيكون لك في ما أريده فيك، فالسابق للقتل هو الفائز. سمع الأمير همهمات التأييد من فريق المنافقين الملازمين لجلساته الصباحية، فأكمل: «المهم أن البدو كانوا يعايرون ابن الديشر أنه لا يقطع الكثير من الرؤوس بعد أن قطع رؤوس أبناء أخيه الخمسة، إلا في الحرب.. لكننا سنقطع رأس وريثه، ابن ذلك الأخ، أليس كذلك يا بني؟». كان الحديث موجهاً إلى الزيزع الذي تتفق أهدافه مع كرابم، حيث إن أبناء الديشر قد احتلوا أرض أجداده وأجلوهم عنها، وينشد أميرهم الجديد غزو بلاد الأمير المُضيف أيضاً. تجاوب الزيزع مع ما يسمع، فهو بحاجة إلى حنكة المُضيف، الذي يناديه دوماً يا ولدي، وبحاجة إلى ماله وسلاحه وقروده. «كان جدكم، عليه الرحمة، إذا أخذ بلداً أولى عليه أحد أبناء ذلك البلد، وهذا أطمع القرود فيه، ولذلك استمرت الحرب المعارضة له ولمن بعده أكثر من ثلاثين سنة، رفضت القبائل فيها الانصياع للقرود المتعصبين أنصار جدكم وكثرت المعارك والغارات». قال الأمير كرابم للزيزع ووالده. لكن تلك المعارك التي ضخمها الرواة كانت تؤدي إلى مقتل أربعة قرود من الطرفين، وفي الحالات القصوى عشرين قرداً، وذلك على عكس ما تبع، فكلما اتسع إطار حكم أجداد الزيزع كانت الدماء تسيل بغزارة أشد، وأعداد القتلى تتعاظم، خصوصاً بعد التوقف عن القتال واستباحة أموال الخصوم المهزومين وأرواحهم.

«المبسوط في هذا الزمان هو الشيخ مساق بن أول، الذي تجاوز عمره الآن مئة عام، وتزوج أكثر من تسعين زناءة، وأنجب المئات منهن

ومن جوارٍ غيرهن، بل إنه سبغ بلاده، ببنيه وبناته وأحفاده وأحفادهم. حاول احتلال الجزيرة جارته بعد أن حاربها واستقل عنها وهو في سن الخمسين، لكن الزيلجن منعوه وقصفوا عاصمته من بارجة بحرية لهم، ثم صالحوه ووافقوا على استقلال أراضيه عن الجزيرة الجارة التي كانت تحكم بلاده، فعاد الشيخ إلى النسل وإنتاج اللؤلؤ. وهو الآن أمير البلاد وخطيبها وقاضيها ومفتيها». أراد والد الزيزع أن يضيف في حديثه صفة المُحسن لذلك الأمير، لكنه أحجم حتى لا يغُضب المُضيف الحليف المعادي للشيخ مساق بن أول، حليف ابن الديشر الطامع في بلاد كرابم.

«لقد سمعت ابن الديشر يقول على الملأ بعد ذبح أولاد أخيه الخمسة: ما قتلناهم إلا خوفاً على هذه، وضرب رقبته بيده، هموا بقتلي ومنعتهم، وهل تظنون أن من ذبح أخي بعتم يعفو عني؟». قال قرد عجوز من بين الجالسين، وقدم تفاصيل للزمان والمكان حيث سمع ذلك من الزعيم المتوفى الذي انتشرت العشرات من القصص، بعد موته، حول شجاعته وأسلوب حكمه. لقد استولى بالحرب على أكبر مساحة من دجن وضمها إلى سيادة إمارة جبل رمش. كانت له ثلاث طرق في الغلبة، الأولى بالكرم، ثم بالسيف، وطبعاً بالإرهاب. يستميل بالهدايا من يُستمال بها، ويرفع السيف على رافضي الإغراء، وينكل بالخصوم ليرهب البقية. كان مهاباً وليس بالضرورة محبوباً. أما خلفه، ابن أخيه المغدور، بعتم، فقد أشاع عن ذاته وشجاعته أنه شعر ذات جلسة بشيء ينخز بين كتفيه فتحمل حتى عاد إلى خيمته وطلب من الخادم الكشف على ظهره فرأى هذا ما أخافه وصرخ: إنها عقربة تعمل قرصاً في ظهر الشيخ الذي مد يده وخطفها ورماها خارج الخيمة وطلب من الخادم وضع تراب ساخن مكانها، ثم نام بدون أي تأثير. لكن أياً من الحضور لم يتكلم عن الصفات

الإيجابية والشجاعة التي تذاع عن ابن الديشر، القرد الشاب الطامع في التوسع وضم هذه البلاد أيضاً.

كان الزيزع في مثل تلك الجلسات يتذكر ويتفكر ويستمع ويخطط لاستعادة ما كان من حكم أجداده لدجن والعاصمة التي شهد فيها النور. لقد شاهد أعمامه يتنازعون ويتحاربون من أجل السلطة، ورأى العدو على أبواب العاصمة وشاهد والده ينهزم في المعركة الأخيرة والأبواب تقفل أمامهم والعوز يفتح لهم ذراعيه. في هذا اللجوء تحول من قرد صغير إلى أكبر وأقوى، كان طويلاً مثل أمه، ذا عيون براقة. جاءت الفرصة للتجربة القتالية حين ضغط ابن الديشر على بلاد معزبهم كرابم. خرج مع والده على رأس قوة لمناوشة بلاد حلفاء ابن الديشر، وفي تلك الأثناء حاول كرابم مصالحة خصمه ولكن هذا رفض، فخرج كرابم بقواته وانضم للزيزع ووالده وطاردوا ابن الديشر. انتهت المهمة بتدخل والي الكرت وأوقف زحف القوات إلى الشمال، ولكنهم أذنوا لهم بالمطاردة في الجنوب. هنا عزم كرابم على احتلال كل دجن وتحرك بعشرة آلاف حتى اقترب من هدفه.. فتوقف وأذن للزيزع بأخذ ألف مقاتل ومهاجمة العاصمة واحتلالها. وهذا ما حصل، احتل الزيزع مكان ولادته. أما ابن الديشر فقد تراجع أمام قوات كرابم الكبيرة واستدرجهم إلى حافة الصحراء وكمن لهم في شباط/ فبراير ١٩٠١ ودارت الدوائر في السادس عشر على كرابم الذي خسر مقاتلين وعتاداً ولم يأخذ ابن الديشر أسرى، وتقدم إلى البلدات والنجوع التي تعاملت مع تقدم كرابم، فنكل بهم وقتل قادتهم، وبالطبع انسحب الزيزع من العاصمة قبل أن يصلها ابن الديشر، وعاد إلى مكان اللجوء يخطط مرة أخرى لجولة مقبلة في ظروف أنسب بعد أن جدد علاقته مع المدينة ومعالمها.

لم يتوقف ابن الديشر عن المطاردة العسكرية والسياسية، وأحاط

بحدود كرابم وحرك أبناء أخوي كرابم المغتالين ليطالبا الكرت بحكم آبائهم المسلوب من عمهم، فأرسل الباب العالي إنذاراً إلى كرابم وتحركت سفينة حربية إلى شواطئ بلاده التي أصبحت محاصرة. لكن هذا الثعلب أرسل عبر خليج الماء المالح يستنجد بالزيلجن فأرسلوا إليه سفينة حربية وصلت ميناءه خلال ثلاثة أيام، وقرر كرابم الهجوم المضاد، فتحرك بقواته جنوباً على مرأى من مياه الخليج، بينما مركب الزيلجن يبحر بمحاذاته وكأنه يقول للكرت وابن الديشر: أتريدون محاصرتي براً وبحراً، ها أنا جئتكم في البر والبحر بالقوات التي لا غالب لها. بالطبع لم تكن هناك حاجة لإطلاق مدافع المركب، لكن قبطانه أنزل بعض المدافع الرشاشة إلى كرابم وعلم بعض قروده كيف يستعملونها، وفي الليل أطلق المركب سهاماً نارية إلى السماء أدت مفعولها، فلاذت قرود ابن الديشر فراراً من الخوف عندما شاهدوا النار في كبد السماء. عاد ابن الديشر يفاوض الكرت كيف يتخلصون من كرابم، الذي بدوره وافق على مخطط جديد للزيزع لاحتلال عاصمة دجن مجدداً بينما قوات خصمهم متجمعة في الشمال، وهو يفاوض الكرت لأشهر على احتلال بلاد كرابم، والكرت في حيرة من أمرهم، إذ لا يريدون الاشتباك مع الزيلجن الذين أصبحوا حماة كرابم من البحر والزيزع يسعى لتأمينه من البر، وإضعاف عدوهم المشترك سعياً للتخلص منه.

تحولت المعارك إلى استنزاف دام أربع سنوات. فبعد شهر من احتلال الزيزع لعاصمة دجن للمرة الثانية خرج يغزو القبائل المؤيدة لخصمه، ويحرض القبائل المناصرة له على التوسع والنهب. وحدثت بعض مواجهات بين الزيزع وابن الديشر تراجع الأخير بعدها شمالاً حتى استقر رأيه على محاصرة كرابم مجدداً وانتهاز الفرصة لاحتلال بلاده والجلوس على مياه الخليج، وأيضاً لقطع الإمداد الذي يرسله كرابم

للزيزع. هنا استنجد الأول بمن كان يسميه، يا ولدي، وصار المستنجد القديم هو المنجد، وتحرك بقوات تصل إلى عشرة آلاف ودخل البلاد المستغيثة وضم جيشها بقيادة رباج بن كرابم وخرجا يطاردان قبائل وبلاد خصمهما. هجموا على قبيلة ريطم فأبادوها وغنموا أرزاقهم وأموالهم كلها. في هذه الأثناء كان ابن الديشر يتجه إلى عاصمتهم ويكره البدو في الطريق للانضمام إلى قواته. نام ليلته على مقربة من العاصمة ليهاجم على حين غرة في الصباح، ولكن أحد المكرهين هرب وأنذر سكان العاصمة، فخرج والد الزيزع على ابن الديشر وقواته وردوهم على أعقابهم. بعد أيام وصلت الأخبار إلى ابن الديشر أن الزيزع يستعد لغزو مدينة كبيرة تابعة له فتحرك إليه. لكن والد الزيزع أرسل سرايا دعم لولده وصارت هذه القوات تأسر قادة قبائل الخصوم وترسلهم إلى العاصمة.

حلت المجاعة والقحط سنة ١٩٠٣ فتوقف القتال نسبياً وكثف ابن الديشر مطالبه من الكرت بالدعم، ويبدو أنهم شعروا بخطر الزيزع، فأرسلوا أحد عشر طابوراً من الجند وأربعة عشر مدفعاً ثقيلاً استعملت في منتصف حزيران/يونيو ١٩٠٤ في معركة ضخمة حصدت تسعمئة من قوات الزيزع وألفاً من قوات الدولة العليا وخسرت القبائل التابعة لابن الديشر ثلاثمئة، وأصيب الزيزع بشظية في ذراعه قبل أن ينهزم مع بقية قواته، وتناهبت القبائل أرزاق وخيام بعضها بعضاً. كانت الخسائر متعادلة لكن العدو الجديد الذي ضرب الطرفين للمرة الأولى كان داء الكوليرا الذي حمله جند الدولة معهم ونشروه بين قوات ابن الديشر الذين عمموه على الآخرين.

لم تتوقف المعارك والغزوات منذ قرون في تلك المناطق حتى اغتنت بالنفط وسيطر الزيزع وأبناؤه من بعده على زمام الأمور بالأسلوب القديم ذاته، هدايا لمن يهتدي، والسيف لمن يبتغي، والخوف لمن قد

يفكر في الاعتراض. وقد ساعد على الهدوء وجود ما يكفي من الغنائم النفطية ليحصل العامة على ما يسد رمقهم والخاصة على ما يحتاجون، والأخص على ما لا يقدرون على إنفاقه. لكن معركة الزيزع وابن الديشر أخذت مناحي متشعبة مثل فشل محاولة الصلح التي عرضها الزيزع، فإذا بالبدو المساندين للطرفين ينسلون من الجبهات لرعي حلالهم مع بداية الربيع. تراجع ابن الديشر فهاجمه الزيزع وهو يظن أن الحرب قائمة، وأبيدت بقية جند الدولة وهرب ابن الديشر. حاول الزيزع اللحاق به لكن مقاتليه انشغلوا في جمع الغنائم لأيام عديدة، وأدت القسمة لكل واحد منهم ذهباً وجمالاً ما يعادل المئة وخمسين ليرة ذهبية وعشرين بعيراً. بعد عامين من المناوشات اقتنع ابن الديشر بضرورة قتل أو اغتيال الزيزع. أرسل إليه من يخبره بالمبارزة لكن الزيزع ضحك وقال: وهل يقاتل الحي الميت، إنه جنازة. هكذا تنكر هذا الجنازة (الميت) يوم الحادي عشر من نيسان/ إبريل ١٩٠٦ إثر مناورات كر وفر وتقدم إلى معسكر الزيزع ليقتله، إلا أن فرسه تعثرت بحبال الخيمة، فظن الطباخون أنه لص وقتلوه وهم لا يعرفون هوية الضحية.

العرق دساس

«جدتي وجدته أختان، وهو من أبناء العمومة، وقدم لي تأكيدات، كما أن أعرافنا ككل لا تتسامح مع من يغدر بالضيف، وهم أمنوني وانتقلوا إلى جوارنا، وأنا سأكون ضيفهم، وإحجامي عن الذهاب سيفهم كعلامة جبن.. لا خيار لدي سوى الذهاب». كان هذا الرأي قد حسم نقاشاً دار لأيام في القبيلة، الأغلبية لا تثق في كتب الدعوة والتأكيد بالأمان لأنهم يعرفون ماضي الغدر من أصحاب كتب الدعوة، بينما شيخ القبيلة الذي وقف على الحياد في صراعات السيطرة على الصحارى والنجوع لم ير مفراً من الاستجابة للدعوة التي أرسلها إليه الزيزع، الذي يعتبر نفسه الملك، وكتب فيها: «عليك الله وأمان الله». ووصلت دعوة تأكيد مشابهة من حاكم المنطقة المعين، ومن حمل الرسائل الممهورة بالتواقيع والأختام وشهد كتابتها شيوخ قبائل، هو ابن الحاكم، آمر المنطقة. لقد سبقت الدعوات بشهرين معركة حاسمة قادها الزيزع ضد الإخوان المتشددين الذين ثاروا على سلطته وأيدهم شيخان وقبيلتاهما من الكارهين لأطماع الزيزع وسياسته، لكن شيخ العجمان لم ينضم إلى تلك الثورة وقد شكره الزيزع في حينه على هذا الموقف.

«طالما أنك قد عزمت فتوكل، ولكن خذ معك بعض الحراس الأشداء».. قال أحد كبار السن في المجلس، «..لكن دعني أخبرك والحاضرين أن العرق دساس، والمذكورين ماضيهم يقطر بالغدر.. لن أتطرق إلى أفعالهم وأفعال آبائهم وأجدادهم التي تعرفها القبائل بصغيرها

وكبيرها، لكني سأقص عليكم كيف يكون العرق دساساً». قال العجوز وأنصت له كل من في المجلس من قرود متشابهة الشكل، ووزعت فناجين القهوة مرة أخرى:

سمع ملك في قديم الزمان منادياً في مدينته يقول: أنا سياسي وأحل المشكلات بين العشائر. طلب الملك إحضاره أمامه وسأله إذا كان سائساً أو سياسياً، فأكد القرد المنادي أنه سياسي. «عليك أن تسوس حصاني أو سأقتلك». قال الملك ورفض الاحتجاج وطلب تسليم القرد الحصان وإطعام السائس مرقة وأرزّاً، وقيل له من السائس السابق إن هذا حصان أصيل والملك يحبه وإن حصل له مكروه ستموت حتماً. بعد فترة قصيرة هرب القرد من الوظيفة ولكن قرود الملك وحراسه أمسكوا به وجلبوه. أصر الملك أن يعترف له السائس عن سبب الهروب: «هل حصاني مريض أو سيّئ؟» طلب القرد الأمان فأعُطي له، فقال: إن الحصان ليس أصيلاً. جن جنون الملك ولكن قبل قتل القرد طلب إحضار الوزير الذي أهداه الحصان واستجوبه. كانت النتيجة أن الحصان من أصل أصيل، لكن أمه ماتت بعد ولادته فأرضع من حليب بقرة. «وكيف عرفت أنه غير أصيل؟» سأل الملك القرد، فأخبره أن الحصان يأكل عن الأرض وينام ورأسه على الأرض، وهذه ليست من صفات الأصيل. استحسن الحضور ما يسمعون ووافقوا بهمهمات لمعرفتهم صفات الحصان الأصيل الذي لا يخفض رأسه، ويأكل في العادة من معلف أو مخلاة معلقة في رقبته.

«أطعموا السائس الدجاج واللحم وخذوه إلى زوجتي ليسوسها». قال الملك ورفض كل الاسترحام من القرد أن يعفيه من هذه المهمة، لكن من دون جدوى. أتقن السائس عمله لفترة حتى طلب منه الملك أن يُبدي رأيه في الزوجة، وأصر على سماع الحقيقة وهدد بالقتل. سمع الملك السائس يقول إنها تربية ملوك ولديها شرف ملوك، ولكنها ليست ابنة

ملوك. استهجن الملك ما يسمع وسجن السائس وذهب إلى الملك والد الزوجة وهدده بالذبح إذا لم يعترف بالحقيقة. جاء الاعتراف أن الابنة التي وعُد بها الملك ماتت في الصغر، وترافق ذلك مع حملة طرد الغجر من المنطقة، وعند تفقد المكان وجدوا طفلة صغيرة فأخذوها وتبناها الملك وزوجها إليه وكأنها ابنته. رجع الملك إلى بلاده وأمر بجلب القرد من سجنه وسأله كيف عرفت أنها ليست ابنة ملوك وهي منذ كان عمرها سنتين قد تربت عند ملوك وعاشت معهم حتى هذا العمر الذي هي فيه؟ قال السائس: مولاي قلت لك إنها تربية ملوك وكرم ملوك وشرف ملوك وأخلاق ملوك لكنها ليست ابنة ملوك لأن عندها غمزة بعينها تتغامز عندما تتكلم، وهذه من عادات الغجر يتغامزون عندما يتكلمون وهذه العادة عند الملكة، لذلك عرفت أنها ليست ابنة ملوك. قال الملك هذا القرد داهية! أطعموه خروفاً في الصباح وآخر عند الغداء وثالثاً عند العشاء «وتجلس هنا تسوسني!» هنا اضطربت فرائص القرد واحتار كيف يخلص نفسه من هذا المطب، وحاول وتوسل لكن بلا فائدة. هرب القرد من ليلتها، فجلبه الملك وقال له على ما يبدو أني مكشوف لك! قال السائس له من قال لك إنك ابن ملك؟ اذهب وابحث عن أصلك. فذهب الملك إلى أمه وقال لها أنا ابن من؟ اليوم أريد أن أعرف، فقالت له أمه: كان أبوك قرداً جباراً ظالماً ولا يُنجب، يتزوج الزناءة بعد الأخرى. وبعد تسعة أشهر إذا لم تلد يذبحها، وعلى هذا المنوال قضى على نصف زناءات البلدة حتى وصل الأمر لي، فماذا عليّ أن أفعل، إما أن ألد وإمّا يذبحني، وكان في القصر طباخ. أنت ابنه! أتى الملك إلى السائس وسأله أنت كيف عرفتني؟ قال له:

«معروف أنت يا مولاي، الملك عندما يعطي ويهب يعطي ذهباً وفضّة، أما أنت فتعطي مرقاً وأرزّاً ولحماً ودجاجاً. الذي يرافق الطباخ

ماذا ينال منه عندما يرضى؟ طعاماً، وعندما يغضب يقطع الطعام». همهم المستمعون بالاستحسان، وأعاد العجوز التذكير بغدر آباء وأجداد أصحاب الدعوة لشيخ القبيلة وغدرهم هم بالذات قبل ثلاث سنوات، بضيف أسروه بعد أن أكل ملحهم وشرب قهوتهم.

في الصباح ركب شيخ العجمان مع اثني عشر قرداً فارساً، وتركوا خلفهم حوالى ألفين في المضارب قرب آبار العوينا حيث اقترب أيضاً قبل أيام فهد بن عبد الله مع خمسمئة مقاتل من جند المدن التابعين لوالده، ورافقه أخوه وقرود من البدو الأنصار وأقاموا خيامهم. أُرسلت الدعوات منه ومن والده ومن زعيمهم الزيزع إلى شيخ العجمان. كانت القبائل تعرف السمعة السيئة لفهد هذا، فقد اعتقل قبل ثلاث سنوات ضيفاً وكبله وأرسله إلى الزيزع مما أغضب الجميع. ولهذا كانت شكوك العجمان، ولكن شيخهم صدق ما جاء في رسالة الدعوة: ألست أخي؟ ألا يجري في كلينا الدم الحثلاني؟ وذلك في إشارة إلى جداتهما العجمانيات الأخوات. هكذا اعتبر الشيخ أن لديه أماناً من ملك وحاكم وابن الحاكم.

اقترب الشيخ وفريقه من المضارب، فخرج فهد وبعض قروده واستقبلوا الزوار بما يليق بهم، تقبيل وترحيب، وسارا معاً إلى الخيمة يداً بيد كالإخوة بالفعل. جلسوا وشربوا القهوة في خيمة فهد الذي اقترح على الشيخ زيارة خيمة أخيه ليرحب بهم هو الآخر، وهذا ما حدث، فشربوا المزيد من القهوة حتى استأذن الشيخ ولكنه فوجئ بالأخوين يمسكان به، ثم اندفع قرودهما إلى الخيمة وكتفوا الاثني عشر وشيخهم ما عدا واحداً تمكن من الإفلات وقفز على حصانه وانطلق. صار الشيخ يستنكر ما يحدث ويذكر الأخوين بعادات القبائل وهما يضحكان ويمدحان نفسيهما على ذكاء الخطة لاعتقال الشيخ تمهيداً لإرساله إلى الزيزع الذي كلفهم بهذه المهمة. طالب الشيخ مكبليه بورقة وقلم ليكتب عبر

سكرتيره رسالة إلى ربعه بانتظار حل سلمي لهذه المشكلة حتى لا يقع القتال، لكن فهداً استخف بالشيخ الذي حذره بالقول: دعني أكتب لابن عمي مازح أنني بأمان، وإلا يا فهد فكما تثق الآن بأنك ترى الشمس تغيب، فإني أثق بدوري بأنك والقوى المسلحة التي معك سوف لن تراها تشرق مرة أخرى. قهقه فهد ورفض الطلب، واستقدم جلاده، ابن منصور، وأمره: إذا هاجم العجمان المضارب وخرجت أنا للقتال فعليك ذبح الشيخ والأسرى الأحد عشر. في هذا الوقت وصل الثاني عشر إلى مضارب العجمان مولولاً: لقد قبضوا على سيدي، لقد قيدوا الشيخ غدراً. أكمل قصته وهو ينهج وانطلقت صرخات العجمان المريرة إلى السماء وساد الارتباك، صراخ قبيلة فقدت رئيسها ووجدت ذاتها في أزمة.. مزقت الإناث ملابسهن وخلعن الخمار وأطلقن شعورهن وانطلقن في المخيم وهن يحرضن الأزواج والأبناء على إنقاذ الشيخ والأخذ بالثأر. غابت الشمس وتمالك مازح الأمر ودعاهم للهدوء ووضع خطة لهجوم فوري ليلي صامت لإنقاذ الشيخ وقتل كل الباقين بالخناجر والسيوف فقط. قال لهم، وأضاف: تهاجم قوتان من اليسار واليمين وسأقوم مع نخبة بمداهمة خيمة فهد لإنقاذ الشيخ، يا أبناء عجمان، يا أبناء يام، لا رحمة لفهد أو لمرتزقته.

تجمع ألف وخمسمئة محارب انسلوا بهدوء، بعضهم على الخيل والنوق وآخرون سيراً على الأقدام ليقطعوا ٢٢ كيلومتراً. عندما عم الظلام في المضارب أشعلت الإناث آلاف شجيرات العرفج التي تشكلت مثل مشاعل وتحول الليل إلى نهار وهن يصرخن على قرودهن ألا يعودوا بدون الشيخ. وصل الشعاع إلى مضارب فهد وأخبره بعض العجمان الذين معه أن النساء أشعلن النار، وهذا متعارف عليه للأزواج ألا يعودوا إليهن خائبين بأي حال، ونصحوا فهد بالانهزام: طر يا فهد، طر، فالعجمان لن

يوقفهم شيء. أنصار فهد البدو، وبعد أن عرفوا بفعلته بالضيف، انسلوا من حوله. عادت خيول الاستطلاع إلى فهد بدون فرسانها، ركب فهد ليهرب لكن العاصفة السوداء وصلته، وبدأت الإبادة. فريق الإنقاذ أخذ بالصراخ: أين أنت يا شيخ أرنا مكانك نحن الإنقاذ. من خيمة خلف خيمة فهد سُمع صوت الشيخ يتحشرج: ها أنا هنا يا أولادي، أسرعوا.. وصلوه مذبوحاً. أمسك أحدهم بفرس فهد وأعطاه رصاصة بين عينيه وجرده من سيفه الذهبي ومسدسه وخنجره ليكسب شرف الانتقام.

تحققت نبؤة الشيخ بمقتل فهد ومسلحيه، أربعمئة وخمسون قتيلاً لم يروا شمس اليوم التالي تشرق عليهم. أخو فهد هرب ودخل خيمة أحد العجمان طلباً للأمان، ولم يعتدي المنتقمون عليه، واحترموا إعطاء قريبهم للغادر الأمان. (لكن التاريخ سيثبت بعد ست سنوات أن المُجار كرر الخيانة ضد المُجير وترك الزيزع يقتله من دون أن يشفع له بكلمة).

عاد المنتقمون إلى مضاربهم لينقلوا النبأ السيئ: لقد فشلوا في إنقاذ الشيخ، لكنهم نفذوا انتقاماً لن يُنسى. وبسبب تلك الخيانة وخلال أقل من شهر استقر رأي مازح وقبيلته كلها على الانضمام إلى الثورة ضد الزيزع بن دوعس الذي بدأ بدوره يتحالف مع الزيلجن ضد الكرت وضد القبائل المحلية المعارضة ليؤكد تحكمه بكل الجزيرة، أكد للزيلجن الاستجابة لما يريدون، وطلب منهم نفي منافسه على الزعامة من أرض الإسراء إلى جزيرة يستعمرونها في البحر، ومنحوه راتباً شهرياً ليمول جيشه ومرتزقته، وأكدوا له حماية الأسطول، وأعطوه بضع طائرات وأمنوا له طيارين مرتزقة.. وبالطبع استجاب لرغبتهم بإقامة وطن قومي للجمود في أرض المعراج.

قضى مازح بقية عمره حاملاً رسائل الأمان التي قدمها الملك والحاكم وابن الحاكم للشيخ الذي لم يناصر الثورة ضدهم.. رسائل

أصبحت ملطخة بدم الشيخ الذبيح إذ حملها معه إلى ذلك اللقاء. أما عجوز العجمان فلم يمل ذكراً وتذكيراً «أن العرق دساس».

للقصة بقية: كان مازح شيخاً، وله ابنتان، هحضو وأحقش، الأولى تزوجت عم الملك وأنجبت دوعس الذي تزوج أخت الملك الأشهر والتي كانت تحرض أخيها منذ الصبا على الغزو واستعادة ملك الأجداد، ففعل. والثانية، أحقش، تزوجت شيخاً يتبع للملك، وأنجبت له فيصل الذي فتح للملك لاحقاً المدينة ثم قاد الثورة ضد الملك فوقعت معركة في آخر يوم من آذار/ مارس ١٩٢٩ وقبُض عليه وأعدم وذلك قبل شهرين من عملية الغدر بالشيخ العجماني التي انتهت بتزعم مازح والد الأختين للقبيلة.

المختار والزيزع

«أحضروا رمع المختار مكبلاً بالحديد إلى المحكمة يحيط به الحراس وكأنهم خائفون أن يرتقي من بينهم إلى سماء البشر والخيرين».. كان المتحدث رحالة أجنبياً حضر المحاكمة قبل خمسة شهور ويتوجه بحديثه إلى عبد الزيزع، الذي يسعى ليصبح ملكاً معترفاً به من قبل زعماء القرود الأجانب، ولذلك يقابل الرحالة والزوار الأجانب ويستمع منهم إلى ما يعرفون. «..أحضروا مترجماً رسمياً من أهل البلاد يتقن لغة المحتلين النايلط. بدأ القاضي الاستجواب فتأثر المترجم وارتبك، فأحضروا من يعرف اللغتين وكان من الجمود الحاضرين في المحكمة. كان المختار شيخاً كبيراً منهكاً ومكبلاً بالسلاسل ولكنه مطمئن وصريح ويصحح للمحكمة بعض الوقائع دون إخفاء شيء، وكان لحديثه تأثير في الجميع. طالب المدعي القضاة أن يحكموا بشنق المختار». كانت أخبار مقاومة المختار للمستعمرين تصل إلى قلب الصحراء ويعرف الأمير الزيزع أنهم أسروه وحاكموه وشنقوه، ولكنه لم يكن يعرف التفاصيل.. فاستمع مع الآخرين بدون مقاطعة. «جاء دور المحامي، وهو ضابط شاب من المحتلين ولكنه تأثر بالمشهد، فطالب بتخفيف الإعدام إلى الحكم المؤبد، ولكن المدعي العام قاطعه، فاحتج المحامي وأخذ من القاضي حق الحديث فقال: إنَّ هذا المُتهم الذي انتدبت للدفاع عنه إنما يُدافع عن حقيقة كلّنا نعرفها، وهي الوطن الذي طالما ضحينا نحن في سبيل تحريره، إنَّ هذا الرجل هو ابن لهذه الأرض قبل أن تطأها أقدامكم، وهو يعتبر كل

من احتلها عنوة عدواً له، ومن حقه أن يُقاومه بكل ما يملك من قوَّة، حتى يُخرجه منها أو يهلك دونها، إن هذا حق منحته إياه الطبيعة والإنسانية.. إنَّ العدالة الحقة لا تخضع للغوغاء وإني آمل أن تحذروا حكم التاريخ، فهو لا يرحم، إنَّ عجلته تدور وتسجّل ما يحدث في هذا العالم المضطرب.. وهنا كثر الضجيج ضدَّ المحامي ودفاعه، لكنه استمر بالكلام والدفاع عن المختار، فقام النائب العام ليحتج، فقاطعه القاضي برفع الجلسة للمداولة، وبعد مضي فترة قصيرة من الانتظار دخل القاضي والمستشاران والمدعي العام بينما المحامي لم يحضر لتلاوة الحكم القاضي بإعدام المختار شنقًا حتى الموت، وعندما تُرجم الحكم إلى المختار اكتفى بالقول: إن الحكم إلّا لله.. لا لحكمكم المُزيَّف.. إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون».

«عليه الرحمة».. قال من يجلس على مسافة من يمين الأمير، وتمتم الحضور بالترحم، ثم سُئل الرحالة قبل أن يواصل سرده للأحداث: «وهل أنجب المختار؟» أومأ الأمير برأسه مؤيداً ومنتظراً الإجابة، فأخبرهم الرحالة أنه تزوج سبعاً ولكن لم يزد عدد من في ذمته عن واحدة، تموت واحدة فيتزوج أختها أو غيرها، وإحداهن قتلت في غارة جوية، وهي قبل الأخيرة وكانت ترفع له باب الخيمة عندما يعود حتى لا يثني رأسه أمام أحد إلا خالقه، وبعدما استشهدت تزوج أختها. «وعدد الأبناء من هذه الزيجات؟» عاد القرد يسأل وقد شعر الجميع ببعض التوتر لأن كلاً منهم أصبح يقارن أميرهم بالشيخ المختار.. أبلغهم الضيف أنه أنجب أربع أناث وثلاثة ذكور.

«الشيخ يكبرني بثمانية عشر عاماً، وأعتقد أن عمره كان ثلاثة وسبعين في العام الماضي حين شنقوه، عليهم اللعنة». قال الأمير ليسمعه الجميع، وحاول تذكر عدد زوجاته، فظن أنهن أكثر من مئتين، معظمهن تزوجهن أثناء تنقلاته ليلة أو اثنتين، ويسرحهن، ولم ير وجه الكثير

منهن، فكل عذراء بدوية لا تظهر وجهها للعريس في ليلة الزفاف حسب التقاليد السائدة، فإذا تحرك الأمير قبل اليوم التالي فلا يرى وجهها. رفع الأمير نظارته الشمسية عن وجهه فشاهد الرحالة إيماءة من العين المبصرة بمواصلة الحديث.

«اعتقلوه يوم ١١ أيلول/ سبتمبر ١٩٣١ وفي يوم الأربعاء السادس عشر شنقوه، كانت المشنقة والحكم جاهزين سلفاً. حضر ممثلون عن أقسام جيش الاحتلال، لرفع معنوياتهم برؤية خصمهم العنيد مشنوقاً، وأحضروا ٢٠ ألفاً من الأهالي وجميع المُعتقلين السياسيين خصيصاً من أماكن مختلفة في البلاد لمشاهدة تنفيذ الحكم في قائدهم وبث الرعب بينهم. وأُحضر المُختار مُكبَّل اليدين، وفي تمام الساعة التاسعة صباحاً سُلِّم إلى الجلّاد، وبمجرد وصوله إلى موقع المشنقة أخذت الطائرات تحلق في الفضاء فوق ساحة الإعدام على انخفاض، وبصوت مدوّ لمنع الأهالي من الاستماع إلى زعيمهم المختار إذا تحدث إليهم أو قال كلاماً يسمعونه، لكنه لم ينبس بكلمة، وسار إلى منصة الإعدام وهو يؤذن بصوت مسموع فقط لمن حوله. سبقت إلاعدام أوامر شديدة الحزم بتعذيب وضرب كل من يبدي الحزن أو يظهر البكاء عند تنفيذ الحكم، وضربوا ضرباً مبرحاً من بكى. ولكن علت أصوات الاحتجاج ولم تكبحها سياط المستعمر بعد أن صرخت فاطمة داروها العباريَّة وندبت فجيعة الوطن عندما علا المختار مشنوقًا، ووصفتها صحف النايلط بالتي كسرت جدار الصمت».

«ألم يجد المختار صيغة للتعايش والسلام مع الأجانب ويحولهم من خصوم إلى أنصار يستفاد منهم؟» سأل الذي يجلس على مسافة من يسار الأمير بعد صمت وترحم وتأثر من الجالسين على الرمال أمام القصر الطيني يحتسون القهوة المرة بين الحين والآخر. كان سؤالاً بريئاً لم يفهمه بشكل مختلف سوى الضيف الذي كان يعرف مساعي الأمير لقبض المال

والتأييد السياسي والدعم العسكري من القرود الزرق والشقر ليتصدى بهذا الدعم لقبائل القرود الأخرى التي كانت تحكم المنطقة وتنازعه الآن السلطة والزعامة، ويحصلون أيضاً على دعم من تلك القرود التي تسعى للسيطرة عبر التفرقة وبث الضغينة بين أهل البلاد ثم ينضمون في اللحظة المناسبة للمنتصر المنهك فيحكمون السيطرة عليه ويضمنون ولاءه.

«على النقيض».. أجاب الرحالة وأكمل، منتقياً كلماته بعناية حتى لا يُساء الظن في مقاصده: «عقد المختار منذ توليه الزعامة قبل عشر سنوات، عقد مع النايلط اجتماعات عدة. عرضوا عليه دعمه ليتزعم وأن يقروا له بسلطات محلية، وبالطبع أخبروه صراحة بإمكانية قبض راتب شهري مغر وبيت كبير إذا أراد التقاعد، وقالوا له حتى مقاتليه يمكن ترتيبهم ضمن الشرطة والجيش المحلي في معسكرات على الأطراف.. لكنه كان يرفض. دعوني أقرأ عليكم ما سجلته مما سمعته في هذا الشأن. أراد الرحالة تجنب الإحراج وفضل قول ما يريد وكأنه منقول من مصادر موثقة.

«في صباح يوم المحاكمة أحضروا المختار إلى مكتب قائد المنطقة الذي كان يحاول عقد صفقة مع المعتقل». قرأ الرحالة من أوراق أخرجها من حقيبته، وأكمل: «القائد: لماذا حاربت بشدَّة متواصلة الحكومة الفاشيَّة؟ أجاب المختار: من أجل ديني ووطني. القائد: ما الذي كان في اعتقادك الوصول إليه؟ فأجاب المختار: لا شيء إلَّا طردكم لأنكم مغتصبون، أما الحرب فهي فرضٌ علينا وما النصر إلا من عند الله. القائد: لما لك من نفوذ وجاه، في كم يوم يمكنك أن تأمر الثوار بأن يخضعوا لحكمنا ويسلموا أسلحتهم؟ فأجاب المختار: لا يُمكنني أن أعمل أي شيء وبدون جدوى نحن الثوار سبق أن أقسمنا أن نموت كلَّنا الواحد بعد الآخر، ولا نسلّم أو نُلقي السلاح. لقد كتب القائد فيما بعد عن هذه

المقابلة أن العجوز كان هادئاً وتخيل للقائد أنه يرى هالة من النور حول وجه المختار، بينما بقيت شفتا القائد ترتعشان بعد أن أرسله للمحكمة». طوى الرحالة أوراقه ووضعها تحت ركبته إذ تزامنت نسمة هواء مع تقديم فنجانٍ آخر من القهوة.

«وهل ماتوا الواحد بعد الآخر طوال الشهور الماضية؟» جاء السؤال من جالس بالقرب من الرحالة وكان ينظر إلى الأمير عندما طرح استفساره.

«غادرت تلك البلاد بعد الإعدام بوقت قليل، لكن مما طالعته في الصحف وسمعته في الطريق أثناء رحلتي إلى بلادكم، أن المقاومة تلاشت بالفعل.. ربما هم يعيدون ترتيب أوراقهم والتوافق على قيادة جديدة». توقف عن الحديث ثم استقر رأيه بسرعة أن لا ينهي روايته بالتسليم بقوة الطغيان، فأضاف: «شخصياً أعتقد أن شدة الدمار والظلم الذي مارسه النايلط، وما فعلوه في المختار لن يؤدي بحال إلى استقرار وضعهم هناك والاحتفاظ بالأجزاء الساحلية التي ضموها إلى بلادهم. أجلاً أو عاجلاً سيخرجون وبخسارة».

خطر للأمير معرفة سبب تعلق النايلط بتلك البلاد الرملية قليلة السكان، وإذا كانوا اكتشفوا فيها الزفت الأسود كما هو الحال في بلاده. لم يذكر الزفت بشكل مباشر في حديثه، ولم يتطرق الرحالة إلى هذه الناحية الاقتصادية في أجابته، بل قال ما معناه: إذا استتب الأمر للنايلط وأصبح الساحل جزءاً من بلادهم فسوف يسيطرون رسمياً وبالقانون على الممر المائي البحري بين سواحلهم القديمة والأخرى الجديدة المحتلة، وستعود لهم الخيرات البحرية هناك، وهم يتبعون تاريخ بلادهم القديم، إذ سيطر أجدادهم لقرون على كل سواحل البحر المتوسط. وبعد وهلة صمت أضاف: «سموكم يعرف أن الدول الشمالية قد اتفقت على توزيع الإرث الكرتي فيما بينها، ووضعت الحدود واحتلت ما استطاعت حسب

الاتفاق ولم تتفق بعد، وتلك البلاد كانت من نصيب النايلط، وما يجاورها من الغرب والجنوب أخذه الفرنجة.. وسموكم يعرف بقية القسمة». كان الأمير يوافق على ما يسمع بهز رأسه محاولاً إخفاء بسمة شماتة.

استجاب الرحالة لسؤال من الحضور، كيف تم القبض على المختار، لكن الأمير سرح بأفكاره. هو يعرف تماماً المؤامرة الغربية، وعرف كيف يستفيد منها. لم يكن يعنيه أن يستمر حكم الكرت في الإمارات والأنجاد المترامية، بل استجاب للمؤامرة بإضعاف الكرت مقابل أن يمنحه خصومهم الدعم المادي والعسكري والسياسي لتوحيد أكبر جزء ممكن تحت حكمه، واستعد لهم بعدم اعتراض منح الجمود وطناً يقطنونه، طالما أنه خارج جغرافية ما يسعى إليه، ووقع معهم على ذلك قبل عشر سنوات، وفي المقابل أخرجوا منافسه من البلاد ورحلوه إلى المنفى، ومنحوا أحد أبناء المنفي أرضاً محيطة بأرض الجمود الموعودة وذلك في مقابل تعهده أيضاً بالقبول والحماية، أي أصبحت هذه إمارات في طريقها لتصبح دولاً ذات وظائف محددة ومتفق عليها بين الزعماء وبين صانعيهم.. هكذا وبدل مقاومة الأجانب والاقتتال معهم، تحول الحال إلى مقاومة المقاومين للمؤامرات بدعم من المتآمرين. انتشى الأمير قليلاً وهو يستعيد ذكرى توقيع أول معاهدة استخراج للزفت من قبل شركة تابعة لأقوى بلاد الكوكب والتي تنافس الآن القرود الزرق.. حتى في هذا المجال جعلتهم يتنافسون على الوسخ الذي في أرض هذه البلاد، ويدفعون لي ثمنه مالاً ودعماً وتقبلاً لحكمي الذي أريده.

أفاق الأمير على انتهاء الرحالة من رواية كيف وشى الخونة بالمختار وسقطت فرسه بالرصاص عندما كان يزور ضريح أحد الأولياء، وانتقال الحديث إلى أصول المختار التي سجلها الضيف عن شيوخ المنطقة بعد إعدام زعيمهم. استمع الجلوس إلى الأسماء تتوالى حتى وصل النسب

إلى شيرق، ورفع الأمير حاجبيه حين سمع بذلك، وأن أصول المختار تعود إلى هذه الأرض التي يحكمها ويسعى للتوسع في حكم أطرافها، ونفض الأفكار التي راودته للمقارنة مع أصوله التي لا تمتد هنا أبعد من مئتيي عام، حين حضر الجد الأول من بلاد النهرين، فأكثر من الزيجات وتزويج الأبناء والتوسع في الجيرة بدعم ديني متشدد ظاهرياً، وأصبح ذلك نهجاً لا يزال قائماً حتى تصبغ كل البلاد بدم العائلة وشكلها. «لدي الآن تسعة عشر من الأبناء الذكور، وما زلت شاباً بعمر خمسة وخمسين، وبوسعي إنجاب العشرات من مئتي زوجة أخرى، وسيكون لي آلاف الأحفاد من الأبناء الرسميين.. سنرى كم سيكون للمختار ومن سيتبع طريقه تلك». حادث نفسه بذلك، وتنبه لاقتراب غياب الشمس، فطلب تقديم الطعام لترى القرود ماذا تأكل قبل حلول الظلام.

أنوار ومشاعل

«.. يعني يمكن القول أنه لولا وجود جدتي وهمتها لما وجدت المملكة كما هي الآن. فهي التي شدت من همة أخيها اللاجئ ليعود ويغزو أرض الوطن ويحتلها، وأرشدته في طريق كفاحه ليصبح ملكاً، وأراحته من شؤون القصر ومشكلاته».. أفاقت الزناءة الشابة من الذهول متسائلة عن التفاصيل، لكن أمها واصلت الاندفاع ووجهها ينضح بالفخر: «.. وحين تزوجت جدتي جدي، ابن عمها، حكمت قراراته السياسية والحربية وحافظت عليه، قدر الإمكان، إلى جانب أخيها الزيزع حين ثار بقية أبناء العم وأرادوا الاستيلاء على الحكم. عندما ماتت الجدة زوج الملك ابنته إلى ابن عمه لتواصل دور أخته، لكن الأمور السياسية كانت مستتبة، وقد اختلى جدي بجدي على فراش الموت لساعتين ولم يعرف أحد ما دار بينهما، ولكن يبدو أن جدي لأبي أخذ تعهدات من ابن عمه ألّا يغدر بأبنائه الذين سيرثونه، وأن يدعم ولي العهد. لم يعد جدي يفكر في الحكم بعد موت ابن عمه الزيزع ولكنه تمرد على حياته الجنسية فتزوج إحدى عشرة زناءة خلال فترة قصيرة حتى مات».

«جدتك هذه جبارة، حكمت زوجها في عنفوان شبابه وتمرد في شيخوخته بعد مماتها».. قالت الأميرة الصغيرة وقفزت من التساؤلات التي كانت تدور في ذهنها عن تفاصيل نشاط جدة أمها ودورها، إلى سؤال: «لماذا يُكثر أقاربنا من الزوجات، ولا يكفيهم تعددهن، بل يُطلقون ليكثروا من تجاربهم؟»

«الأسباب كثيرة».. أجابت ابنة الملك وزوجة دكتور في شؤون الإدارة، وأضافت: «.. يعتبرون النكح دليل فحولة وقوة جسدية، ويدعون أن غايتهم إنجاب القرود وتقوية القبيلة، ويقولون إنهم يفعلون ذلك بالحلال أفضل من الاحتفاظ بزوجة واحدة وممارسة الحرام لإرضاء رغباتهم، وهناك من يفلسف الأمر بأن الزناءات حين يُطلقن يعُدن للزواج والإنجاب من قرد آخر، وغالباً ما يكون أميراً من العائلة أيضاً». رفعت الزناءة الشابة حاجبيها وأظهرت ابتسامة تعرف الأم تفسيرها.

«لكن أبي لم يتزوج غيرك للآن، أليس فحلاً، أم أن تطورات الحياة والزمان وصلت إلى بيوتنا؟».

«على الأغلب أنه يفعلها في الحرام، لأني أخبرته منذ يومنا الأول لا أريد ضرة في البيت أو خارجه وافعل ما تريد طالما أنني لا أعلم. كانت هذه الطريقة الوحيدة لإثبات نفسي والحفاظ على كرامتي، كما فعلت جدتي، وما فشلت فيه أمي، فقد تزوج أبي ما مجموعه سبع زناءات. لا تنسي أيضاً أنني ابنة ملك». غابت عيناها في تأمل وجه ابنتها ومسحت بيدها على شعرها الأسود وأكملت: «إنهم يفضلونهن صغيرات». عادت إلى الصمت وكأنها تتذكر شيئاً: «جدي الكبير يكون ابن هحضو بنت مازح، وتزوج بعد موت جدتي إحدى حفيدات مازح وكانت زوجته السابعة». نظرتا بعضهما إلى بعض وقد رفعت الأم حاجبها وأسقطت الابنة فكها. كان مثل هذا الحديث يتكرر بينهما في الفترة الأخيرة على أمل شحذ همة الصغيرة، ودعمها بالروح القتالية والمثال الحسن لما يمكن عمله في تربية القرود الأزواج. «عموماً هذه الظاهرة في تراجع، الملك المؤسس تزوج حوالى أربعمئة، وعمي الذي تبعه في الحكم تزوج أربعاً وأربعين وأنجب مئة وخمسة عشر، بعضهم مجهولو الأم. والآن، كما ترين، فإن أعداد الزوجات في تناقص، وإن كانت الأفكار في رؤوس

القرود لم تتغير كثيراً».

«لو أصبحنا مثل جدتك لغيرنا الحال إلى الأفضل».

«كانت الجدة مميزة في ظروف فريدة، وهذا ما منحها القوة والمناعة والاحترام. وكانت أمي دوماً تحدثنا عن ذكائها وشجاعتها وبعد نظرها. جدتك أنت أيضاً لم تكن قليلة الشأن، كانت الزوجة رقم خمسة لوالدي الملك، ولذلك لم يكن بوسعها التأثير في عدد الزوجات اللواتي سبقن والأخريات اللواتي لحقن، ولكنها كانت تسافر إلى الخارج في أواسط الستينيات بكامل حشمتها وغطاء أسود لوجهها وتأخذني معها، وعملت بصمت في المجال الخيري ودعمت تعليم الزناءات وأسست لهن مدارس حديثة هنا في البلاد. جدتي وجدتك، كل منهما عملت ضمن ظروفها، وقدر استطاعتها. كان الملك المؤسس أخو جدتي ينتخي ويفخر بها في المعارك والمواقف الصعبة فيقول: أنا أخو هرون.. كانت تلك أيام صعبة ولكنها حلوة، كما حدثتني أمي نقلاً عن جدتي». مسحت الأم دمعة من عينيها فاغرورقت عينا ابنتها، وانتظرت لسماع أي من الذكريات هي التي أشجنت أمها.

«عندما وقف جدي لأمي مع جدي لأبي بدعم من جدتي، تم تعزيز السلطنة وتوسيع حدودها وتحولها إلى المملكة، وانهزم المتآمرون الأعمام الذين انضموا إلى الإخوان المعارضين باسم الدين آنذاك. لكن التآمر لم ينتهِ كما تعرفين، فقد اغتالوا، بعد أربعة عقود، والدي الملك لأنه قطع النفط في السبعينيات تأييداً لإخوته في الحروب ضد الجمود وأنصارهم.. أقنع الزيلجن أحد أفراد العائلة بإطلاق النار على أبي، وروجوا أنها عملية اغتيال لأسباب عائلية. وفي أيام جدي كانوا يحركون القبائل والقوى الدينية ضده إذا شعروا أنه يريد الخروج عن إرادتهم ومخططاتهم، فأصبح يتحالف مع الزيلجن مضطراً للقضاء على خصومه

القريبين والبعيدين». كانت الابنة تهز رأسها بالموافقة لأمها حفيدة ابني العم المتخاصمين المتصالحين المتصاهرين، لكنها كانت تتصيد معلومات بعيدة عن العمومية.

«لا أدري أين سمعت أن جدتك وجدك، كانا على علاقة حب ويتشاعران بعضهما ببعض بالرغم من معارضة جدك المؤسس، هل أخبرتك أمك أي شيء عن أمها؟».

«تأييد الجدين لبعضهما بفضل جدتي لا يعني أنهما كانا سمناً على عسل طوال الوقت. فزوج جدتي يكبر ابن عمه سناً وبالطبع له مطامع في الحكم العائلي وحكم البلد، لكن أخا جدتي هو الذي قاد المعارك، وحول هروب والده والعائلة وتشتتها في اللجوء، إلى نصر، وبالتالي رأى في نفسه القائد والأمير ثم السلطان، وتحالف مع الزيلجن ضد الثوار فأصبح الملك. هكذا تحرك خصومه وحرضوا المتخلفين من الإخوان على الثورة، وأطمعوا زوج أخته بالرئاسة فانحاز إليهم ردهة من الزمن هي التي شهدت غراميات بين الجدة التي كانت في مضارب أخيها، وبين زوجها الذي كان محرماً عليه الاقتراب العلني، فقيل إنه كان يأتيها سراً حتى انهزم وجماعته وعاد إلى طاعة زوجته وأخيها وبقي على ذلك حتى مماته الذي جاء بعد موتها وموت أخيها، فورث عمي الحكم عن والده، ومن بعده والدي». توقعت الأم من ابنتها سؤالاً حول كيفيه انقلاب العائلة على الملك الثاني وتولية والدها ملكاً ثالثاً، ولكن الأم رأت في عينَيْ ابنتها التشوق لتفاصيل قصة الحب بين الأجداد، فاعترفت لها بعدم معرفتها بالتفاصيل، وأن ما يعرفه أبناء الجيل الجديد بفضل سبل البحث المتاحة لم يكن متوافراً لجيلها وحسمت: «أمي لم تخبرني عن قصص غرام أمها وأبيها، لكنه بالفعل خرج عن قرار ابن عمه لفترة وحاربه وانهزم وتاب وعاد لأمي وأمها وأخيها، وأمي تزوجت ابن عمها الذي أصبح ملكاً، بينما

أخوها وأختها وبقية أبناء وبنات أبيها من الزوجات الأخريات يتمتعون وأحفادهم من بعدهم بحقوق الأمراء كاملة مثل آلاف غيرهم. ولحسن حظ جدي وحظنا جميعاً أنه تاب عن التمرد وعاد إلى جدي وإلى زوجته، لأن الزيلجن أمسكوا بقائد التمرد الآخر حين التجأ إليهم في الشمال، وجلبوه في طائرة وسلموه إلى جدي ذليلاً».

«لو لم يتب ويعود لما أنجب أمك ولما وجدنا أيضاً، أو لكنا من المغضوب عليهم.. لكن لنبقى في سيرة جدتك الخاصة، فغير ذلك يوجد في الكتب سواء المؤيدة أو المعارضة». قالت الابنة مع بعض اندهاش من أمها التي لم تكن تعرف اطلاع ابنتها على كتب وآراء معارضة للرواية الرسمية.

«نعم.. جدتي هي الأخت الكبرى لشقيقها وشقيقاتها، كانت تكبره بعام واحد. ربما تعرفين، من تلك الكتب، أن والد جدتي فشل في الحفاظ على عاصمة الإمارة وانهزم عسكرياً أمام ابن الديشر الذي فرض هيبته على القبائل، فلم تجد الجدة وأبوها وأخوها وأهلها من يأويهم. كان عمرها أحد عشر عاماً حين هاموا في الصحراء، وتقدموا بطلبات لجوء لشيوخ مشيخات صغيرة، ولكن هؤلاء استجابوا حيناً وخافوا أيضاً وكان عليهم أخذ الإذن من أسيادهم حتى وافق الكرت على إجارتهم لدى كرابم الحابص ومنحوهم راتباً شهرياً. كان الكرت يكرهون في السر ابن الديشر عميل الزيلجن، والفيرش، إمام بلاد الإسراء، الذي كان يتقرب أيضاً من الزيلجن سعياً لمساعدته في حكم كل بلاد الكرت، وقد حارب مع الزيلجن.. لذلك أجاروا أهل جدتي تحوطاً لأحداث مستقبلية. في فترة اللجوء تلك، حمست جدتي أخاها بشكل دائم على غزو بلادنا واستعادة الحكم. فشل في جولة أولى ولكنها لم تكف عن تشجيعه والقول: قد تفشل مرة وثانية ولكن التالية ستنجح. وكلما تناولوا طعاماً أو تمراً تذكره

بطعام البلاد وتمرها، دجن، حتى استعد للغزوة الحاسمة فوضعت معه خطة الهجوم على القصر وأبلغته بوجود أخته في الرضاعة هناك وهي زوجة الحاكم».

«لم أكن أعرف أنها خططت معه تلك الحادثة الفاصلة». قالت الأميرة الشابة، التي طالعت الكثير من مذكرات المعاصرين عن تفاصيل تلك المعركة:

كانت المحاولات الأولى للغزو وتجميع مقاتلين من القبائل قابلت احتجاجاً من الكرت فعارضها الشيخ المعزب ووالد الزيزع. هكذا خرج بنصيحة أخته مع ستين فقط ممن يثق بهم وجربهم في المحاولات السابقة. ساروا ليلاً واختفوا نهاراً للحفاظ على عنصر المفاجأة، كانوا مطمئنين أن خصمهم، ابن الديشر، يحشد في الشمال لاحتلال بلاد معزبهم بدعم من الكرت. في الثاني من يناير ١٩٠٢ خرجوا، وكانت زوجة الزيزع حاملاً في طفلها الثاني. في الخامس عشر وصلوا مبتغاهم، وهو يوم ميلاد عمي الذي أصبح الملك الثاني للبلاد، وتوافق مع عيد ميلاد جدي السادس والعشرين، وبالتأكيد لم يكن يعرف أنه يوم ميلاده، أو أن ابنه الثاني ولد في ذلك اليوم. ترك جدي المجموعة الأولى مع الإبل وعشرين قرداً على بعد نصف ساعة وأوصاهم بالهرب إذا لم يعد إليهم في الصباح، وبالاستجابة والهجوم إذا وصلهم من يلوح لهم بملابسه. المجموعة الثانية وضعها تحت قيادة أخيه، الذي أصبح فيما بعد ولياً للعهد لكنه استبدل بعمي بعد تغيير اسم البلاد من أمارة إلى المملكة. طلب من مجموعة أخيه الاختباء في زرع قرب باب المدينة. ودخل هو وتسعة آخرون من فوق السور واقتحموا تحت جنح الظلام بيت زوجة حاكم المدينة، الذي كان ينام في القصر تحت حماية المقاتلين ويخرج في الصباح لزيارة زوجته في بيته. أمسكوا بالزوجة فعرفته، أخوها في الرضاعة. طهت لهم

طعاماً وأخبرتهم أن الزوج يأتيها مع الفجر. أرسل الزيزع في طلب أخيه والمجموعة الثانية ومكثوا كلهم في البيت ينتظرون صاحبه. بعد الفجر وصل الحاكم، شق الباب وتوقف، فقد اشتم رائحة قرود لم تغتسل منذ أسابيع، استدار وركض إلى كوة القصر، لحقته طلقات لم تقتله، أمسك الزيزع بثوبه ولكنه تخلص منه وتدافعوا مع الحراس فاجتازوا الكوة ولحقوا بالحاكم في الجامع.. قطعوا رأسه وطلب الزيزع المجموعة الثالثة. أفاقت المدينة وتجمع القرود أمام القصر فألقى لهم الزيزع برأس الحاكم، وقتل بقية حراسه ونودي له بالحكم. أرسل الخبر إلى والده ومعزبهم وطلب التعزيزات. في انتظار ردود الفعل باشر في تحصين أسوار المدينة. وعندما استجمع واستعاد خصمهم قواته بعد أربعة أشهر كان الوقت قد خدم العائلة وبايع السكان أميرهم الجديد ووصلت من والده ذخيرة وسبعون مقاتلاً يقودهم أخوه الثالث، وأصبح الشعراء يكتبون عن البطولة والفتح ويبشرون بالمزيد، وهو ما كان بالفعل. في ذلك العام، ١٩٠٢ تزوج الجد المنتصر زناءة ثالثة تعود بأصولها إلى شيخ الدين الذي اشترك في تأسيس المملكة الأولى، وهي التي أنجبت والدي وماتت وعمره بضعة أشهر عام ١٩٠٦، ثم توالت زوجات الجد للإنجاب وشد الأواصر والترويح عن الذات في الغزوات التي لم تتوقف حتى أُعلنت المملكة وتغير اسمها إلى شمولي أخذ صفة العائلة. لقد أشرك الزيزع أولاده في المعارك من عمر صغير وكانت أولى معارك ابنه الثاني في عيد ميلاده الثالث عشر.

التعساء

تعاسة متوارثة

في الثاني من أغسطس ٢٠١٨ استمع من إحدى الفضائيات، المعارضة للفضائيات الأخرى، أن منظمة أمم القرود المتحدة تناشد القبائل المتوحشة المتقاتلة، في البلاد التعيسة، بهدنة من ثلاثة أيام تتمكن خلالها من إدخال وتوزيع بعض الأدوية والمواد اللازمة للتصدي لمرض الكوليرا المتفشي، قبل أن يستفحل بين المطحونين في هذه الحرب الدائرة منذ الأزل، ويبدو أنها مستمرة إلى الأبد. دمعت عين العجوز، وعند نهاية النشرة الإخبارية قرر أن يحدث أحفاده غداً، الجمعة، عما يتذكره عن جدته التي حضرت من تلك البلاد مع جده إلى وطنها الجديد، قبل بداية الحرب الكوكبية الأولى. كان صبياً وهو يستمع إلى أحاديث جده عما عايشه في البلاد التعيسة قبل أكثر من قرن. ما كان يشاهده من مآسي على التلفاز منذ سنوات عما يحدث لفقراء ذلك البلد، توج اليوم بتوصل المنظمات الإغاثية إلى ضرورة طلب فرصة تواجه فيها الموت المحدق لمن لم يسألهم أحد عن رأيهم فيما يجري لهم، هم أفقر فقراء الكوكب، وأطيب مخلوقاته إلى درجة لا يعرفون معها كيف وأين يهربون من الحرب والجوع والكوليرا. لو عرفوا لانتقلوا إلى بلاد جارتهم الغنية التي تشن عليهم الحرب، فهي أولى بالتكفل بهم.

«من يرَ بلوى غيرة تهِنْ عليه بلاويه» حدث نفسه وقد اجتمع عنده قبيل المغرب حوالى عشرة من الكبار والصغار. في العادة يكون عدد المجتمعين في المناسبات التاريخية، مثل ذكرى النكبة أو وعد الزيلجن

للجمود، أكثر من خمسين يستمعون ليُجدد الجدُ ذاكرتهم. لكن هذه الدعوة كانت مفاجئة، والحرارة مرتفعة وأحفاد الشيخ مشغولون في الاستراحة عن مشكلاتهم، فكل شيء أصبح أغلى حتى على حياتهم في المخيم، بداية من فاتورة الكهرباء حتى سعر البندورة، والكبار منهم يجمعون قوتهم يوماً بيوم في المهن اليدوية. «هل تعرفون بلاد جدتي؟» سأل الشيخ الحضور، وسمع إجابات متنوعة. كان أحد الأحفاد الكبار يعرف الإجابة فقد سمع القصة في السابق، ولكنه لم يجب. «غلط، ولا واحد جاوب صح. جدتي من بلاد النمي التعيس، ولا أدري إذا كانت تلك البلاد سعيدة في أي زمن». صمتوا وهم يتوقعون قصصاً جديدة عن غير بلادهم المنكوبة منذ ١٩٤٨ وحالتهم في اللجوء المجاور لبلدهم منذ عقود بانتظار حل لا يأتي. مسح الحزن وجه الحفيد الذي تنبه بالأمس لدموع الجد أثناء نشرة الأخبار. «جدي أخذوه في الجندرمة غصباً عنه وانتهى به المطاف مع قواتهم في النمي التعيس. هناك تزوج جدتي وأحضرها معه.. أتذكرها تماماً، كانت دوماً تحتج وتعاير الزناءات الأخريات في القرية أن خبزهم في بلادها أفضل من خبز الشعير في بلادنا. كان جدي يبتسم حين يسمعها تمجد بلادها، ولم يكسفها أمام الأخريات، ولكنه حدثنا بعد موتها أن حالة بلادها كانت كارثية في فترة خدمته العسكرية هناك، اقتتال، مجاعة، جهل، كوليرا، إفلاس للإقليم والمركز في الدولة العليا. سأحدثكم عما سمعت من جدي، وما أكملته بالمطالعة عن ذلك الزمن». قال الجد في بيت المخيم لأحفاده، وهو من الذين نالوا قسطاً من التعليم قبل أن تطردهم الحرب والخيانات من بلادهم عام ١٩٤٨. هو من أواخر الذين ولدوا وكبروا هناك قبل النكبة، ولم يبق منهم في المخيم سوى قلة على قيد الحياة، منهم أخوه الذي يصغره، أما زوجته فقد توفيت قبل عام. كل الأبناء والأحفاد ولدوا في المهجر كلاجئين أبناء لاجئين.

«قال جدي: إنه في العام ١٩٠٦ انتهت خدمة فوجه في الجندرمة، لكن الوالي لم يُعطهم رواتبهم، ولم يخصص لهم تذكرة النقل وعودة كل منهم إلى بلاده. ثم حصل الشيء ذاته مع الفوج التالي في موعد التسريح، وتبين أن الدولة العلية لا تريد إعادة الجند إلى بلادهم. هكذا اعتصموا في الجامع بعد أن احتلوا المنطقة المحيطة به في العاصمة، وجددوا المطالبة بالتسريح وتذكرة بابور البحر وبابور البر. تخوفت الدولة من امتداد العصيان إلى الأفواج الأخرى قبل أوان تسريحها، وكانت البلاد في حالة فوضى وحرب، والعاصمة ومدن أخرى محاصرة من قرود الإمام البدوية، فوافقت الدولة العلية على مطالب جندها حتى لا تتطور الأمور إلى طامة كبرى». قال الجد التسعيني لأحفاده نقلاً عن قصة جده الذي عاد بسلام مع زوجته من تلك النواحي المضطربة.

«أكيد أن رحلة العودة في ذلك الزمن كانت مغامرة تنفع لعمل فلم أكشن». نظر الجد إلى القرد الفتي ونظر إلى الأحذية المصطفة بالقرب منهم، ففهم هذا أنه تجاوز الأدب، وصمت قبل أن تطاوله فردة حذاء. كان الجد في الماضي، قبل موت زوجته، أشد صرامة وبالتالي أكثر هيبة على خلفه، لكنهم الآن يتناوبون على خدمته والنوم عنده، فتحولت صرامته إلى عطف عليهم.

«لم أسمع جدي يتحدث عن رحلة العودة، ولكنه كان يعيد ويكرر علينا قصص تلك الحرب الأهلية. في عام ١٩٠٤ مات الإمام المنصور وتنافس البعض مع ابن الإمام على المنصب، حيث إن مبادئ تلك الطائفة لا تتطلب توريث الحكم. اجتمع مجلس الشيوخ لاختيار البديل، وطالت المشاورات، فقام ابن الإمام برشوة المفتي ليحسم الأمر لمصلحته، وكان الابن قد جمع حوله قبائل قردة بدوية متوحشة، وأطمعهم بالغزو والنهب للمدن ومخازن الكرت. فور إعلان المجلس الابن إماماً وتلقيبة بالمتوكل،

طالب قواته بحصار العاصمة وكل المدن والقرى، وأطلق عليهم اسم المجاهدين، وطالبهم بمعاداة الكرت وجندهم ومؤيديهم والساكتين عنهم في كل البلاد. أصدر الإمام فتوى تحرم الصلاة إلى جانب الكرت، وأطلق قواته لجمع الأعشار والأخماس من بقية الطوائف، فنهبوا المخازن ودمروا حتى القرى التي استقبلتهم وفتحت لهم الأبواب بدون قتال». فتح الجد كتاباً يبدو أثرياً وأخذ يقرأ مقاطع فيه عن تلك الفترة:

حاصروا جميع مراكز البلاد ما عدا مدينتي زعت والميناء. هرب من يستطيع الهرب إلى العاصمة التي تكالبت عليها القبائل، واشتد الحصار وخرج الصغار والكبار والزناءات المخدرات وقاسوا عظيم الأهوال، وباعوا جميع الأموال والأمتعة والفراش، وكان الثمن في غاية الرخص لعدم وجود المشتري، حتى أن بعضهم يؤجر الحامل إلى السوق ويعجز عن دفع أجرته، ثم لا يجد مشترياً، فيأخذ الحامل نصف ما حمل. عم الجوع جميع البلاد بسبب الفتن، وبسبب المحاصرات ترك الزراع الزراعة وانقطعت الأمطار، والإمام المتوكل أخرج لجميع القبائل، أنصاره، الحبوب من بيت المال، ومات البقية جوعاً إلا من له أجل ممدود، وخلت قرى كثيرة مات أهلها من الجوع، منها بلاد لاعة على مسافة يومين من العاصمة مات أهلها جوعاً. وفي آنس وزعت وإب التي مات فيها واحد وستون ألفاً، وفي جبلة وما حولها ١٣ ألف نفس، وفي خولان كانوا يأكلون التين الناشف بعد طحنه، ومات في قرية القابل خارج العاصمة ١٦ مئة (١٦٠٠) غير الذين ماتوا في سائر القرى حول العاصمة. ومات في قضاء كوكبان والأكثر في قاع الرّجم والمحويت ٥٠٠٠ نفس، ووجد في وادي سهام على قارعة الطريق موتى ٥١ نفساً، وفي حال المحاصرة للعاصمة أمر المفتي البوليس وطائفة من الجند أن يهجموا على بيوت التجار والأعيان ومن كان منظوراً إليه باليسار، ويأخذوا ما لديهم من الحبوب لأجل عساكر

الدولة وأخذ كل شيء يؤكل... فهجم البوليس على بيوت كثيرة، وأخذوا كل ما وجدوا وكسروا الأبواب وأهانوا أهلها وكان بعض المأمورين في إجراء هذه الوظيفة يشرب الخمر جهاراً وكانوا يأخذون ما وجدوا من الحيوانات بقراً أو إبلاً أو غنماً أو دجاجاً أو حميراً أو خيلاً وكانوا يذبحونها ويأكلها العسكر، فلما اشتد الحصار أكل العسكر ما وجدوا من الحيوانات التى لا تؤكل مثل الكلاب والقططة، ومات من الجوع عسكر كثير، وبعض عساكر الكرت من المراكز، قبل الاستسلام هربوا إلى عساكر الأعداء فسلموا من سلطان الجوع ثم تسلم أنصار الإمام جميع المراكز وهي بضع عشرة مدينة... وبذلك استلم الإمام مراكز البلاد وانتصر على الكرت. لقد ارتفعت أسعار الطعام فوق قدرة الجميع، وذبح البعض بناتهم وأكلوها، وهناك من ترك صغاره على قارعة الطريق لعجزه عن إطعامهم، وحصل للقرود قسوة عظيمة، الصديق يرى صديقه يموت جوعاً فلا يلتفت إليه، وكذا الولد لوالده والعكس، لا قوة إلا بالآلهة. ثم لما اشتد الحصار على العاصمة خرج بعض كبار الكرت إلى كوكبان لتسليم العاصمة إلى الإمام.. ثم سلمت بما فيها من السلاح والذخائر وخرج العساكر الكرت إلى أماكن تجمع بانتظار بداية مفاوضات بين الباب العالي والإمام.

«أترون أن حالنا لم يكن يوماً مثل حالهم، لا في ذلك الزمان ولا الآن. نعم سلبنا إرادتنا أيام الحكم الكرتي، وفقدنا أرضنا وتم تهجيرنا وقتلنا بسبب سياسة الزيلجن، وبسبب خيانة قياداتنا العائلية وقادة الدول المجاورة لنا، لكن عدونا المباشر لم يكن من ديننا كما هو الحال عندهم، ولم يُقتل منا جوعاً مثل ما حصل عندهم آنذاك. والمصيبة أن وضعهم يتكرر الآن كما قبل أكثر من مئة وعشر سنوات».. توقف الجد عن الحديث وتذكر أن الزيلجن هم سبب كل المصائب، فحتى في تلك البلاد التعيسة احتلوا شقها الجنوبي وخصوصاً ميناءها الاستراتيجي منذ عام ١٨٣٩، أي تمهيداً لشقّ القناة بين البحرين مباشرة، ولم يرحلوا عنها

سوى عام ١٩٦٧.

«.. شايفلك يا جدي حال القرود من بعضه». قال حفيدٌ ممن انهوا الدراسة الجامعية ويصوم ويصلي أحياناً، ولكنه ليس مثل جده نصيراً نظرياً للجماعة الدينية. «قادتنا الأئمة والأفندية قسموا الشعب والبلد قسمين، ويتصارعون على الكرسي، وينفذون رغبات العدو ويدعون العكس. لقد أهدروا القضية وخانوا الشعب ومزقوه إرباً، وصراعاتهم قبل النكبة تتكرر حتى الآن، آنذاك ساهموا في النكبة والآن يشاركون في صنع التعاسة، وها هم أهلنا اللاجئون في بلادهم لا يجدون الكهرباء ولا ماء الشرب، ناهيك عن العمل والمداخيل، ويحاصرون منذ سنوات وتشن عليهم الحروب أشكالاً وألواناً، بعضها عسكري موسمي، وغيرها اقتصادي ونفسي واجتماعي، وبشكل متواصل. أقله يا جدي أهل جدتك لا يزالون الآن في بلادهم، ومهما عانوا الويلات فذلك أشرف لهم من الإهانة في خارجها». لقد تخرج هذا الحفيد في الجامعة مثل آلاف غيره، لكنه لا يجد وإياهم فرص عمل، ليس لضيق حال الاقتصاد ولكن بسبب القوانين التي تحرم عليه العمل في البلد المضيف الذي ولد وترعرع فيه، وما زالت قوانينه تميز بينه وبين ابن البلد الآخر.

«يمكن كلامك صح، ولا داعي لأن نقارن السيئ بالأسوأ». قال الجد وأشار بيديه للحفاظ على هدوء المستمعين، ففهموا أنه يريد استكمال روايته التي جمعهم من أجلها واستعان بالكتب لضبطها. «أرسل الإمام المتوكل شروط الصلح إلى الباب العالي، وكانت تؤيد بقاء البلاد ضمن دولة الخلافة، وتشترط بنوداً تخول الإمام بعمل ما يريد تقريباً، وخصوصاً مطالبته بإلغاء القانون العام وتطبيق القانون الديني حسب مفهموم الإمام، وهذا طبعاً يُخرج هذا الإقليم من رابطة الدولة التي رفضت الشروط ولكنها أرسلت وفداً للتفاوض، واستدعت وفداً من أهل العاصمة لمقابلة السلطان. وإليكم ما وجدته عن تلك الزيارة في هذا الكتاب». وأخذ الجد

يقرأ للأحفاد:

«وفي هذه السنة طلب السلطان جماعة من كبراء وسادات وعلماء وأعيان قرود العاصمة ليتكلموا فيما يصلح بلادهم، ففرحت القرود بذلك، فدخلوا ووصلوا إلى السلطان وأنزلهم في محل الضيافة مع العز والإكرام، وبعد شهر استقبلهم السلطان للسلام وإجراء الكلام قدر عشر دقائق، وقد حصل لهم الشرف بما حصل لهم من مشاهدة السلطان والنظر إليهم وملاطفتهم دون غيرهم من الوزراء، فصاروا تلك الجماعة قسمين، قسم يريد الصلاح والسداد عموماً، وقسم يريد إصلاح نفسه وتقرير معاش أو وظيفة. فسألهم السلطان عمّا يصلح البلاد ويزيل ما يحصل من الفتن، فأجاب البعض يصلحه القوة الجبرية وكثرة العساكر والجنود، وقال البعض الآخر، وهم الأكثر، يصلحه إجراء الشرائع والأحكام وإقامة الحدود التي قام بها الدين وهي التي يطلبها أئمة البلاد خلفاً عن سلف. ثم تكلموا جميعاً في مصالح أنفسهم من المعاش والوظائف ولم يحافظوا على الأدب في ذلك المقام، وكثر اللغط وارتفعت الأصوات، ثم صرفهم السلطان في الحال وأمر بتسفيرهم ولم يبيتوا إلا في الباخرة، أنجزت أوراقهم وأعطى كل واحدٍ منهم ما يستحقه من الإحسان والوظيفة.

«الأمور واضحة ياجدي، جدتك وجدت كل قرود المنطقة أصلهم من النمي التعيس، وسوف تستمر التعاسة حتى نُتعس معنا أي مغتصب ومحتل». ضحك الجميع على هذا التعليق، وأضاف بعض الأحفاد الصغار قسماً لتعليم المحتل التياسة.

حفيد الأنبياء

«حياة مليئة بالخدع والخداع». كان يبحث ضمن دراسة اجتماعية عن قصة نبي من الكتاب المقدس. أعاد المطالعة مراراً للقصة، وكل مرة تتعمق رؤيته المخالفة للمعتقد السائد. أيضاً كان خياله يسرح في الخداع الذي عايشه في عائلته، بين عمه وأبيه وما سمعه عن جده. كان من المقرر له أن يكون نسخة عن الأغلبية في قناعاتهم، ولكنه في الخامسة والعشرين بدأ يكون بعض أفكاره ورؤيته الذاتية، وإن كان لم يجرؤ بعد على الإجهار، بل إنه يفكر ملياً في تحوير البحث ليتناسب مع السائد بين القردة، ربما بإضافة بعض التساؤلات، أي الملح والفلفل، لكن الشجاعة لا تكفيه للمواجهة التامة والبوح بأفكاره.

كان ذلك البحث الأكاديمي عن حلقة الوصل بين القبائل الاثنتي عشرة، النبي فسوي، الذي جلب القبيلة إلى بلاد رصم وبقوا فيها عدة أجيال حتى طردوا منها، وقادهم نبي آخر في رحلة الخروج مما أصبح وطنهم. والد النبي فسوي نبي، وجده نبي، وجد أبيه نبي، بل أبو الأنبياء. كل من يطالع قصة النبي فسوي يراها في إطار الخير وينقاد إلى الرؤية الدينية للأمور. لكن هذا الحفيد الباحث، خطرت له رؤى أخرى أوصلته إلى استنتاجات مختلفة بل مناقضة للسائد. ربما كان السبب في هذا الاختلاف، حياته الشخصية وما مر به من ظروف عائلية ما زال مضطراً للنظر إليها بإيجابية.

«إذا كانت القرود تُقوّم النبي فسوي بتلك القوة الإيجابية، فلا أستغرب

أن يجبنوا عن تقويم جدي على حقيقته.. صحيح هو شجاع ومقاتل وخدم تأسيس الدولة وتزعمها لاحقاً، لكنه مسؤول أيضاً عن مذابح وجرائم حرب، ولا أحد منا ينظر إلى هذه الزاوية من أفعاله، خصوصاً بعد موته. أما النبي فقد قام بأكبر عملية احتكارية عرفها تاريخ كوكب القرود، لكن الجميع يؤولونها كنجدة ربانية قام بها فسوي».

كانوا اثني عشر أخاً من أربع زوجات هما أختان، بنات خال الزوج، وخادمتاهما. أحب الأب فسوي أكثر من بقية إخوته، لأنه ابن الزوجة التي أحبها وأراد الزواج بها، لكن خاله خدعه وزوجه أختها ثم أعطاها له مقابل خدمات رعي إضافية. هكذا وباختصار للرواية الشهيرة، تخلص الأخوة من أخيهم، ابن المحبوبة، وقالوا لوالدهم أن الذئب أكله. اتضح لاحقاً أن الأخ فسوي، الوسيم جداً، وصل كعبد إلى رصم مع قافلة، وسجن بتهمة جنسية مفتراة، لكنه نجا من السجن، وأصبح مستشاراً للزعيم الأكبر والأوحد، الذي كلفه بإدارة اقتصاد البلاد ليدخر في السنوات السبع المنتجة ما يمكن أن يطعم الشعب في السنوات السبع التالية المقحلة، وذلك حسب تفسير فسوي لحلم تكرر في نوم الزعيم، وكما جاء في الكتب المقدسة. امتلأت خزائن الزعيم بإشراف فسوي أثناء سنوات الخير السبع، ثم بدأت سنوات القحط السبع التالية. في عام الخراب الأول استنفدت القرود مخزونها الذاتي.. استمر الخراب فلجأت القرود إلى الزعيم والمستشار فسوي مستغيثة، فبادلهم حبوب الطعام بما لديهم من مال.. توالت سنوات الخراب، فقايضهم الحبوب بما لديهم من حيوانات، ثم بادلهم الحبوب بالأرض التي يملكونها، وفي النهاية باعوا أنفسهم للزعيم وفسوي وأصبحوا عبيداً على أرضهم مقابل إطعامهم ومنحهم الحبوب ليزرعوها ويباشروا الإنتاج للسيد. في مطلع سنوات الخير، وعلى أثر خروجه من السجن، جلب فسوي والده وإخوته إلى

رصم ومنحهم الأرض والطعام لينعموا ويتزايدوا ويستغلوا ويستفيدوا. الزناءة التي قال فسوي إنها حاولت الاعتداء عليه، وقالت هي إنه حاول الاعتداء عليها، وتم سجنه بتلك التهمة، هذه الزناءة تزوجها فسوي لاحقاً.

ذلك هو موجز قصة هذا النبي كما وردت في كتب الجمود المعتمدة لديهم، ولكنها بالطبع تساق في إطار إعجازي، بينما يراها هذا الباحث حفيد السفاح في أطر أخرى، غش الأخوة وكذبهم، ثم استغلال النبي لشعب مسكين باعوا أفراده أنفسهم كعبيد من أجل الاستمرار في البقاء، وفي المقابل مسامحة الأخوة الذين رموه في البئر وتنعيم حياتهم ليصبحوا أساس القبائل الاثنتي عشرة. بالطبع لا تنسى الرواية المقدسة زواج فسوي من زناءته!! أحد أخوة فسوي أصبح جد النبي الجديد الذي أخرج هذه القبائل بعد أكثر من مئةٍ وعشرين عاماً، لأن قرود وزعماء البلاد، رصم، كرهوا تدريجاً تصرفات من أصبحوا جموداً يميزون أنفسهم، وينعزلون عن الغير من أهل البلاد. لم تنس أجيال الرصميين المتتالية ما فعل بهم فسوي وأخوته وسلالتهم، من سلب للأرض والاستعباد، فطردوهم، وخرج بهم النبي الجديد الذي تربى هو الآخر منذ الرضاعة في كنف الزعيم من دون معرفة من يكون وما هو دينه.

«لدينا ستة وأربعون نبياً، ولو لم يتوقف زمن اعتبار الملوك والزعماء أنبياء، فربما اعتبروا جدي نبياً، فهو لم يقل عن أي منهم في خدمة دينه وشعبه وقتل وذبح وخداع الأغيار.. الحمد للرب أن زمن الأنبياء قد ولى إلى غير رجعة». همس الباحث لذاته ثم ضحك بصوت مرتفع وأخذ يسترجع بعض أوجه الشبه بين جده وأنبيائه. سلطة أبوية مطلقة على الأولاد والزوجات، زواج الأختين، الزنى، أوامر القتل، التوسل عند الحاجة.. ثم توقف عن الاستذكار عندما وصل إلى صراع الأبناء والكراهية بينهم. كان دوماً يستمع إلى أبيه وهو يشتكي من أخيه الذي يصغره بسنتين، وكان

خلافهما منبعه توجس والده أن الجد يحب الابن الأصغر أكثر منه، وكان يطلق يده في شؤون المزرعة يعقد الصفقات ويجني الأرباح من دون تفسير وشرح. عندما مرض الجد وأودع المستشفى كان الأخوان يتقاتلان في الردهات، وسمع الباحث والده يهدد بأنه سيبيع حصته من الإرث في المزرعة، إلى خصوم عمه ليشغل باله وينتقم منه. ذلك العم يشبه الجد كثيراً في الشكل والوزن والطباع الشرسة.

«مزرعة الجميز» تضم أبقاراً وأغناماً وشجراً وفواكه وطولها أربع كيلومترات على طرف الصحراء، اشتراها الجد عام ١٩٧٢ وتوسع في مساحة أراضيها بدون دفع ثمن؛ فالأرض على طرف الصحراء وكلها أصلاً للشعب الذي تم طرده بالقوة إلى الشتات. ذلك الشعب اللاجئ لم يظهر له نبيٌّ للآن ليأخذ بيده سلماً أو حرباً. كانت والدة الجد تنام في المزرعة وبندقيتها تحت مخدتها خوفاً من هجمات أصحاب الأرض. ماتت الأم وتركت سلاحها في المزرعة. وذات يوم بُعيد العدوان الجديد عام ١٩٦٧ الذي احُتلت فيه أراضٍ جديدة من الغير، كان ابن الجد يلعب بهذا السلاح مع صبي آخر. انطلقت رصاصة من سلاح الجدة قتلته في الطريق إلى المستشفى بين يدي والده. قبل ذلك بخمس سنوات كانت والدة الطفل قد قتلت في حادث تصادم، ويقال إنها اعترضت عمداً بسيارتها الصغيرة شاحنة مقبلة من الاتجاه الآخر.. كانت متوترة نفسياً لشكوكها أن الزوج يخونها مع أختها الأصغر التي هاجرت إليهم وسكنت معهم وخدمت عسكرياً تحت إمرة الزوج، وأصبحت لاحقاً تتجسس له على السياسيين. بعد عام من الموت المأسوي للزوجة تزوج أختها، يليل، التي أنجبت قردين هما والد الباحث وعمه المتنافسان على إرث المزرعة. كل هذه المآسي هي أصداء من مجريات حياة أنبياء الجمود. الزوجة الأولى وابنها دفنا في المقابر العامة، أما الأخت، الزوجة الثانية يليل، فقد ماتت عام

٢٠٠٠ جراء سرطان الرئة، ودفنها الجد في مزرعة الجميز. حزن عليها كثيراً فقد كانت تحب الطبخ، وكان هو يحب الأكل.. يحبه بشراهة، ويشرب الفودكا ويدخن السيجار ويلتهم الكافيار، وزاد وزنه فوق المئة وخمسة عشر كيلوغراماً، وأصبح كرشه يكاد يصدم ركبتيه. بعد موت الزوجة الحبيبة أصبحت زوجة الابن الأكبر، أم الباحث، تطبخ له ثلاث مرات في الأسبوع ما كانت تطبخه يليل. أما عشيقة هذا الابن فقد درست إمكانية فتح ملهى ليلي في المدينة المقدسة، بكلفة خمسة عشر مليون لكيش، وبالاشتراك مع الابن، وتمنت أن يداوم معهم الجد في الملهى، بعد التقاعد ليُضحك الزبائن بنكاته.

في مطلع عام ٢٠٠٦ أصيب هذا الجد، زوج الأختين، بجلطة أكبر من الأولى ودخل في شبه غيبوبة. كان يعي ما يدور حوله ويفتح أحياناً عينيه أو يتكلم بهذيان. استمر هذا الحال ثماني سنوات، يقول البعض إنها معجزة، بينما الحقيقة هي عذاب في الحياة قبل الموت وما ينتظره هناك من حساب وعقاب. عذاب كون الدود بدأ يخرج من جسده وهو حي يعي، وأصبح عليهم تعقيمه بشكل دائم، حتى تجاوزوا التحريم الديني وقطعوا عنه أجهزة التنفس وقتلوه. لقد تعذب النبي بويا لسنوات أقل ولم يكن عاجزاً تماماً، ثم شفاه الرب وتاب عليه، لكن هذا الجد البلدوزر أخذ عذابه أثناء حياته بما جرى لعائلته وسوء سمعته، ثم تعذب في شبه غيبوبة كان يشعر فيها بالآلام ويسمع ما يقال من حوله ويعجز عن المقاومة والتعبير، وينتظره أيضاً عذاب ما بعد الموت.. بعد الجلطة الأولى أوصى بأن يدفن إلى جانب يليل، في مزرعة الجميز.. يبدو أنه قرر بذلك أن يفرض على ولديه وأحفاده عدم بيع المزرعة.

كان الجد البلدوزر قد شق صفوف حزب اليمين الأكبر حين لاحت بوادر عزله عن الزعامة.. انشق عن منافسيه وأسس حزبه الخاص بقوانين

تمنع عزله إلا بالموت. البعض اعتبر ذلك جريمة في حق كل القرود الجمود، أو أقله في حق اليمينيين منهم. أجرم أيضاً في حق الجنود الجمود وتسبب في مقتل مئتين منهم بقرارات خاطئة ومغامرة اتخذها على مسؤوليته أثناء حرب ١٩٧٣. لكن جرائمه ضد الأغيار يصعب إحصاؤها، علماً بأنهم قد أسروه في حرب ١٩٤٨ وبادلوه بجندي أسير لهم.

جرائمه الأكبر وذات العقاب بدأت عام ١٩٤٢ حين انضم إلى عصابة سياسية تمارس القتل في الأرض التي هاجر إليها والداه هرباً من الفقر. انضم للعصابة وهو في سن الرابعة عشرة. في عام ١٩٤٨ بعد أن تأسست دولة عصابات القرود شارك في مجازر ضد أصحاب الأرض، وأصبح رسمياً مسؤولاً عن مجزرة شهيرة عام ١٩٤٨ حيث احتجز ٤٢٦ من غير المسلحين في بيوت عبادتهم وأمر بقتلهم، وهو مسؤول عن مجزرة وقعت عام ١٩٥٣ وراح ضحيتها مئة وسبعون من المدنيين، وفي عام ١٩٦٧ ومع احتلال أراضي الجيران أمر بتعذيب أسرى حرب وقتلهم. أما في عام ١٩٨٢ فاجتاح عاصمة بلد مجاور وأوقع آلاف الضحايا وأشرف على حصار مخيمات لاجئين بينما أنصاره يذبحون كل من يقع في أيديهم، وقد أدين قانونياً بالجريمة ولكنه لم يتلقَ أي عقاب. أثناء الغزو دمر المدينة ثم أعطى الأوامر بتعقب حركات خصمه، رساي تافرع، الختيار، زعيم أصحاب الأرض المحتلة. أمر بمتابعته في رحلاته الجوية عبر طائرات مدنية لإسقاطها بطائرات حربية وقتل من فيها من ركاب آخرين. نجح في اغتيال، خصم آخر كان شيخاً قعيداً بقصف جوي. أما في العام ٢٠٠٠ فقد دنس أهم معبد لخصومه واقتحمه مع قوات عسكرية وتسبب في انتفاضة راح ضحيتها تسعة آلاف من صغار وكبار طوال ثلاث سنوات.

كان هذا الإرهابي قد أخبر زعيم البيت الرمادي السكير، بأنه لم يعد ملتزماً بعدم قتل خصمه، فأبلغه السكير بالمقابل أنه من الأفضل ترك مصير

هذا الخصم للرب، فرد عليه الإرهابي «لعل الرب يحتاج إلى المساعدة». في أواخر ٢٠٠٤ مات الخصم جرّاء تسميم بطيء كان من الواضح أن الإرهابي وخونة من الطرف الآخر أدخلوه إلى طعامه.

«نوراش ليس اسم عائلتنا.. حتى الاسم ليس أصيلاً، انتحله جدي قبل تأسيس الدولة لاكتساب الصفة الجمودية والتنصل من الأصل الهدنلوبي». تمتم الحفيد وهو يتذكرما كتبته الصحف المحلية في رثاء جده. فقد هرب والد الجد من الفقر في هدنلوب إلى الأرض المقدسة، أما الأم فقد فرت من الشيوعية، والتقيا هنا وتزوجا وأنجبا الجد وأختاً له تكبره بعامين. منذ الخمسينيات أضافت هذه الأخت بعداً دراماتيكياً آخر، إذ ابتعدت عن العائلة وهربت مع زوج لها وعاشت وماتت في كرويوين في بلاد البيت الرمادي، ولم تعد منذ ذلك الحين حتى لمجرد الزيارة، الأمر الذي جعل والدتها تغضب عليها وتحرمها من الميراث وتخص به الابن فقط، البلدوزر.

«هل نحن بالفعل شعب مختار من الرب؟ ومختار لماذا؟ لتلقي العذاب في قرون الشتات، وتعذيب الآخرين بعد أن سرقنا أرضهم وننكر عليهم الحق في التعويض؟ ها نحن نتلقى عذاباً آخر حتى ونحن نعذب ضحايانا ونكذب على أصدقائنا ونبتز من لا يسايرنا! هل خصنا واختارنا الرب منذ عهد النبي فسوي، الذي لم يكن أفضل من الذين سبقوه والذين لحقوه ونرى فيهم زوراً أنبياء، ونعتبر ذاتنا بهم مختارين». قال الحفيد وكأنه تشجع على المجاهرة ويخاطب آخرين يستمعون إليه.. لكنه كان وحيداً.

الجد المنبوذ

«لا أدري لماذا تكرهنا هذه القرود التي نخدمها بأرواحنا؟ ألا يجب عليهم أن يقدسونا مثل الآلهة؟ لقد قدسوا أنبياء لم يفعلوا لديننا ولشعبنا ما فعلناه نحن، بداية من جدي، ثم قتل عمي في عملية تحرير أسرانا، ثم انتخابهم لوالدي مراراً وتكراراً!» كان ريئاي يحادث أمه هراس التي ردت على ولدها برفع إصبعها الأوسط في وصف المنتقدين والمعارضين، والتي تعتبرهم شامتين. كانت غاضبة على القرود الجمود أكثر من ولدها، فقد أضافوا إليها هي الأخرى نقداً حديثاً بأنها تعري سيقانها أمام القرد الأحمر أثناء لقاء في البيت الرمادي، بحضور زوجها بالطبع وزوجة الأحمر التي قالوا إنها تفوقها جمالاً وأناقة.

كتب أحدهم: «ماذا تفعل هذه الزناءة؟ أمر محرج؟ مهين؟ فلتقرروا بأنفسكم، الواضح كالشمس أنها لم تكشف عن ساقيها مصادفة، بل قامت عن عمد في ظروف معينة». وكتب موقع إخباري محلي مشهور: «إن ظهور زوجة الزعيم كاشفةً عن ساقيها بشكل لافت في المكتب خلال لقاء جمع زوجها، بالزعيم الأحمر بمارت وبحضور زوجة الأخير كان واضحًا أنه عن عمد». وتحت عنوان: هراس تتعرى في مكتب البيت الرمادي، كتب ثالث: «بدا ذلك كخطوة استفزازية هدفها جذب اهتمام الرجال الموجودين في المكتب وخطف الأضواء من الزناءة التي تفوقها جمالًا بلا حدود الجالسة على الجانب الآخر، ولم يكن هذا محترماً». مثل هذه الهجمات من بني جلدتها تثير حفيظتها بشكل جنوني فتصرخ في

وجه زوجها كلما تكررت هذه الحملات عن لباسها أو الاتهامات العديدة المتتالية لها ولزوجها ولابنها الآن.

«عندما طالبت والدك أن يشتكي عليهم قال إنهم مغتاظون من جمالي وفساتيني.. هكذا يغطي ضعفه. لو كنت أنا الزعيمة لنسفت مؤخراتهم المنتفخة القذرة». قالت لولدها البكر، ثم تذكرت أنه أصبح يعاني الهجمات هو الآخر، وبالتالي يحتاج إلى مواساة، أو أقله شرحاً يؤهله لما قد يعانيه في مرات مقبلة. «عساك تعلمت من تجربتك هذه أن لا تثق بأحد أو أي شيء، وتكتم أسرارك، وتحفظ لسانك. مشكلتك ليست ما قلت ويقولون، رغم فداحة ما قلت، لكن مشكلتك هي عدم الاحتراز وترك بعضهم يسجل بالصوت ما قلت».

كان ريئاي مع صديق له في جولة على دور التعري والبغاء، وكانا يجلسان في سيارة مصفحة ضد الرصاص تملكها الدولة ويقودها موظف لدى الدولة ومعهم حارس تدفع راتبه الدولة، وهذا كله ليس من حق ابن الزعيم النتن. في المعمعة طلب ريئاي من صديقه أربعمئة لكيش ليدفعها للمتعرية، فرفض الصديق تلبية الطلب. هنا سجل أحدهم صوت ريئاي يقول لصديقه: «يا صديقي، لقد رتب والدي لكم صفقة بقيمة ٢٠ مليار رالود، وأنت ترفض أن تقرضني ٤٠٠ لكيش؟ عليك إقراضي المبلغ، لقد حارب والدي وحارب في مجلس التسينك من أجل إمرار صفقة الغاز لوالدك». عندما انتشر خبر هذا التسجيل سعت العائلة لمنع إذاعته في قناة التلفزيون على أساس أن التسجيل غير قانوني، ولكن تم البث ليضاف إلى قائمة طويلة من الاتهامات والتحقيقات التي تطارد الزعيم القرد النتن.

ترك ريئاي فنجان القهوة وسكب لنفسه كأساً من الويسكي الفاخر. كان يجالس والدته ويتوقع النصح منها بالرغم من اقتراب سنه لبداية العقد الثالث.. رفضت الوالدة عرضه أن يسكب لها كأساً واكتفت بالقهوة. تذكر

وهو يرتشف مشروب والديه أن بعض التهم الموجهة إليهما تتعلق بطلبهما من الأصدقاء والزعماء أن يهدوهما المشروب والسيجار الفاخر. «لو كان والدي زعيماً في أي بلد ديكتاتوري، مثل جيراننا، لما تجرأ أي كلب على فتح فمه، ولما احتجت أنا أصلاً لطلب المال من أي كائن، الذي يستفيد من سياسة والدي وتعبه، عليه أن يقدم العطايا طوعاً.. لكنهم يقبضون ويغتنون بكل أنواع الصفقات والطرق، ثم يتظاهرون بالعفة وعدم عزمهم تقديم رشى.. أما الرعاع من القرود المعارضين فيختلقون الأعذار للهجوم علينا». وافقته أمه بإيماءة من رأسها الضخم، وبدت عيناها الغائرتان بين الشحوم أكثر احمراراً من المعتاد. لقد اتهموها بطلب الهدايا، والاحتفاظ بهدايا الدولة، وبارتداء ملابس تكشف أكثر مما تغطي، بل كتبت أشهر صحيفة في البلاد عنها: إن ملابسها في افتتاح دورة جديدة للتسينك كانت أقرب إلى ملابس الراقصات، مضيفة أن هراس شغلت الأنظار من خلال عرضها لملابس تتماشى مع الموضة. ومن التهم الدارجة ضدها أنها متسلطة على زوجها إلى درجة لا يجرؤ فيها أي قرد على ذكر زواجه الأول أمامها، أو كلمة عن ابنته من ذلك الزواج والتي جعلته جداً، لكن أحفاده لا يعرفون أنه جدهم، فقد اعتزلت والدتهم الحياة المدنية مع زوجها، بسبب موقف والدها، وتحولت إلى متدينة تماماً لا تخالط الآخرين. وقالوا إن والدها كان في الماضي يقابلها سراً في أحد المقاهي حتى لا يراه أحد ويفشي للزوجة هراس بمثل هذه اللقاءات مع ابنته، وليس مع أمها التي ما زالت على قيد الحياة ولكنها ملتزمة الصمت.. هكذا كتبوا وقالوا عن هراس ضمن أشياء وأحداث أخرى تؤكد سيطرتها على زوجها الزعيم النتن. «يحيرني موقف هؤلاء القرود بالفعل».

«يمكن للقرد الاعتيادي أن يربح المال ويقبض العمولات وأي شيء آخر طالما أنه ملتزم بدفع الضرائب.. لكن من يتقلد مناصب رسمية

يُفترض أن يتقيد بالقوانين ولا يحلب المنصب لمصلحته الخاصة.. وهذا منطقي. أنت وأنا من عائلة منصب رسمي، ولهذا تسلط الأضواء والأعين علينا وتحديداً من خصوم والدك السياسيين حتى تضمحل فرص فوزه بالاستمرار في الحكم أو الترشح لاحقاً لدورة جديدة. أحياناً يكون النقد ملفقاً، وأحياناً أخرى مبالغاً فيه، وهنا تأتي مناورات والدك السياسية لدرء الخطر القانوني. كان يظن أن ملاحقة الشرطة والقضاء له طوال العامين الماضيين ستذوب بعدما أقنع بمارت بنقل سفارة بلاده إلى عاصمتنا المتنازع عليها.. كانت هذه ضربة معلم لوالدك، ولكنهم عادوا لملاحقته».

نظرت إلى فنجانها الفارغ من القهوة وأضافت: «يتهمونه الآن ضمن أمور عديدة أنه عرض على القاضية في قضيتي ترقيتها في سلم الوظائف إذا حكمت لصالحي وألغت القضية.. كما قلت لك، سر النجاح هو معرفة كيف تقدم عروضك بحيث لا يتمكن أحدهم من ضبط شيء عليك. نحن في البداية والنهاية لسنا بشراً، ولا ننتمي بذرة مما يقال ونسمع عن تلك الإنسانية، لذلك لدينا الحقد والحسد والطمع والشهوة الجنسية وحب المال.. هذا طبيعي ولكن عليك أن لا تُضبط بما يعتبر ضد القانون».

قالت وتنهدت وأخبرت بكرها أن قضيته انتهت لأنه لم يقبض ذلك المال، ولكن «والدك تأثرت سمعته قليلاً وانتهى الأمر باعتذارك عما فعلت. صلي لربك حتى لا يودعوه السجن بتهمة فساد كما فعلوا مع من سبقه».

نهضت واتجهت إلى المطبخ بحثاً عن شيء يؤكل واسترجع ذهنها سجن رئيس بلدية العاصمة أكثر من عام لتلقيه رشى من رجل أعمال، وسجن رئيس سابق خمس سنوات لإدانته بالاغتصاب والتحرش بموظفات في مكتبه، والسجن عامين لرئيس حزب ديني متطرف بتهمة الرشوة.. لكن هذا الأخير عاد إلى الحياة السياسية بعد السجن وتنصب وزيراً للداخلية.

«مسكينة والدتي، إنها متضايقة جداً من ملاحقتهم لها، ولا تستطيع

دوماً كبت غيظها». اجترع المزيد من الويسكي الفاخر وهو يسترجع بعض المضايقات التي يعتبرها سخيفة. فقد اتهم بعض الخدم زناءة الزعيم أنها لا تحسن معاملتهم بل تضطهدهم وتتعالى عليهم، ورفع أحدهم عليها قضية أنها طردته من العمل تعسفياً وكسبها وفاز بتعويض. تبسم بمرارة وهو يستعيد الاتهامات بأن والدته تطلب للحفلات الرسمية المزيد من المشروبات وتأمر بجمع الفارغ منها وتبيعها.. وأنه من أصل عائد أربعة وعشرين ألف لكيش، ثمناً للزجاجات الفارغة، أعادت لخزينة الدولة أربعة آلاف فقط. «هذا العمل يجب أن تُشكر عليه كونها تساعد البيئة». يعرف الابن أن المدعي العام قدم لوالدته لائحة اتهام تضم قصصاً أخرى مثل الكذب بالقول إن المقر في العاصمة لا يوجد فيه طباخون وذلك حتى تحصل على ميزانية لطلب وجبات سريعة وتوظيف طباخين محترفين عندما يحضر الضيوف. في اللائحة أيضاً طلبها من السكرتارية والطباخين تقديم فواتير مزيفة.

«هل تريد ساندويتش هاماً، أو خنزيراً مقدداً تبقى من الفطور؟». نفى بصوت مرتفع رغبته في الأكل واجترع قليلاً من الكأس بعد أن حركه ليذيب الثلج فيه. خاطب ذاته: جدي من مؤسسي الدولة، حضر عام ١٩٢٠ من هدنلوب ولقب ذاته بن نويهص وتزوج الجدة عام ١٩٤٤ وأثمر زواجهما ثلاثة أبناء أكبرهم عمي الذي قتله الإرهابيون في عملية تحرير رهائن طائرتنا عام ١٩٧٦. كان جدي رفيقاً ومشاركاً للقائد اليميني الأشهر يكسنتوباج وهما مؤسسا الحزب الحاكم، واعترض جدي على قبول أبي الانسحاب من بعض المدن المحررة، فهو من أشد أنصار الاستيطان وسحب الأرض من تحت أقدام الأعداء بل إبادتهم، أو أقله طردهم شرقاً. مواقف جدي وسياسة أبي، في الحروب والتوسع والتحايل ضد اتفاقيات السلام التي عقدها الحزب الآخر قبل أن نذيبه عملياً، هي التي أوصلتنا لما نحن فيه

من قوة وسيطرة إقليمية وهيمنة كوكبية.. هذه الإجراءات هي التي نفذت بدايات المخطط منذ قرن وتعمل لاستكماله. لكن يبدو أنه كلما ارتفع مستوى وحجم خدماتك للوطن وقروده تزداد معاناتك. أبي وأمي الآن يتعذبان على الأرض، إنهما يظهران ما لا يشعران به من قهر وحقد على الآخرين الذين لا يشكرون ولا يحمدون، وهما يُخمدان مظاهر الخوف من الإيداع في السجن والتصاق الفضيحة بهما.. يا رب القرود، كيف يُسجنان كما يُسجن الإرهابيون من الأعداء؟ حتى أنبياؤنا لم يخدم أي منهم ليئارسا كما فعل جدي في تأسيسها والاستمرار في النهج الصحيح، وكما فعل أبي في رعايتها وتنميتها، وها هو مع أمي يخشيان عاقبة أفعالهما.. الجحيم على هذا الكوكب. تذكر أن زعيماً آخر من صف والده قد تعذب لسنوات طويلة قبل أن يموت بأسلوب أشبه بأساطير الأولين، إذ رقد في الفراش غائباً عن الوعي لسنوات حتى تعفن جسده وخرج منه الدود.. ضمن هذا المنظار فالسجن شر مقبول، وربما هو امتحان كما امتحنت الآلهة الكثير من الأنبياء بالأمراض والعقوق، فابتعد عنهم الأهل والزوجة وبقية المعارف حتى نجحوا في الامتحان وشفاهم الرب وأعاد إليهم الصحة والأهل والمال.

لم ينجح الابن في تنشيط التفاؤل وأظلمت الأفكار في رأسه وهي تتفاعل بفوضى، فألقى على والدته تحية الوداع بصوت مرتفع، وانصرف من دون أن يسمع ردها أو يراها.. «يتفذلكون بالنزاهة بينما أموال المافيا من كل درب وصوب تصب في بنوكهم عبر الكوكب كله وتستقر هنا أو في العواصم مدعية النزاهة والنظافة والديمقراطية، يستفيدون منها في الأسواق ويغسلونها ويعيدون جزءاً منها إلى العصابات ويحتفظون بنسب لهم.. أموال من المخدرات والدعارة والجريمة المنظمة.. لا يؤمنون بقذارة المال، كما يُشهرون، ولكنهم يغسلون أقذره.. أصبحوا يشكلون أعلى نسبة من أغنياء الكوكب، رغم أن نسبتهم بين قروده هي الأقل».

بدون رب أو جد أو حفيد

عرفته وهو كبير في العمر والمقام، كان في مطلع الأربعينيات من العمر ويُدرس الكيمياء العضوية للطلاب في إحدى جامعات بلاده. قبل ذلك أنهى الخدمة العسكرية وتخرج في الجامعة، واشتغل مساعداً لمدير هيئة الطاقة النووية. لكنه شعر بالتضارب بين ماضيه وبين ما آلت إليه حال ما يعتبرها بلاده، بعد أن احتلت أراضي جيرانها وعاملت أصحاب الأرض بعنصرية لم يكن يتصور أن قبيلته ستمارسها. اقتنع أن البلاد ليست ديمقراطية كما كان يظن. كان هذا اكتشافه الأهم الثاني بالنسبة إليه. زارنا في إطار جولة إعلامية ليفضح التصرفات العنصرية ويحرض على التصدي السلمي لها والسعي لإقامة دولة واحدة ديمقراطية للعدوين. ترددت في البداية عندما طُلبت مني ترجمة فورية لما سيقوله في لقاء سياسي مع الطلاب، لكني تحاملت على معارضتي البديهية لكل من شارك في حروب وانخرط في الجندية، ثم يقول إنه اكتشف الحقيقة. الحقيقة بالنسبة إليّ أن القوة المسلحة تُغري بالظلم والفساد. سبب تغير موقفي تجاه كاحاش يعود لما طالعته عن الشتائم التي كانت توجه إليه في المدينة المقدسة من بني جلدته القرود الذين يتهمونه بكراهية ذاته وقبيلته الجمود، أي اتهامات بالخيانة، ويبصقون عليه في الشارع، لكنه يتحمل ويواصل نضاله الحقوقي للاقتراب بالقرود من بعض صفات الإنسانية. وتُسجل له زيارته لهذا البلد ولقاء طلابها في جامعاتهم، وهي التي أبادت قواتها العسكرية عائلته وملايين آخرين من قبيلته أثناء صباه، وها هو يتحدث

إلى أحفاد أولئك الأوغاد. إن أبناء وأحفاد الجمود الذين نجوا من تلك الإبادة تحولوا بدورهم إلى أوغاد ومتوحشين بالرغم من التحسن النسبي الذي حل على الكوكب الآن عبر ثلاثة أرباع قرن.

لاحقاً أخبرني لماذا أصبح هكذا، مختلفاً ومميزاً، ولكنه لم يغير جموديته بالرغم من إنكاره لوجود الرب منذ كان صبياً، ولا يمارس أي طقوس. كان ذلك الإنكار اكتشافه الأول عندما كان في سن الثانية عشرة. كان الأصغر في عائلته القاطنة هدنلوب عندما أحتل القرود الشقر الأكثر عنصرية بلاده فتشتت الشمل. هرب أخوه الأكبر من معسكر الاعتقال المخصص لديانتهم وانضم إلى طيران الخصم، ولكن تم إسقاطه. والده فر ولم يعد، أما هو فقد أودعته والدته لدى عائلة من ديانة أخرى حفاظاً عليه، ولكنها استعادته عندما لم يعد معها ما تدفعه للعائلة بدل إعالته.. كانت ظروفه صعبة. عام ١٩٤٣ أودع مع والدته معسكراً للاعتقال، وعندما تم تحريرهما من المعسكر كان ضعيفاً.. هناك اكتشف عدم وجود إله للقرود.

هاجر إلى بلاد لها أصحابها، كما قال لي، وهو يعرف أنني من أصحابها الذين تم تشريدهم بفعل أبناء قبيلته المشردين والمطرودين من بقاع الكوكب، وذلك ضمن مؤامرة القرود الزرق وأغنياء الجمود الذين عطلوا فرص لجوء الجمود بعد الحرب إلى أي مكان سوى طينفلس الرازحة تحت انتداب القرود الزرق آنذاك. التزم برأي الجماعة والمجتمع والدولة الجديدة حتى عام ١٩٦٧ حين كشر القرود عن أنيابهم واستنتج أنه ليس مثلهم ويجب أن يقاومهم سلمياً. بقي جموديا ولم يتنازل عن الديانة، ربما بسبب ما عاناه جراء نظرة الآخرين إليها، ويظن أن إنكارها الآن سيكون خيانة. لكنه وضع مؤلفات منها ما يفند عنصرية هذه الديانة تجاه الأغيار والحث على قتلهم، وما أصبح يمارس علناً من القوى

الراديكالية. «لقد اغتال أحدهم الزعيم الذي تقبل فكرة السلام».. قال لي بعد محاضرته للطلاب ومناقشتهم إيّاه، وأضاف: «إذا تمكن هؤلاء من زمام الأمور فإنهم سيتعاملون مع أبناء جلدتهم الجمود المخالفين بالرأي كما يتعاملون مع المحتلين، أي معكم».

«تقول بعنصرية دينكم وتحريضه على قتل الأغيار».. خجلت من إكمال ما أردت قوله وأنا أنظر إلى عينيه الحزينتين وأتخيل ما عاناه من تمسكه بالديانة رغم عدم التزامه بأي طقوس. حثني بإشارة من يده لأكمل، وبدا لي كأنه عرف ما كنت سأقوله: «.. ألا يمكن والحال هكذا أن تكون كراهية قرود الكوكب لكم محقة طوال القرون الماضية؟».

«كان مصدر التحريض ضد الجمود طوال ألفي عام هو الدين الآخر، ولم يكن السبب أخلاقياً أو اجتماعياً أو اقتصادياً. تلك الكراهية والضغط كانت تُجبر الجمود على الانعزال والتقوقع وتخيف الآخرين منهم، خصوصاً وأنهم لم يجدوا فرص الانخراط وممارسة الأعمال العادية فلجأوا إلى مهام مكروهة تزيد الطين بلة.. لذلك تراني أطالب بالديمقراطية والعلمانية». سألني بحركة من رأسه إذا كنت اقتنعت، فأجبته بمثلها لقناعتي أن الديانات هي مصدر رئيس للحروب بأنواعها.

لقد أطلق كاحاش التحذير مراراً من سطوة المتطرفين اليمينيين المحتملة، وسعى بتحذيراته إلى توحيد جبهة خصوم هؤلاء المتطرفين. لكنهم الآن في منتصف الطريق لاستلام الحكم وإدارة القوة العسكرية الجبارة، بل النووية الوحيدة في المنطقة. لقد مات كاحاش قبل ثمانية عشر عاماً وشهد الكثير من التحول تجاه ما كان يحذر منه. كانت قناعته قوية بما سيحدث من هيمنة اليمين العنصري الجمودي إلى درجة رفضه الزواج والإنجاب حتى لا يصنع مأساة خاصة لأبنائه وأحفاده. هكذا فهو يعتقد أنه لو تزوج وأنجب أبناءً وأحفاداً أنهم سينتهجون طريقه وأفكاره، وبالتالي

سيتعذبون.. أو إن انساقوا مع القرود المتوحشة فسيعذبون الآخرين.

أمضى كاحاش العقود الثلاثة الأخيرة من حياته مستغلاً وقت فراغه لتغيير ما يراه ظلماً وعنصرية وخطراً. ساهم في العديد من الصحف اليسارية الصغيرة، ولكن عندما لم يكن لهذا تأثير كبير، قرر أن ينبه الصحفيين والأكاديميين والناشطين في مجال الحقوق للقردة في خارج بلاده. من شبكته الإعلامية الصغيرة في المدينة المقدسة، تم تدوين تقارير بعناوين مثل: التعذيب في ليئارسا، والعقاب الجماعي في المنطقة المحتلة. هذه التقارير كانت تترجم إلى لغات سائدة بين قرود الكوكب. مع غياب فرحة العائلة والأولاد والأحفاد عن حياته، كانت متعته السنوية هي حضور كونسرت موسيقى كلاسيكية.

تحسنت التغطية الإعلامية الكوكبية تدريجاً، لكن كاحاش والإعلام والكلام لم يحدثوا فرقاً يذكر في مجتمعه المتعصب والمنصاع لأطروحات دينية بغيضة عن الآخرين. كان كاحاش يرتجف عندما وصل في قراءة علنية أمام القرود وهو يسرد قصة لمزارع جمودي في بلاده، وكيف أطلق كلابه على مجموعة من صغار أبناء المحتلين اقتربوا من المزرعة. هذه الكلاب من الفصيلة نفسها التي كان العنصريون الشقر يستعملونها ضد الجمود في معسكرات الاعتقال. من تلك المعسكرات علقت في ذهن كاحاش جملة أثرت في حياته ورؤاه. لقد استمع إلى عمال يتحدثون على الطرف الآخر من سياج معسكر الاعتقال:

«لا بأس أن يخلص القرود الشقر بلادنا من الجمود ويقضوا عليهم». قال عدد من القرود الشابة بعضهم لبعض.

«لماذا؟ أليسوا قروداً أيضاً مثلنا؟» سألهم قرد أكبر سناً. هكذا هو دوماً تلاطم الخير والشر في الظروف الصعبة. أحياناً يظهر الفرق بين الشر الغبي المظلم السائد وبين تلك القلة الجريئة من القرود التي تتطلع إلى

قليل من المثل الإنسانية التي يحلمون بها. إنهم قلة بالتأكيد وإلا كيف يمكن لمن كان يتلقى الضربات، أن يسددها الآن للآخرين بدون وجه حق وبأساليب شبيهة بل وبكراهية إيديولوجية دينية.

يُقر كاحاش بجرأة في مؤلفاته أن الاضطهاد الجمودي للمحتلين مرتبط بالتفسير الديني للتاريخ الجمودي، وهو تفسير يتجاهل تماماً قروناً طويلة من التعايش بين الطرفين في عدة بقاع على هذا الكوكب. هذا التفسير الديني يتجاهل أي حقوق للآخرين ويتم تعليم كل قرد صغير بضرورة تخليص الأرض، التي احتلوها بالقوة، من الأغيار الذين لا ينتمون إليها، حسب التفسير الديني الجمودي. يقول كاحاش: «إن كلمة قرد في دائرة المعارف الجمودية تشير إلى الجمودي فقط، وإن غيرهم في كتابهم هم حرفياً أبناء الشيطان. وإن الجمودي الذي يقتل «غوييم» عمداً يحاكم في السماء فقط، والذي يقتل «غوييم» بالخطأ لا يحاكم على ذلك لا في الكوكب ولا في السماء». هذه العنصرية لا يمكن إنكارها عبر مراقبة الممارسة العملية والنظرية اليومية، ولكنها في النهاية تحدث الضرر بالجميع حسب كاحاش. «إن الخطر الرئيسي الذي تشكله ليئارسا كدولة جمودية على شعبها وجيرانها هو سعيها بالدافع الأيديولوجي إلى التوسع الإقليمي وما يترتب عليه من حروب محتومة». هذه بعض التحذيرات الأخرى التي أطلقها كاحاش.

في صيف ١٩٨٢ ترجم ونشر كاحاش وثيقة شبه سرية تخطط لتقسيم إضافي للمنطقة ليسهل على الجمود السيطرة والتوسع. وبعد ربع قرن نرى إنجاز تفاصيل ذلك جزءاً رئيساً من المخطط الذي يقسم الدول القائمة إلى دويلات وطوائف دينية متنازعة ومتحاربة. «إن بث الكراهية بين أصحاب البيت الواحد من خلال الخلافات والانقسامات هو السبيل الأفضل لتغيير معالم وحدود كل من دول المنطقة». كما في المخطط الذي حدد ظروف

كل هذه الدول وكيفية الإيقاع بها وشرذمتها.

في الفترة بعد العدوان الجديد على الجيران عام ١٩٨٢ ارتفع صوت قرود ليبراليين متفهمين لرؤية كاحاش، لكن صوتهم ضعف مجدداً وتأثيرهم اختفى تحت ضغط اليمين الذي تتعاظم قوته وتأثيره باستمرار.. من حسن حظ كاحاش أنه توفي قبل أن يرى انتصارات اليمين المتطرف وخمود اليسار السياسي.

قرود اليسار هم جمود طيبون. فهم غير ملزمين بأن يقيموا الفرائض والاكتفاء بالأكل الحلال كي يكونوا قروداً مخلصين للقبيلة الجمودية. لايمكن بحال تعريف اليساري بأنه «لا جمودي» وحتى الأحزاب الأشد يسارية تحتفظ بسمات وصفات وألقاب الجمودية السياسية. العلمانيون الكثر وغيرهم ممن لا يؤمنون بالرب يصنّفون كجمود ممتازين حتى من قبل الحكماء، الذين قالوا أكثر من مرة واحدة أن فريضة استعمار وسكن بلاد ليئارسا توازي كل الفرائض الأخرى. فريضة سكن البلاد رغم غلاء المعيشة وغلاء السكن، اليسار يقومها، ويقومها جيداً. هناك فرائض جمودية أخرى يقومها اليسار بحماسة، وإن كان لا يعترف دوماً بذلك.. لا أرى، لا أسمع، لا أتكلم.

حفيدة المعذبين

«الحمد لله أشعر بارتياح أكبر الآن».. قالت دهع مع ابتسامة خفيفة وهي تزيح شعرها الأشقر الكثيف خلف رأسها. كانت تتناول طعام الإفطار مع بقية السجينات في مهجعهن، أو بالأحرى مجموع وجبتي الإفطار والغداء كون السجان لا يعترف لهن بالصوم، فيكون الإفطار دوماً بارداً. في الظروف الاعتيادية لم تلتزم دهع بالصوم، ولكنها الآن، في الأسر، تمارسه مع الأخريات كنوع من التحدي للسجان الجمودي والتعاضد مع الملتزمات بالطقوس.

«رأيت بعض الارتياح على وجهك، وتكررت ابتساماتك في الأيام الأخيرة.. تغيرت كثيراً عن الأيام الأولى، لم تعودي تنظرين إلينا كأعداء محتملين». قالت الرفيقة في المهجع بعد أن انتظرت قليلاً دون جدوى لسماع تفسير من دهع عن شعورها بالارتياح. كن عشر إناث في غرفة صغيرة بنافذة واحدة، لهذا كن كل صباح يجردن الأسرة من الفرشات ويضعنها في زاوية الغرفة بينما يكدسن الأسرة بعضها فوق بعض فيحصلن على صالون للجلوس وبعض المساحة للتحرك وممارسة تمارين رياضية. لقد عرفن ظروف اعتقال دهع، وأنها رفضت الحديث مع المحققين القرود والتزمت الصمت وصمدت أمام تحرشهم اللفظي معها ليجبروها على الكلام، وتوقعن بالتالي تخوفها من وجود جواسيس في الغرفة، ولذلك قررن التروي معها حتى تطمئن. «.. نأمل أن يستمر شعورك بالارتياح بيننا حتى يتم الإفراج عنك». قالت رفيقة المهجع مجددة المجال لاستمرار

الحديث.

«لا أخفي عليكن، وربما مررتن أنتن أيضاً بهذا الشعور، قلقي الأكبر هو على والدي القلق عليّ وعلى والدتي في المهجع المجاور.. هو خارج المعتقل ولكنه بالتأكيد يتمزق من الغيظ، لأنه جرب الاعتقال مراراً، ويعرف أساليب التحقيق، إذ أصيب بشلل جزئي في ساقه من شدة تعذيبهم له بالهز الشديد.. لكنه أصبح يعرف أن التحقيق معي ومع والدتي قد انتهى وبالتالي أتوقع تحسن وضعه النفسي وأنه ينتظر الإفراج عنا». سمعت دهع تطمينات وتمنيات من رفيقات المهجع اللواتي يعرفن تفاصيل القضية والاتهامات. «أعتقد أنه سيعاوده القلق بعد خروجي من السجن، لأن الحكم عليّ يتضمن السجن ثمانية أشهر أخرى إذا عدت للمقاومة طوال ثلاث سنوات مقبلة.. هو يعرف أنني لن أجلس ساكنة في البيت متجاهلة الاحتجاج السلمي الذي مارسته منذ الطفولة». الجميع يعرف أنها شاركت والديها في التظاهرات السلمية منذ سن الرابعة، ولم تتخلف يوماً عن المسيرات حتى اعتقالها الآن وهي في سن السابعة عشرة.

تشكل قرية دهع الصغيرة حالة متقدمة من المقاومة السلمية للاحتلال والمطالبة بإزالة المستوطنة التي التهمت بقية أراضي القرية، وكان جدار الفصل العنصري الجمودي قد أخذ الجزء الأكبر من تلك الأراضي. هذه المستوطنة احتلت أيضاً نبعة الماء ودمرت الزراعة في القرية، لذلك يخرج السكان كل يوم جمعة للاحتجاج بطرق سلمية فقط، وأصبح بعض الأنصار من العالم الخارجي يحضرون للتضامن معهم وحماية بقية زيتونهم.. المستوطنة حلميش أقيمت بعيداً عن الحدود ١١ كيلومتراً وذلك بأمر من الزعيم النتن عندما تسلم الزعامة عام ١٩٩٦ بغرض احتلال المزيد من الأرض وإثارة السكان الأصليين تمهيداً لطردهم إلى بلاد مجاورة.. دهع ووالدها وأمها وأخواها وابنة عمها وأقاربها وأهالي القرية يؤمنون

بهذا الأسلوب السلمي المقاوم، بل إن والدها يعتبر المقاومة العنيفة والمسلحة تضر بقضيتهم أكثر مما تنفع، ويعارضها بالقول ويمارس نقيضها. هذا بالذات ما يزعج القرود الجمود المحتلين، فإذا اقتنع الجميع بفكرة المقاومة السلمية البحته سيتعاظم الضغط الخارجي ضد الاحتلال العسكري العنصري، ولهذا اختلقوا قضية دهع واعتقلوها بتهمة أنها حاولت طرد قردين مسلحين من ساحة بيتها وأهانت أحدهما بصفعة على وجهه.. الغرض من هذا كله إقناع بقية شعب دهع المحتل أن المقاومة السلمية تؤدي أيضاً إلى الاعتقال، وبالتالي يقول الاحتلال: حافظوا على مقاومتكم العنيفة ليسهل ردعها بالقوة والقتل وتبييض وجه الاحتلال، وحتى لا تقتربوا من مستوى الإنسانية، وتبقوا سواسية مع جنس القرود المتحولة في حب العنف.

«أتمنى لو يسمح لنا المحتلون السجانون باعتلاء أبراج المراقبة.. من هناك سنرى بحرنا المحتل منذ ١٩٤٨». قالت دهع وقد توقفت عن تناول طعام الإفطار، وعرفت الأخريات من عيونيها الزرقاوين أنها لم تر بحر بلادها التي أصبحت كلها بلاداً محتلة بالتدريج. «يكفينا الآن ما يصلنا من نسمات محملة بالرطوبة المالحة». يقع السجن على خط مستقيم بين قرية دهع والبحر، لكنه أقرب كثيراً إلى الشاطئ ولهذا يتشمم أنف دهع برائحة البحر، خصوصاً وأن الشريط الساحلي الطويل أمام السجن لا يزال غير مأهول بالسكان وبقي على حاله منذ أن احتلوه عام ١٩٤٨ بينما يتوسعون بجلب مهاجرين قرود من بقاع الكوكب إلى بقية أراضي الوطن التي احتلوها عام ١٩٦٧ على أمل تنفيذ المخطط القديم للقرود الزرق، وما استحدثوه من مخططات بطرد أصحاب البلاد إذا رفضوا تقبل دور الخدم والعبيد. «بكرة بنحررها ونتجول فيها من أقصى الشمال لأقصى الجنوب ومن النهر إلى البحر».. سمعت دهع من بعضهن ولم

تتنبه للمتحدثة ولكنها قالت بصوت لم تعرف إذا سمعنه أم لا: تحرير وبكرة لا أعتقد، إذا توصلنا في هذا الجيل إلى حل دولة واحدة لشعبين بحقوق متساوية يكون الرب مشكوراً، علينا نسيان فكرة التحرير بالقوة أو حل دولتين متجاورتين لشعبين.

ربما تكتشف دهع يوماً أنها في هذا السجن على مقربة من، وبين مدافن أجدادها الأوائل. فبعد نزول رسالة أحدث الأديان وقبل موت الرسول ذهب ستة شيوخ من مدينة ليلخ في وسط البلاد إلى بلاد الرسول واعتنقوا ديانته الجديدة بدل ديانة الحيسم. عندما عادوا توزعوا في هذه البلاد لنشر الدين الجديد، أحدهم قطن على مسافة عشرة كيلومترات من السجن في الجنوب الغربي في قرية اربرب، واستقر تميم في بيت نيربج على بعد خمسة كيلومترات جنوب السجن، ومات ودفن هناك، وهو جد دهع، واستقر الثالث في بني نعيم التي أخذت اسمه وهي على مقربة من مكان انطلاق الشيوخ في رحلتهم، إلى الجنوب الشرقي من السجن.. هي لا تعرف أنها محاطة بأجدادها وأحفادهم والأرض التي تضم رفاتهم، لكنها مدركة حتمية مقاومة المحتلين الأجانب العنصريين الذين جُلبوا من أنواع قرود متعددة وأماكن متفرقة ولا جامع بينهم سوى النهم للمال والنهب وتنمية الفساد بالعنف، وأقاموا بأموال متبرع بها من أغنيائهم، أقاموا خمسة وثلاثين معتقلاً منتشرة في كل البلاد وتضم الآن ستة آلاف وخمسمئة أسير من بينهم خمسة وثلاثون أنثى قاصرة وثلاثمئة وخمسون قاصراً، وكان مليون من أصحاب البلاد قد مروا لفترات مختلفة عبر هذه المعتقلات. لقد تبنى الجمود قانون طوارئ القرود الزرق الزيلجن الذي ساد في البلاد منذ احتلوها عسكرياً من الكرت في عام ١٩١٧ وهو القانون الجائر الذي يسمح ضمن أمور أخرى بالاعتقال الإداري لأشهر طويلة قد تُمدد لسنوات وذلك بدون توجيه تهم للمعتقلين.

كانت دهع قبل اعتقالها تتابع ما يقال ويكتب عن تجربة السجناء والسجينات، لذلك تحملت وصمدت ونجحت في التجربة ضد المحققين. وحتى تنشر وتعمق نضال السجون وبعد أن هدأت نفسها رويداً رويداً أصبحت تروي لرفيقاتها ما مرت به وكيف قاومت.

بدأ الإرهاب بحجم الدوريات التي حضرت لاعتقالها، أكثر من عشرين دورية أحاطت بالبلدة التي يسكنها أقل من ألف مخلوق، وطوقوا بيت أهلها وخطفوها من بين أهلها، وحملوا معهم حواسيب وهواتف كانت في البيت لجمع أدلة. في اليوم التالي خطفوا أمها من الشارع حين توجهت إلى معسكر الاعتقال لتعرف ماذا فعلوا بابنتها، أما والدها فاعتقلوه في أول يوم محكمة حين أرادوا سماع أقوالها. منذ لحظة الاعتقال قررت دهع أن لا تعترف بسلطة ومحاكم وقرود الاحتلال فرفضت الحديث معهم سوى قول إنها تحتفظ بحقها في الصمت. مع استمرار الصمت بدأ التعذيب النفسي والجسدي والمعنوي. نقلوها بعد منتصف الليل إلى زنزانة تابعة للمحكمة، وكانت مبردة جداً، وتجمع قردة من المستوطنين على الباب يصرخون ويتقافزون مطالبين بقتلها والدخول إليها لاغتصابها قبل القتل، وكالوا لها أقذع شتائم القردة المتوحشة. بعد اثنتي عشرة ساعة نقلوها إلى مركز تحقيق غير معروف المكان، وكان النقل في البوسطة، وهي عربة ذات صندوق حديدي مغلق ولا مكان للجلوس مما يحول المعتقل، مكبل اليدين والقدمين، إلى أشبه بكرة تتدحرج وترتطم في الجوانب. باشروا التحقيق مجدداً مع الصراخ والتهديد ولكنها تمسكت بموقفها الصامت. في منتصف الليل أعادوها إلى المعتقل، وعندما استعدت للنوم أعادوا نقلها في الثانية فجراً بالبوسطة إلى سجن التحقيق في المدينة المقدسة، وكان مع المحققين طبيب نفسي بهدف إدخال الهزيمة إلى عقلها.

«الطبيب فشل والمحقق بدأ يصرخ فعرفت أنه انهزم.. بعد ذلك

وبدون نوم ليومين أعادوني إلى هنا».. قالت دهع لرفيقاتها في المهجع «.. أدخلوني غرفة فارغة ثم أحضروا والدتي وابنة عمي إلى الغرفة وكان ذلك بعد عشرة أيام من خطفي. عرفت أنهم يريدون التنصت علينا، فأشرت لهما بالسكوت ثم باشرنا الغناء والكلام الذي لا يفيدهم بأي حال». هكذا فشل قرود الاحتلال بخداعها أو كسرها. لكن في النهاية وكما أخبرها محاموها، كان أمامها ثلاثة خيارات: عمل صفقة مع سلطة المحكمة تقر بموجبها وتعترف بالتهم ومقابل ذلك يطلقونها. الخيار الثاني كان عدم الاعتراف بسلطة المحكمة مطلقاً وبالتالي يحكم قرود القضاء بما يريدون، أو الخيار الثالث وهو قبول المحاكمة وترافع فريق الدفاع بالنيابة عنها وهذا سيعني حكماً بالطبع ولكنه أهون من عدم الاعتراف بالمحكمة الذي سيؤدي إلى اعتقال مفتوح. هكذا أخذت بالخيار الثالث فحكم عليها بالسجن ثمانية أشهر مع التنفيذ وثمانية أخرى مع وقف التنفيذ. «أخذت أمي حكماً مشابهاً، وقد نسخوا ثلاثمئة صفحة من الفيسبوك الخاص بها واعتبروها مواد تحريضية، واتهموها ببث مباشر لفيديوهات الصدام مع جيش القرود المحتل».

بعد عامين من بداية المسيرات السلمية في القرية، قال والدها للإعلام في عام ٢٠١١: «هذا اختيارنا الاستراتيجي للنضال الشعبي – كوسيلة لقتال الاحتلال الذي استولى على أرضنا، حياتنا ومستقبلنا – هو إعلان أننا لا نؤذي حياة أحد. جوهر نشاطنا يتعارض مع القتل». هذا الموقف صمد رغم قتل قرود الاحتلال ثلاثة من أقاربه شاركوا في المسيرات السلمية، كما ماتت أخته في قاعة المحكمة حين كانت تحضر محاكمة ابنها، فهاجمتها قردة سجانة وقتلتها على الفور. كما قنص القرود صهره وقتلوه. بالرغم من ذلك الظلم والعنف والتضليل الذي تعرض له والد دهع، فهو ورفاقه يرفضون الترويج للعنف والانتقام، ويصرون على

المقاومة بأسلوبهم السلمي الأقرب ما يكون إلى الإنساني. هنا كلمة السر «الإنساني»، فالقردة تروج عبر الكوكب أنها هي المسالمة وتدافع بالقوة عن قرودها الصغيرة في الحضانات. هكذا يرى المظلومون أن قرود الجمود حققوا أهدافهم باستعمال القوة والعنف، وبالتالي انتشرت بينهم ثقافة الرد بالعنف، وهذا يمكن للجمود بمهاراتهم الإعلامية ترويجه دوماً كعدوان ورغبة من الآخرين في إبادتهم. لكن إذا أثبت والد دهع وكثرة متزايدة ممن حوله أنهم لا يؤمنون بالعنف ويريدون حقوقهم والمساواة، فهم بذلك يسحبون البساط الحقوقي والأخلاقي والقانوني أمام سكان الكوكب من تحت أقدام القرود الغازية.. لهذا تعتبر دهع وأهلها وقريتها ومن يؤيد المقاومة السلمية، خطراً على الاحتلال.

ضحكت دهع وقد تذكرت موقف تراجيكوميدي في المحكمة، فنظرن إليها رفيقاتها للاستيضاح. «تعرفن أنني رفضت الحديث في التحقيق، لكن أحدهم أخبرني أنني غريبة عن هذه البلاد، وعائلتي لا أصول لها هنا، وهناك لجنة تحقق في الأمر ليطردونا من البلاد». عادت الابتسامة إلى عينيها وأكملت: «في المحكمة تذكرت قول ذلك المحقق وأنا أنظر من حولي.. كانت السجانات والجند والموظفون والقاضي، من أصول لا علاقة لهم بالأرض. واحدة سوداء اشالف، وأخرى بنية مستوردة من الدنه، وجند بيض سور، وكلهم لم يولدوا أصلاً هنا، وقاضية والدها من هدنلوب، كما هو والد زعيمهم القرد النتن». دار في ذهن دهع أن هذا العدو أصبح يشك في ذاته ونجاعة أساليبه ويتخوف من طريقنا السلمي، لذلك ينسب كلّ المقتنعين بهذا الأسلوب إلى جغرافيا وإنثربولوجيا مختلفة.

لعنة التغريب

جد وجدته

«عندما كان عمر والدي سنتين، حضر عسكر الكرت لأخذ عمه إلى الجندية. أخبرتكم في السابق أن الكرت احتلوا بلدنا والبلدان المجاورة طوال أربعمئة سنة». هز بعض الصغار رؤوسهم مؤكدين قول جدهم، وتبسم بعضهم إذ توقع تكرار العجوز لقصة سمعوها من قبل. حرك الثمانيني عصاً طويلة في يده محذراً المتبسّم. «في الطريق إلى المدينة سألهم العم: أيش بدكم مني، سيبوني وأعطيكم بعض الليرات.. كانت العملة أيام زمان فضية وذهبية».

والد العجوز من مواليد ١٩١٤ أما هو فيقول إنه مواليد ١٩٢٩، وبالفعل كان الزواج المبكر للجنسين دارجاً آنذاك. «سأل الشاويش الكرتي عم والدي: كم ستعطيني إذا تركتك تعود إلى القرية؟ قال العم: أعطيك ثلاث ليرات». هكذا تم الاتفاق المبدئي، وعندما مد الشاويش يده ليقبض أخبره العم أنه لم يحضر معه نقود وتمنى عليه أن يقرضه الثلاث ليرات ليدفعها له الآن ويعيدها إليه عندما يزور القرية مرة أخرى. ضحك بعض الصغار، فوزع العجوز عليهم نقرات من طرف العصا، إذ عمل طوال حياته العملية مدرساً ملتزماً بالدور التربوي للعصا. «اقترض العم الليرات من الشاويش ودفعها إليه مجدداً فتركه وعاد إلى القرية. وعندما زار الشاويش قريتنا مرة أخرى طالب العم بالليرات الثلاث».

«أي ليرات أنت نسيت أني سددت الدين؟ أحلفك بالآلهة ألم أعطيك في يدك ثلاث ليرات قبل أن تطلق سبيلي؟» قال العجوز ورسم

على وجهه علامات التعجب، وأكمل: «قال الشاويش نعم قبضت.. فقال له العم كويس أنك تذكرت». قهقه الصغار انبساطاً بذكاء قريبهم وغباوة الجندي.

«جدتي عاشت في ذلك الزمان وكان لها طفلان».. عاد الثمانيني يحادث الصغار بعد أن استعاد الهدوء. «.. والدي وعمي. كان زوجها، جدي، وأخوه متزوجين ويعيشان في البيت نفسه. جاء الكرت إلى القرية لجمع عساكر للحرب، قالوا «ما يصير في بيت واحد نترك شخصين، لازم ناخذ واحداً منهم»، فأخذوا جدي والد أبي، وطبعاً ذهب ولم يعد، فبقيت جدتي مع صغيريها، وماتت هنا في الهجرة عن عمر طويل، وكانت تحدثني عن أيام الكرت والقرود الزرق الذين هزموهم واحتلوا بلادنا من بعدهم، وهم الذين تآمروا مع قرود الجمود وباعوهم بلادنا وطردونا وهجرونا منها للآن». عندما طرد العجوز وجدته والآخرون من بلادهم عام ١٩٤٨ كان عمره يقترب من العقدين، ولكنه لم يتزوج في الصبا كما ساد آنذاك، بل تزوج في الهجرة وأنجب ثلاثة ذكور وخمس أناث، تزوجوا بدورهم وأنجبوا صغاراً، بعضهم تزوج وأنجب بعض من يجلسون ويستمعون.

«قالت جدتي إنه عندما يأتي الكرت لأخذ مجندين بالقوة عام ١٩١٤، لا يأخذون القرد المتزوج أجنبية، ولكن أين هو ذلك القرد المحظوظ المتزوج من أجنبية؟ كانت تقول لي إن الكرت لم يبنوا مدارس للتعليم، لم يرغبوا في بناء جيل يفكر.. وعن المعيشة في فترة تلك الحرب الكوكبية الأولى قالت لي: كانت الحياة صعبة، عايشين على القمحات، وبعدين أصبحنا نفتح بطن الحيوان الميت لنأخذ القمح من بطنه ونغسله ونطحنه ونأكله.. هذه كانت الحياة في القرى، لكن في المدن أحسن شوية، ولما انهزم الكرت وفروا عثرنا على مخازن حبوب تكفي لسنوات، كانوا مخبيينها، فتحسن الحال، ونهبنا كل مخلفاتهم ومنها بنادقهم المصدية التي استعملناها في حرب ١٩٤٨».

«أنت تعرف القرية يا جدو؟» سأل من رفع يده وتحدث قبل الحصول على الإذن.

«نعم، أعرفها بكل تفاصيلها، كنت كبيراً عندما هاجرنا».. أجاب من دون عقاب أو نظرة عتاب لمن طرح السؤال. ترددت بين أذنيه كلمة كبير، وتمنى أن لا يعاتبه صغار القرود. لم تكن تلك المخاطر والمخاوف، التي هربوا منها، أشد مما تبعها والقصف الجوي الذي يتعرضون له هنا في المهجر على الدوام، ناهيك عن سنوات الاحتلال والسجن والذل التي لاحقت اللاجئين.

«هل لنا أراضٍ هناك يا جدي مسجلة باسمك أو باسم أبيك؟» اختلط الشعور عند العجوز بين الغضب والارتياح، كان يتمنى سؤالاً على شاكلة: هل كانت الحرب التي هربتم منها أعنف من الحروب التي نتعرض لها الآن وبشكل متكرر؟

«نعم نعم لدينا بعض الأراضي مسجلة في الطابو قبل الهجرة ولدي القواشين.. سأطلعكم عليها». تنفس بعمق وأكمل: «لدينا أيضاً أراضٍ لم تسجل رسمياً. كانت معظم الأراضي زمان مشاع بين الناس، وكان الكرت يأخذون ضرائب من أصحاب الأراضي، وعندما يحضر الجابي الكرتي للضرائب أو لتسجيل الأراضي التي غيرت الملكية، كان أصحاب الأرض يهربون.. بعد هزيمة الكرت صار المحتل الجديد يسجل الأراضي ويأخذ ضرائب أيضاً.. كان يسجل عشان يبيع أراضي الدولة للجمود الذين يهاجرون إلى بلدنا ويتملكوا.. كل شيء كانوا مخططين له ونحن غافلون. كان الواعي منا يشتري ويسجل ويدفع ملاليم كضريبة، لكن عقول القرود صعب تغييرها، كان الفكر السائد من أيام الكرت.. ثم إنهم في النهاية أخذوا كل شيء بالقوة ومن دون أن يشتروا أو يبيعوا» قال وكمن يحادث نفسه.

«لكنها لنا يا جدي، كلها لنا، عليهم أن يعودوا إلى بلدانهم ويدفعوا لنا بدل الإقامة والاستغلال وتعويض عن الظلم وحياة اللجوء التي نعيشها.. الزعيم أبو زفت الذي يفاوضهم لا يمثلنا». قال الصغير ذاته وأيده العجوز بهزة رأس، وقرر أن يبعد الصغار عن جو الحروب والسياسة.

«أيام جدكم وأيام جدتي كان الجميع متحابين أكثر من الآن، الوضع الآن لا بأس به لكن زمان كان أحسن. الأفراح كانت تجمع كل القرية لأسبوع أو أطول من الأغاني والرقص والأكل، مثل الفت والمفتول. كان هناك مُهرجون يلبسون الكثير من الملابس فيصبحون سماناً جداً ويقومون بحركات مضحكة، وهذا اسمه الشنيعة والمنيعة. كانوا يطبخون الرز في سل من البوص وليس في طناجر أو فخاريات، ونطبخ معه الذبائح والقعدان والعجول. المهنئون كانوا يجلبون معهم ذبائحهم. ألعاب الفرح كان منها سباق الخيول الأصيلة، ولكل منها أوراق تثبت مين أمها وأبيها وأجدادها. العروس زمان كانت تنبسط بصندوق خشب تضع فيه كل حاجاتها، اليوم العروس لا يكفي مثل هذا الصندوق لأحذيتها، ومصاريف الزواج والفرح تخرب بيت العريس من أولها».. ضحك الصغار، ولم يهز لهم العصا. «قالت جدتي إنه في أيامها، أيام الكرت، كان البدو يتزوجون بالقصلة، يعني عود القش يدفنونها في الأرض ويصبحن موافقين بدون قاضٍ.. الأمور بسيطة». تذكر شيئاً مما قالته جدته: «لكن البدل كان منتشراً». ثم شرح للصغار كيف كانوا يبدلون الأخوات بالزوجات.

«لكن العرايس كن مبسوطات يا جدو».. ضحك الصغار ولم تعرف السائلة إذا ضحكوا على السؤال أو لأنه سؤالها.. ارتفعت العصا فهدأوا.

«لا أدري إذا كن مبسوطات أم لا. لم يكن عندهن شهر عسل، ولا عطور ومساحيق، وكانت العروس تشارك الأسرة في البيت والمطبخ، وكل عام تشارك الأخريات في تجديد البيت وصيانته. كانت المساكن

طينية ومن الضروري قبل الشتوية وبعدها إعادة تلييس الجدران والسطوح بالطينة والقش.. مين عروس هالأيام تعرف تليّس البيت، أو ترضى تسكن في بيت طينة؟ أو تقدر تسرح على الحواكير حافية القدمين من الفجر للعصر؟».

«إذا العريس كويس أنا برضى يا جدو». قالت التي لم تنتسب بعد للصف الأول، وانفجرت الحلقة بالضحك، ولم يتجاوبوا للوهلة الأولى مع الصوت الذي أخبرهم أن الطعام قد جهز.

«ماذا طبخت أمك اليوم؟» سأل العجوز الصغيرة، فأخبرته أنه ملوخية بالرز وسلطة طماطم. وجه الجد السؤال إلى حفيد آخر، فأخبره ظنه أن طبيخهم محشي كوسى، وأجاب حفيد ثالث ممن يقطن بالقرب أنه لا يعرف. طلب من كل منهم الركض إلى البيت وإحضار طبق مما طبخت أمه، وأبلغهم أنهم سيأكلون معاً اليوم.

كان الصغار من أحفاده وسلالته الذكورية والأنثوية قد تجاوز تعدادهم الستين، معظمهم يقيمون في المنطقة، ولكن المتجاورين منهم حوالى العشرين، أما المتقاربون في السن والذين يتجمعون حوله أحياناً، وخصوصاً أيام الجمع، فكانوا في حدود الدستة. «الأمور ليست بذلك السوء». حادث نفسه بانتظار وصول الوجبات سريعاً، وكان من بقوا قد باشروا يفرشون النايلون على الأرض ليحيطوا مع الجد بالطعام. «أنجبت أجيالاً متعلمة في كل التخصصات العلمية والأدبية.. وتربية أجيال متتالية طوال ثلاثة عقود في سلم التعليم.. صحيح لو كنت شجاعاً مثل أطفال هذا الجيل الذين يقاومون بالحجارة وبالصمود، ربما لما كانت الحال كما هي الآن.. لكنها الآن جيدة أيضاً، والقصة طويلة طويلة وعريضة. ما يخطئ به الجيل الجديد هو خطؤنا القديم ذاته: الثقة في سياسيين غير جديرين بها». تذكر أن كل الذين ينصبون ذواتهم قيادة وأصحاب قرار وهم نيام

نيام، أعمارهم فوق منتصف العقد السابع ورئيسهم في منتصف الثامن.. كلهم فاقدون للأهلية والصلاحية ويرفضون التجديد، بينما جموع القرود طيبة ولا تريد إثارة انقسامات تؤدي إلى اقتتال وتزيد البلاء أضعافاً، فيقبلون بالقرود العجوزة العاجزة وهم يشتمون أصولهم وفروعهم على الدوام.

«الأكل جماعة عادة محببة وتكاد ترتقي بنا إلى مصاف البشر». قال العجوز بعد أن التف الصغار حول الصحون وسُمح لهم بالبدء. «نأكل سوياً في الأفراح وفي شهر رمضان، وفي أيام العزاء بفقيد». كان يأكل ببطء ويقدم للصغار الصحون والخبز. «أيام العزاء ثلاثة وكانت زمان من الصباح إلى المساء، أما الآن فهي الفترة نفسها ولكن من المغرب إلى العشاء فقط. أهل المتوفى لا يطبخون طوال الأيام الثلاثة، كان الجيران والأصدقاء يتولون إطعامهم وإطعام المعزين. وعندما يموت واحد كانت القرية كلها تتوقف عن العمل وتشارك في وداعه، وفي المقبرة يقول أحدهم للحضور أنه سيتولى الطعام.. كانت علاقات اجتماعية روعة. كنا أقرب إلى البشر مما نحن للقرود».

«أيام زمان كان اللي يموت يطلع قتيله في الليل.. زي أفلام الرعب؟» قال أحدهم وقد أمسك محشية كوسى بيده.

«هل شفت أنت أي قتيل في الليل؟» سأل العجوز الصغير محاولاً تذكر اسمه، وأكمل: «أكيد ما حد منكم شاف قتيل أو عفريت أو زمبي زي الأفلام.. هذه أفلام رعب وقصص». رأى العجوز أن بعضهم يريد تأكيد العكس، فواصل حديثه: «اللي تسمعوه عن أيام زمان كان تخلفاً، يعني يقولون كان في هناك أبو رجل مسلوخة، وكان الضبع والسبع والذيب. ويحكون أنه في شوارع ساكنها ضبع وما حدا يمرق هذا الشارع في الليل. وكان القتلاء اللي يطلعوا للمارة في الليل وكان الواحد منهم يتصور أنه ركب على ظهره عفريت، وصارت رجلاه تطول وتجر على الأرض. هذا

كله كلام فارغ. عندما تشاهد أي شيء تظن أنه عفريت أو جن فلا تخف، تمهل وتمعن وحينها ستجد أنه خيال لشيء أو انعكاس ضوء أو شجرة تحركها الريح.. المهم لا تستسلم للخوف والخيالات فهذا كله وهم وإشاعات ومما تسبب بنكبتنا». تمهل وفكر في تقديم تفسير: «زمان كنا نلبس جلد الخروف مثلاً، وطبعاً تبدو للآخرين من بعيد مثل عفريت، خصوصاً إذا لابس لفة على الرأس.. وفي أيام الريح القوية تتكسر أفرع الشجر وتطير، فمن يرها يظن أنها جن يحلقون.. أنا ذات مرة شفت في الليل شيء يضيء بين ألواح الصبر، فخفت وعدت للبيت». أنشد الصغار وتوقفوا عن الأكل: «في الصباح نظرت إلى المكان فإذا به مليء بقشر السمك وهذا في العادة يضئ في الليل». ضحك البعض وخاب ظن الأغلبية، ولكنهم لم يحاجوا جدهم.

كان ذلك السمر بين الجد والأحفاد في صيف ٢٠٠٧، وفي العام ذاته سافر الابن الأكبر إلى بلاد قرود الفرنجة، وتقبلوه كلاجئ مُطارد في بلاده من المتشددين، وبعد عام آخر سمحوا له بإحضار الزوجة والقرود الصغار، وأيضاً وافقوا على لجوء والده.. وحتى عام ٢٠١٨ انتقلت الزناءات والأزواج والصغار تباعاً، كلهم لجأوا من الاضطهاد الأخوي، وهروباً من الأجواء وحياة الحصار. كانوا جميعاً يعملون في وظائف محترمة، ولم يُعتقل للعائلة أو يستشهد أحد. الجد أصبح في مهجره يتفرج على صندوق الزمبي معظم الوقت متابعاً للأخبار التي هرب منها، وعندما يجالس الصغار لا يمكنه التفاهم اللغوي مع بعضهم، والإناث لم يتقن الإفرنجية بعد ويتصرفن بانطلاق كمن يعاني نقص الحرية ويجتهد للتعويض، والأزواج تحولوا إلى طباخين على أمل أن يرتقوا إلى أصحاب مطاعم.. وكلهم يتفحصون المحال أينما ذهبوا علهم يجدون مطعم فلافل أو شاورما يعيدهم إلى أيام زمان.

هروب الأجداد وهجرة الأحفاد

وصلتا إلى البيت هي وابنتها متورمتي الوجه من آثار ما فعل البعوض بهما طوال الليل، دخلتا إلى دش ماء بارد أقرب إلى الملوحة منه إلى الماء العذب، ثم غطتا في النوم. طوال الأربع والعشرين ساعة المنصرمة لم تتمكنا من زيارة مرحاض، أو النوم. كانتا عائدتين من رحلة أخذتهما إلى أقصى الكوكب لتختبرا إمكانية الهجرة مع بقية العائلة إلى هناك، الزوج وأربع صغيرات أخريات، لكن الأم قررت العودة مع ابنتها إلى بلدهما الأكثر ازدحاماً على وجه الكوكب، ليس لكثرة السكان، فهم مليونان فقط، ولكن قطاعهم صغير جداً بمساحته ويضيق على أهله والذين هاجروا إليه قبل سبعة عقود.. ضاق جداً في العقد المنصرم من تأثير حصار شديد شارك فيه الأعداء وغيرهم ممن يُعتبرون إخوتهم في العقيدة واللغة والعادات، وكلاهما جيران يشتركان مع البحر في حصار قطع الماء والكهرباء والكثير من الطعام، وأعاق التصدير متسبباً في تدمير بقية الاقتصاد.. وأهم ما في الحصار، كان حرمان السكان من مغادرة ذلك القطاع المزدحم، وعندما سمحوا للأسرى بالمغادرة حولوا رحلة من سيعود منهم إلى جحيم.. إنها مؤامرة تطفيش ضمن المخطط الأصلي للقرود الزرق والجمود وصنائعهم في الجوار، الذين بعضهم يُحاصر علناً، وغيرهم يكف يده ويمنع الدعم، بل أصبح هناك من يطالب أهل البلاد بالسكوت على الاغتصاب وما يعايشونه من تعذيب جماعي، ويحثهم على التنازل عن الحقوق.

«.. أبو جدك حمل جدك على الحمار عندما طردوا من قريتهم بالقوة أثناء الحرب عام ١٩٤٨، كانت العائلة وبقية سكان القرية خائفين على أرواحهم من قصف طائرات لم يشاهدوا مثلها من قبل في حياتهم.. كانوا يعرفون بوجود طير أبابيل ترمي بحجارة وليس طائرات ترمي قنابل ونيران».

«لكن إحنا بنشوف كل يوم أحدث الطائرات ونسمع قصفها.. عشان هيك إحنا هاربين الآن نبحث عن مكان يأخذنا لجوء؟» قاطعت أما أمها، لما، مستوضحة. هي في السابعة وكانت تشارك في الأحاديث وتنصت لما يقال ويُدبر قبل سفرهما. كان المقطع الأول من الرحلة يأخذهما نحو الشمال الشرقي، لتمرّا بعد أول الحواجز للمحتلين المُحاصرين لقطاعها، عبر بلادهما التي هُجر منها الأجداد. في ذلك اليوم اجتازتا الحدود عبر النهر المقدس إلى البلد المجاور، وبعد استراحة ليومين عند أقارب أقلعتا إلى البلد المنشود من لاجئي الطبقة الوسطى، حيث يتوافر العمل ويحُترم كل مُحترم.

«دوماً تفجعينني بصراحتك».. قالت الأم وأمسكت بيد الصغيرة إثر مطب هوائي خفيف. «.. تحمينا آلهتنا من المطبات، وما زال أمامنا عشر ساعات طيران». حافظت الصغيرة على صمتها لتُفهم الأم أنها بانتظار إجابة أو تفسير، ولن تقبل بسهولة تغيير الموضوع. «أبو جدك لما هاجر مع الآخرين كانت الدنيا حرب، والناس خايفة، والدعاية من الأعداء منتشرة أنهم سيذبحون الجميع». توقفت عن الحديث ونظرت مباشرة إلى عيني صغيرتها، فقرأت فيها: الدنيا الآن حروب وأشد وأعنف والجميع خائف وشبه جائع من أثر الحصار، وكل يوم يهددوننا علناً وصراحة قولاً وفعلاً بالموت، ولذلك نحن في الجو بحثاً عن فرص اللجوء.

«أبو جدي لما هاجر مع الآخرين ركب الحمار لبضعة كيلومترات

فقط، أما نحن وبعض الآخرين فنركب البحر والجو عشرات آلاف الكيلومترات إلى بلاد غريبة، بينما بقية القرود في البلد يقومون بمسيرات العودة».. كانت الأم تنظر إلى صغيرتها مشدوهة مما تسمع، وظنت لوهلة أنها في خواطر ما قبل الحلم. «.. صح؟ كم واحد خرج حتى الآن من قطاعنا منذ فتحوا المعبر؟». أفاقت لما وألقت نظرة خاطفة على المسافرين خلفها، وتأكدت أن المتحدثة هي بالفعل ابنتها أما.

«طيب يا حدقة ليش كنتي ساكته هناك، ولم تعارضي هذه الرحلة الاستطلاعية؟».

«لأنك كنت ستسافرين وتأخذين إحدى أخواتي بدلاً مني». أجابت أمها وضمت يديها إلى صدرها. «بعدين لازم إحنا تعلمنا من تجربة أبو جدي».. توقفت وقد فتحت الطاولة أمامها لاستقبال علبة مشروب غازي من المضيفة. «.. كل تلك القصص عن والد الجد، حدثيني عن جدي أنا». قالت الصغيرة، وحاولت أمها تحسس ما إذا كان في الأمر مصيدة، أم أن الصغيرة تراجعت. قبل أن تنطق الأم أضافت الصغيرة سؤالاً: «أنت وحيدة جدي الثاني، وحيدة والدك، صحيح؟».

«صحيح يا قردة».. أجابت وسرح ذهنها في الذكريات. كان والدها قد اعُتقل عام ١٩٦٩ بينما هي في بطن والدتها وينقصها شهر آخر كي تخرج إلى النور. هناك في المعتقل وأقبية التعذيب خصوا والدها من شدة الضرب والتعذيب، ولم يعد بوسعه إنجاب غيرها بعد أن تحرر في صفقة تبادل أسرى في العشرين من مايو/أيار ١٩٨٥. فجأة قررت أن تخبر ابنتها قصة جدها. «جدك، عليه الرحمة»..

«كان يحب جدتي.. لو هاجرنا هل ستأتي جدتي معنا؟».

«لا أعتقد أنها ستترك بيتها وقبر زوجها ومعارفها لترحل معنا إلى بلاد غريبة ولا تعرف لغتها.. لكن بدك سماع قصص عن جدك أم

تنامي؟» أشارت إلى والدتها بأنها تريد الاستماع. «كان يحب أمي كثيراً، وهي أحبته وصبرت كل فترة شبابها تنتظر خروجه من السجن المؤبد.. مؤبد يعني طول الحياة، ولكنها لم تفقد الأمل وانتظرت حتى حدث ما لم يكن في الحسبان».. خفضت صوتها وهمست في أذن الصغيرة: «..لو لم نخطف منهم جنوداً لما بادلونا بالأسرى، ولما خرج أبي من السجن». وهمست الصغيرة بالمقابل: «لدينا الكثير من الأسرى ولديهم آلاف الجنود.». أشارت لها الأم بالتوقف عن هذا الحديث. نظرت أما إلى الركاب عبر الممر.. معظمهم عجزة ممن يتنقلون بين بلدانهم الأصلية والجديدة في الإجازات، وبعض الصغار ممن يُرسلون إلى الجدات لتعلم اللغة والعادات، لم تشاهد أجنبياً أصلياً. أشارت إلى أمها مستفسرة لماذا الهمس؟. «أخبرتك في مرة سابقة، هل نسيتِ؟ السمكة التي لا تفتح فمها لا تُصاد».

«يعني إحنا مهاجرين لبلد لا يمكننا فيه الحديث عن أجدادنا، أو استعمال لغتنا أمامهم؟» قالت الصغيرة فضمت أمها يديها ورفعتهم كمن يصلي.

«أنت ولدت بعد اعتقال جدي!» أعادت القردة الصغيرة الحديث إلى مجراه.

«صحيح، لكن في أول زياراتي له كان عمري ثلاثة وعشرين يوماً، وصرت أزوره مع أمي كل شهر وطوال أحد عشر عاماً، ثم تغيرت القوانين وأصبحنا نزوره كل أسبوعين. وحين خرج كان عمري ستة عشر عاماً، يعني في سن والدتي عندما تزوجت والدي، وكان عمره آنذاك اثنين وعشرين عاماً. تزوجا بعد حرب ١٩٦٧ بعام، وقد أصبحت كل بلادنا وسكانها تحت الاحتلال. في يوم ربيعي من شهر مارس ١٩٦٩ هاجموا البيت بالكثير من القرود، كسروا الباب قبل أن نفتح لهم».. نظرت إلى أمها رافعة حاجبيها،

«.. قصدي قبل أن تفتح أمي أو أبي لهم الباب، أنا كنت في بطن أمي.. أنت هويلي شوية ما تدققي على كل حرف في الرواية.. أنا أخبرك ما كان وكما سمعته من فم أمي مراراً وتكراراً». أومأت أما بالموافقة فواصلت لما الحديث الحذر الهامس لابنتها: «جدك كان شيوعياً، فاهمة شو شيوعي؟» لم تقل أبي كان شيوعياً، بل جد الصغيرة، وكأنها تدفع بالتهمة عن نفسها وتلقيها على أما: «أنت أصلاً تشبهين جدك في الطباع، صريحة، هجومية، دقيقة الملاحظة، وعاملة نفسك أم العريف».

«احترمي جدي، أحسن يسمعك، إحنا الآن في السماء وقريبين منه ومن البشر المحترمين الذين يقال إنهم موجودون بيننا ولا يراهم إلا الطيبون من القردة.. أصلاً لو كان على قيد الحياة يمكن طخنا قبل ما نفكر في الهجرة». قالت الصغيرة بقسمات تبدو عليها جدية الرأي. لم تخبر الأم المصدومة صغيرتها بأنها عاشت فترة من الغيرة عندما خرج والدها من السجن وفاز بكل اهتمام زوجته.

«اتهموه مع آخرين بتدبير هجمات مقاومة للاحتلال وباشروا معه التحقيق والتعذيب بكل أنواعه طوال عام كامل».. توقفت وراجعت ذهنها، هل تخبر الصغيرة عن أنواع التعذيب بالضرب والحرمان من النوم والحرق بالسجائر والضغط بالقدم على خصيتي جدها الذي تهدد الآن أنه سيطخهم. «.. عذبوه كثيراً ولأنه عنيد لم يعترف لهم بشيء، ولكنهم اتهموه بشغلة كبيرة».. غمزت للصغيرة بعينها ففهمت هذه تخوف أمها من استماع بعض الركاب إلى الحديث، فأومأت برأسها. «.. وحكموه مدى الحياة». قالت بهمس شديد. «يوم خروجهم من السجن وقفت البلد كلها استعداداً لاستقبالهم كالأبطال، لم ينسوهم، وطوال ساعات كانوا يتلقون القبلات والأحضان من الجميع.. رأيت الحياة تدب في عروق أمي فجأة، كانت شبه مغيبة طوال السنوات السابقة تمني نفسها بأمل الإفراج عنه.. ثم

ها هو أمام عينيها وهي تصرخ عليه في الزحام، أنا نبيلة، أنا نبيلة».. تذكرت لما ذلك المشهد وأخرجت منديلاً ومسحت دموعها، وساد الصمت ونشطت الخيالات، لكن قبيل أن تغطا في النوم اتخذت الصغيرة، أما، قرارها.. وكذلك فعلت أمها. لم تقدم طلب اللجوء في مطار الوصول كما كان مقرراً حسب خطة العائلة، لأن تقديم الطلب سيعني احتجاز جوازات السفر وعدم مغادرة البلاد قبل اتخاذ قرار.

«سنمكث أسبوعاً نتفحص الوضع، إذا أعجبتنا البلد وناسبتنا، سنقدم الطلب، أو نعود إلى بلادنا ونعيد التباحث مع العائلة». صارت أما تتقافز من الفرح وهي تدفع عربة الشنط خروجاً من المطار، ولم يتغير شعورها حين عادت الأم إلى الحديث: «.. لكن الورطة أنني لن أتمكن من العودة أو مغادرة البلاد مجدداً عبر المعبر الشمالي.. لنأمل أن يبقى المعبر الجنوبي مفتوحاً حتى نعود». كانت لما قد وقعت للقرود الجمود المحتلين على ذلك المعبر تعهداً أنها لن تعود إلى البلاد قبل عام كامل، وإلا لن يسمحوا لها بالمغادرة.. فوقعت ظناً منها، أو هكذا أقنعت ذاتها، أن فترة الاختبار في مهجر اللجوء ستطول لعام أقله. ارتاحت حين تأكدت عبر جوالها أن المعبر الجنوبي ما زال مفتوحاً، على غير العادة. عرفت في الأيام التالية أن خمسة عشر ألف شخص قد غادروا عبر المعبر في بضعة أيام، معظمهم عائلات من الطبقة الوسطى عازمون على الهجرة بحثاً عن حياة خارج الحصار وبعيداً عن اليأس الذي أشيع طوال سنوات. تذكرت جملة قالها صديق قبل أن تستقلا الطائرة: إذا كان أمثالكم المميزون سيغادرون، فمن الذي سيبقى في البلد، وكيف ستصبح؟

طوال اثنتي عشرة ساعة طيران أخرى في رحلة العودة، كانت أما متحمسة ومتشوقة لرؤية أخواتها لتحدثهن عما شاهدت، وعن البلاد الغريبة الجميلة التي غادروها، وكانت لما تخطط ماذا ستقول عن سبب

العودة السريعة وتبرير تبذير الأموال في تذاكر طيران غالية الثمن. وصلوا إلى مطار جيرانهم، حيث تم احتجازهم في ساحة بجانب المراحيض ريثما تتجمع حمولة باص من مواطنيهم لنقلهم إلى الحدود. عند القناة لم يمرروهم من الأنفاق أو الكباري، بل أخذوهم إلى المعدية. انتظروا ست ساعات تحت حراسة مسلحة حتى يتجمع عدد كاف من الباصات ليقطعوا الماء ويسيروا في قافلة. لم تتذمر القردة الصغيرة أما ولو مرة واحدة مما تشاهد وتعاني، وبالكاد أقنعتها لما أن تزور مرحاض الباص تحسباً لما هو آت قبل الوصول إلى البيت. في الطريق عبر الصحراء، المقدسة، توقفت القافلة على ثلاثة وعشرين حاجزاً مسلحاً.. في كل منها تدقيق في الوثائق وتفتيش للحقائب وكل الخصوصيات، علماً بأن القافلة تسير بحراسة مسلحة، ولا توجد إمكانية لأخذ أي شيء في الطريق من أي طرف ثالث. بعد الحاجز الخامس قال أحد المسافرين: ربما يتوقعون أن تتزاوج ملابسنا وتنجب سلاحاً بين الحاجز والآخر. وصلوا المعبر قبل المغرب، جمعوا جوازات سفرهم، وتم احتجاز كل العائدين حتى اليوم التالي ظهراً، أسئلتهم لا تُجاب، ولم يحتجوا بشدة، فكلهم متشوق للعودة إلى حوض السردين، إلى الغيتو.. احتجاز في ساحة مكتظة لا توجد فيها أي منافع صحية صالحة للاستعمال. هنا سألت أما أمها: لماذا يعذبوننا هكذا؟

«عملتِ حالك حدقة طوال الأسبوع وبدك ترجعي، والآن مش عارفة تجاوبي على أسهل سؤال».

أجداد وأحفاد المجاعات

وضعت رضيعها على سرير جدها التسعيني الراقد في المستشفى. هي لا تحب حضور الجنازات، وفضلت زيارة الجد العاجز عن النطق والقادر على الاستيعاب، ليراها وابنها قبل أن يموت.. قالت إنه تبسم لها وله، وعرف أنه رضيعها الثاني. كان ذلك في عام ٢٠١٤، وقبل اثنين وسبعين عاماً كان الجد يرقد مصاباً في مستشفى باخرةٍ راسيةٍ في أكبر ميناء محتل في القارة السوداء، هيردنكسا. قصفت طائرات القرد المتغطرس، الرهوف، سفينة المستشفى فغرقت وقتل مئة وخمسة وستون جريحاً وممرضاً من جنود القرود الزرق، لكن هذا الجد نجا من ذلك الموت ليواكب تطورات الحياة وتغيرها وتبدلها. كان يافعاً عند الالتحاق بالجندية هرباً من بؤس القرية، إذ زيف تاريخ ميلاده ليقبلوه في الخدمة العسكرية، لم يكونوا ليهتموا أصلاً بفرق عام أو ثلاثة، فالحرب تطحن وتأكل وتتطلب. أراد أن يصبح طياراً حربياً، ولكنهم في الجيش تنبهوا لقدراته الميكانيكية فضمّوه إلى هندسة الطيران، وقالوا له إن الطيارين القرود يموتون كالذباب وبالجملة، ونحن بحاجة إلى من يهتم بالطائرات. كانت الحرب قد عمت كل الكوكب، وبالكاد نجت أي فئة من قرود من تأثيراتها، ويقال إن البشر في السماء شعروا بتلك الحرب من شدة أهوالها، لكنهم بالطبع لم يتدخلوا وتركوا القرود تطحن بعضها. كانت السفينة المغدورة من صنع وملكية قرود النايلط، وسرقها القرود الزرق

منهم واستعملوها كمستشفى حتى قصفتها طائرات الررهوف حليف النايلط.

الجد التسعيني يتبع للجزيرة الخضراء المحتلة من القرود الزرق، جيرانهم الزيلجن، وذلك طوال ثمانية قرون سبقت، وقبل قرن واحد من تاريخ الحرب الكونية عانى والد جد هذا الجد وبقية سكان الجزيرة الخضراء، عانوا مجاعة دامت خمس سنوات تسبب بها الزيلجن. حصدت المجاعة المنظمة من هذا المستعمر أرواح مليون مخلوق، وهاجر من الجزيرة الخضراء إلى العالم الجديد مليونان، أي نقص نصف تعداد السكان بسبب سياسة الزيلجن. والد جد الجد لم يهاجر، وتزوج وأنجب جد الجد الذي صار يعمل معلماً، وكانت زوجته مديرة مدرسة هي الأخرى. هذه العائلة ذات أصول إفرنجية ومن طائفة دينية مماثلة للزيلجن ومختلفة عن سكان الجزيرة الخضراء، ولهذا شجع المستعمر هجرة أبناء طائفته من أي بقعة إلى الجزيرة الخضراء الجارة واستيطانها لضمها وهضمها باسم حقوق الطائفة المستوطنة.

كانت المجاعة هي الأخرى سلاحاً خلقه واستعمله الزيلجن لقتل وتهجير أبناء الطائفة الأخرى وتهجيرهم. بقوة الاستعمار والاحتلال استولوا على الأراضي، وسخروا أصحابها الأصليين للعمل بما يسد الرمق. حولوا المحصول التقليدي من بطاطس إلى قمح بغرض تصديره، ولم يكن السكان الأصليون يأكلون القمح ولم يُقدم لهم أصلاً. بدأت المجاعة بإصابة البطاطس بآفة لم يهتم المستعمر بمقاومتها، وعندما ظهرت أولى بوادر المجاعة، صار الزيلجن يصفون سكان الجزيرة الخضراء بالكسل وشرب الخمور والتسول وأنهم يدعون الجوع. هذا الحال وتطوره نحو الأسوء حرك بعض الزيلجن لجمع المال وإقامة مطاعم متنقلة لمقاومة الجوع وإنقاذ الأطفال الذين تحولوا إلى هياكل عظمية متحركة ببطء

وفاقدة لأي ابتسامة. السلطان الكرتي سمع بما يجري فعرض مساعدة بعشرة آلاف جنيه ذهبي، لكن بعد مشاورات سفير الزيلجن مع بلاده طلب من السلطان التبرع فقط بألف جنيه لتكون مساعدته نصف المساعدة التي ستعلن عنها الملكة، ملكة الزيلجن وملكة البلاد المحتلة منهم والتي لا يغيب عنها الظلام. وافق السلطان وأرسل المبلغ وعدة سفن تحمل الأغذية، لكن الزيلجن منعوا وصولها إلى الموانئ فأنزلها البحارة الكرت في مناطق عدة على شواطئ الجزيرة الخضراء. هكذا تعاظم الظلم فتعمقت الكراهية في القلوب.

الجد التسعيني وفي خضم الحرب الكوكبية بعد قرن من الزمن، والشعور بالانتماء للزيلجن الذين جلبوا أجداده كمستوطنين، ومن حب المغامرة ورغبة في الخروج من الجزيرة، اعتبر ذاته مناصراً للقرود الزرق وانضم إلى جيشهم، فأخذوه إلى القارة السوداء وتحديداً شمالها وغربها ليحارب القرود الشقر الأعداء على أرض وفي سماء وبحار القرود البنيين والسود. كانت أغلبية جنود الزيلجن من قرود المناطق المحتلة المستعمرة عبر الكوكب.. فُرض الاحتلال على بلادهم، والنهب لخيراتهم، ودفع الضرائب، ثم تجنيدهم كوقود لحروب غبية.

لم يكن الرضيع، ابن الحفيدة الذي أبسم التسعيني في فراش المرض، أبيض اللون مثل أمه وجدها، ولا قمحياً مثل جده والد أمه، أو أسمر غامقاً مثل جده والد أبوه، كان بلون الكاكاو وذلك كون ابنة التسعيني تزوجت من ابن أحد ضحايا سياسة الزيلجن الذين طردوا من وطنهم، فأنجبا حفيدتين انضمتا إلى العديد من أحفاد التسعيني البيض ولأكثر من سبعين حفيداً للجد القمحي.إحدى الحفيدتين تزوجت من أحد رعايا دولة في عمق القارة السوداء، تضررت هي الأخرى وسكانها لقرون من نهب وظلم واحتلال الزيلجن، فأنجبا طفلاً وطفلة بلون مختلط بين الأبيض والأسود،

وهذا ما تقول العلوم الحديثة أنه قد حصل مثيله قبل ملايين السنين، عندما خرج القرد من غابات القارة السوداء إلى ثلوج ووديان القارات الأعلى والأنصع بياضاً.. تكرار للتاريخ وإثبات أن الحروب غير قادرة على الفرز.

حفيدة الجد التسعيني الذي غادر عالمنا تعيش مع زوجها الأسود وطفليها الكاكاو في عاصمة الزيلجن. الطفلان متفوقان في المدرسة على نظرائهم غير المختلطين، بينما الأب يعمل في أهم مؤسسة حقوقية كوكبية مقرها العاصمة، أما الأم فقد حركها شعورها الذي يقترب من سمو البشر، حركها لإقامة جمعية لرعاية ذوي الحاجات الخاصة من الزيلجن الذين لم تعد حكومتهم ومؤسساتها البلدية تهتم بهم، لأنهم ذوو حاجات خاصة، ولا يعرفون لمن يصوتون في البورصة السياسية وبالتالي لا يرى السياسيون فائدة في أصواتهم الانتخابية، وتركوهم للاحتيال والإهمال والجوع.. كان ذلك حتى أسست لهم الحفيدة جمعية يقارعون بها الحكومة ويجمعون التبرعات بما يكفي حاجاتهم ويفي بغرض توسعهم المتوالي.

الطريق الذي أوصلها إلى هذه النتيجة لم يكن فريداً، ولكنه أيضاً ليس عاماً وتسلكه أكثرية أو حتى أقلية. بعد تخرجها في الجامعة عملت في شركة تصنيع أغذية شهيرة، اختلفت مع المديرين حول صنف جديد أرادوا تصنيعه، كان رأيها أن هذا الصنف سيفشل، وعندما فشل، لم يتأسفوا ولم يُحاسبوا على الخسارة التي تسببها ذلك الصنف، فاستقالت. عرضوا عليها خمسين بالمئة زيادة في الراتب لكنها انفصلت عنهم. انضمت إلى جمعية تنموية رسمية تابعة لوزارة الخارجية، فأرسلوها للعمل في أفقر بلد على ظهر الكوكب، حيث يباع الأرز مطبوخاً في السوق، وتباع الخضار بالحبة وليس بالكيلو، ويباع الحطب في رزمات صغيرة كوقود للطبخ. لم يعجبها الهدر في نقود التنمية، ولا أسلوب عملهم المتعالي والتمييز بين العمال المحليين والأجانب.. استقالت وتعلمت اللغة المحلية المشتركة

بين قبائل ذلك البلد في وسط غرب القارة السوداء، وأصبحت تتجول وتساعد بطرق تعليم مساعدة القرود لذاتها. هناك تعرفت الحفيدة إلى زوجها.

زوج الحفيدة.. أكمل تعليمه العالي في عاصمة الزيلجن ووظفته أكبر منظمة حقوقية تعمل لحقوق القرود على مجال الكوكب. قبل ذلك أنهى تعليمه الجامعي في ظروف صعبة. ماذا تعني ظروف صعبة؟ بالكاد وفر مخصص غرفة السكن الجامعي المشتركة، وكان يزور العائلة كل أسبوع سيراً على الأقدام طوال ساعات لانعدام ثمن تذكرة الباص. يأخذ من الأهل بعض ما ادخروه من طعام ويعود به إلى الجامعة، فيأكل باقتصاد لثلاثة أيام، ويجوع لثلاثة أيام أخرى. هكذا أصابته لاحقاً هذه المجاعة بحالة لم يعد فيها جسمه يتقبل أي زيادة في الوزن مهما أكل. في صباه مر بتجربة الحرب الأهلية في بلاده والتي مولها وحركها مهربو الألماس من رسميين وعصابات ودول.. وبالطبع كان سبب البلاء لقرون مضت هم الزيلجن الذين احتلوا البلاد بالمدافع وشحنوا قرودها كعبيد إلى مستعمراتهم الأخرى، وكان نصف الشحنة يموتون في الطريق ويلقون في البحار.

تغيرت الظروف وبقي الموت ينتظرهم في البحر. الآن يدخر المتعلمون بعض النقود ويدفعونها للمهربين لإيصالهم عبر الصحراء إلى الشواطئ الجنوبية، ومن ثم في قوارب خطرة إلى الضفة الشمالية، أعدادهم أصبحت بالملايين، ومعظم الناجين يعملون كالعبيد بأجور رخيصة. ثم أنتجت الحروب الجديدة التي تسبب وشارك فيها الزيلجن أنواعاً جديدة من المهاجرين اللاجئين الهاربين من الخوف والجوع والموت إلى بلاد لم تعد متقاتلة وتضمن بعض الحقوق. حتى في هذه الحالة فالمستفيد هو المستقبل والمتضرر هو المُصدر الذي أنفق على معيشة وتعليم هذه

القرود الشابة، وها هي في النهاية تهرب وتخدم البلد المستقبل والمتسبب أصلاً في هذا البلاء المتكرر الذي لا نهاية له على ما يبدو.

جد الحفيدة القمحي كان هو الآخر من بين ضحايا الزيلجن الذين تآمروا مع الجمود مقابل النقود التي احتاجوها لحروبهم، تآمروا على طرد سكان البلاد بالغدر والتحايل ثم بالقوة، وتهجير الجمود إليها واستيطانها بالقوة، وهكذا تسبب الترحيل والتهجير في سنوات من المجاعة أثرت في حياة وصحة المواليد أثناء أعوام الهجرة. لذلك كان جد الحفيدة ومعظم جيله عندما يبصقون على الأرض يقولون: تفوه على جورج وعساكره.. أي جورج السادس ملك الزيلجن في فترة نكبة الجد ومليون مثله أصبحوا الآن ثلاثة عشر مليوناً مشتتين عبر الكوكب، ومن ضمنهم هذه الحفيدة التي ترعى الآن وتساعد المعوقين الزيلجن لنيل حقوقهم من حكومتهم التي لم تعد تمثل إمبراطورية لا يغيب عنها الظلام، وعادت لتتكور وتنحصر في جزيرة منفصلة عن جيرانها، ويبدو أنها ستتعرض للتقسيم الداخلي جراء نتيجة سياسة الطائفية والغطرسة التي سارت عليها سياسة الزيلجن منذ قرون.

لا توجد أية مشكلة قديمة أو حديثة إلا وللزيلجن يد مباشرة فيها أينما كانت في هذا الكوكب.. عنصرية، مجاعة، طائفية، حروب، استعمار، نهب، كذب، فرق تسد، الخ. إمبراطوريتهم لم تقم على الذكاء والاختراعات وتطوير وتنمية الآخرين، ولكن على القتل والنسف والاستعباد، ولأنها بذلك سياسة غبية، فها هي ترتد إلى صدورهم: اضمحلال الإمبراطورية، ضعف عام في الاقتصاد والقوة حين نضبت موارد النهب التي أعطتهم العيش الرغيد، كراهية جمة لهم عبر الكوكب، وتحديداً الآن من جيران جزيرتهم. ثم تقسمت جزيرتهم إلى طوائف متضادة تسعى للاستقلال عن بعضها، وتحول مجتمعهم بسرعة إلى قرود هرمة يتراجع فيها تعداد

الصغار واليافعين ونسبتهم، ولم يستوعبوا بعد أنه لم يعد أمامهم سوى الانتحار التدريجي المتسارع أو فتح بلادهم لأفواج المهاجرين بأنواعهم، ليعمروها بشكل أو بآخر.

لو تجسدت سياسة الزيلجن طوال القرون المنصرمة وإلى الآن، ولو تمثلت في قرد واحد لصح فيه الوصف: مخادع وكاذب بعمق، يتركب من أجزاء ذئب وخنزير وثعلب، وربما أيضاً ثعبان.

أصل البلاء وفروعه

«جابونا هون الزيلجن.. الله يهدهن. جينا سنة ١٩٤٨ على هالبلد بالبواخر، جينا وتجيرنا من سبعين سنة». تتحدث بلهجة نانبل، علماً بأن لهجتها الأصلية ساحلية أيضاً ولا تختلف كثيراً، فهي من مدينة افاي وأجابت المذيع الذي يحمل لها ميكرفوناً، أن عمرها كان أربعة عشر عاماً عندما هجرها الزيلجن بحراً من مدينتها. استقبلت المذيع في المخيم متكرر النكبات معرفة عن ذاتها: «أنا أم الشهيدين، أم لخو. من افاي، المنشية، قرب جامع حسن بيك». هكذا أجابت عن سؤاله: كيف حالك.

«من افاي يا حجة؟» سألها المذيع ويبدو أنه تشكك في إجابتها أو عقلها وقد بلغت الرابعة والثمانين، أو ربما أراد السؤال فقط ليقوم بدوره وعمله الذي لم يكن مستعداً له ويرمي بالأسئلة كما تأتي إلى ذهنه. سار المذيع ومرافقوه بعضهم خلف بعض نظراً لضيق الشارع، ومروا ببعض الشباب مفتولي العضلات قبل أن يصلوا إلى الحجة التي كانت تنتظرهم مستندة إلى جدار مدهون حديثاً.

«آه والله من افاي، وعندنا خمس بيوت هناك». صرخت عليه وقد أسندت مؤخرتها إلى الجدار الأصفر الذي يتحدى أوامر منع إدخال مواد بناء إلى المخيم، إسمنت، حديد، مسامير، أو دهان.

«خمس بيوت يا حجة؟» عاد المذيع لأسئلة تشكيكية وكأن هذه العجوز لم تجابه في حياتها ما يكفيها عشرات المرات من التشكيك بما هو لها.

«آه وحياة الأنبياء، ودار الحوت بقربولنا.. صار إلنا سبعين سنة هون. افاي نفسي أروح أشوف بلدي، لازم أروح أشوف بلدي». لو عرفت أن مدينتها من أقدم، إذا لم تكن أقدم مدينة على الكوكب، لقالت له ذلك. تاريخ المدينة المسجل والمحدد يعود إلى سبعة آلاف سنة.

«تروحي من هون لافاي.. كيف بدك تروحي؟» كان قرداً صبياً أشعث الشعر يستمع إلى الحديث من خلف الجدار ويطل عليهم مما يفترض أن يكون باباً، ولكنه بدون باب.

«مش مهم كيف، مشي أو باخرة أو طيارة المهم أروح». لم يكن بوسعها أن ترفع رأسها لتقوس في أعلى الظهر والرقبة، واتكأت بكفيها على ركبتيها. لكنها على ما يبدو قررت تغيير لهجة المذيع فأدخلته إلى واقع الحياة اليومي، ربما لتثبت له أنها متزنة وواعية لما تقول، وتعني ما تقول.

«شفت امبارح قديش قتلوا عالم، أطفال ورجال، حرام، فش مالسا، إحنا مالسا خلقنا الإله من جماعة الرسل والأنبياء». كانت الإشارة صالحة لتعبر عما حصل بالأمس في عدة أماكن يقطنها مالسيون، فقد قتل الجمود وجرحوا مئات في مسيرات العودة من مخيمات اللاجئين، وتصادف اليوم أيضاً الكشف عن قتل لمعتقلين تحت التعذيب في سجون أرض الشور، وتفجيرات في قارع النهرين وتفخيخ في ناتسناغف، أما في أرض النمي فحدث عن الموت للمالسيين أشكالاً وألواناً.

«انشاء الله نرجع افاي يا حجة أنا وأنت، هل هي حلوة؟» تقدم الصغير من خلف الجدار ليشاهد المذيع ويستمع إلى حديث الجدة. جلب آخرين في عمره وعاد ليجلس معهم على مصطبة خلف الجدة، ليظهروا أمام الكاميرا.

«يا محلاها، هم ليش مقتولين عليها؟ نرجع ونزور حديقة الحيوان

وملبس وجريشة وسيدنا علي وشارع جمال باشا. مدينتي خضرة ومليانة بياير وبيوت ومزارع. عند دار عمتي بيارة كنا نلف فيها في الكارة من كبرها». قالت وهي تبتسم، أو تحاول ذلك ولكن طيات وجهها لا تطاوع ثم انشدت بنغم على دلعونا:

«افاي يا افاي ما أحلى مياتك ونجوم السما تسمع غنجاتك». أهل المدينة يعتبرون أنفسهم قمة التمدن والتحضر والانفتاح، فمدينتهم هي عروس البحر، وهم ارستقراطيو الكوكب. عندما كان بقية العالم يعاني مجاعات ومصائب بين الحربين الكوكبيتين، أو فقراً وجهلاً مدقعاً في أماكن أخرى، كان اليافاوية يصيفون كل عام خارج المدينة في مواسم منظمة، وخصوصاً في منطقة روبين وتلة النبي حلاص بين المدينة وروبين، وهنا قذف الحوت النبي سنوي، على الشاطئ حيث كانوا يخيمون لأسابيع. اشتهرت أمثال شعبية عن ذلك الموسم الترفيهي وأهميته للعائلات، مثل قول الزناءة لقردها: يا تروبني يا تطلقني. «يا رب ما أموت إلا بعد ما أشوفك يا افاي». أكملت ثم تنبهت للمذيع فسألته: «أنت من أي بلد؟» تردد في الإجابة ففهمت وأجابت عنه: «أنت من القرى يعني، من وين؟» أجابها وبه حيرة أنه من قضاء سلبان. «آه بلاد حلوة». لم تلح عليه لمعرفة قريته وعادت تتحدث عن زيارتها إلى المدينة المقدسة كل سنة والصلاة في الحرم «بدهم ياخذوا الحرم والعاصمة، الحرم إلنا للمالسيين لا بد من الدفاع عنه». قالت وأنشدت: لو عشت عيشة النسر فلا بد من القبر. قالتها بصوت مليء بالثقة وهزت يديها، وسألته: «مش هيك؟» هز برأسه مؤيداً واختلطت مشاعره، وأشرفت دمعته على الهطول، واقترب الصغار منها ليحسنوا الاستماع.

أجاب بنعم عندما سألته أصحيح ما قالته عن رفض الخنوع والاستسلام، وعادت تقول إنها تنتظر منذ خمسة وسبعين عاماً، ولكن

هذا خطأ حسابي منها، فهي مُهجرة منذ سبعين عاماً. تذكرت أولادها بين لحظتي صمت: «ساعة بساعة وأنا بستنى أروح.. ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون». ربما تمنت لو كان استشهاد ولديها قد قرب يوم عودتها. أضافت وقد بدأت مشاعرها تختلط وتود القول شعراً ونثراً وخطاباً لتؤكد ما تريد، ولكن الذاكرة أسعفتها بأغنية فريد الأطرش: «عيني بتضحك وقلبي بيبكي، والله بيبكي يا أمه. هذول شهيدين مش واحد، لخو ومروان، راحوا وما ودعوني، ركبوا البحر.. كانوا الحيلة والفتيلة. قلبي يبكي عليهم، ما قالوا بخاطرك يا أمي». قبل المذيع رأسها ثم طلب تقبيل يدها فلم تمانع ورفعتها إليه راضية. ازداد عدد الصغار والفتيان المنصتين من حولها. أشار المذيع برأسه للمصور استعداداً للتوقف، لكنها واصلت الحديث عن شعر نسبته إلى فاطمة الزهراء عندما مات أبوها الرسول، ولا يوجد لهذا الشعر أي مرجع ولكنه مما يشجع به الضعفاء أنفسهم:

فراقك كنت أخشى فافترقنا وإن فارقت بعدك لا أبالي
ومن ذا لليتيم وقد مات بعلي فوا أسفاً على موت الرجال

لخو ومروان كانا ربما مع من ركب البحر مباشرة من الميدان عام ١٩٨٢ مبعدين على باخرة نانويه عن نانبل، وبضمان أكيرما أن لا يصابوا بأذى وأن لا يضام أهلهم الذين بقوا خلفهم في المخيمات. لكن على الأرجح أن الأخوين كانا ممن استشهدوا، ولم يُحصوا، في الدفاع عن العاصمة توريب وقت الحصار، ربما وقفا ظهراً إلى ظهر يتربصان بهذا العدو أو ذاك. بقية القصة بعد الإبحار معروفة، حصار جمودي للمخيمين وإطلاق الوحوش على الأطفال والعجزة والنساء. أم لخو لم تكن في تلك المخيمات، ولكنها عانت قبل ستِ سنوات من هذه المجزرة حصار قوات الأخوة لتل الريحان، وإطلاقهم الوحوش نفسها

على سكانه. جاعت وعطشت، واستنجدت واسترحمت، وقيل لها ولهم: نُحل لكم أكل القططة والفئران، وكانت القططة قد سبقتهم إلى الفئران، ثم تركت القططة والكلاب المخيم تحت وقع القذائف الأخوية، خمسة وخمسون ألف قذيفة أثناء اثنين وخمسين يوماً من الحصار. كانوا يعرفون ما ينتظرهم إذا استسلموا، ولكنهم وبعد سقوط آخر حنفية ماء في الحي التحتاني استسلموا، وكانت الحنفية عرضة للقصف والقنص قبل سقوطها، واستشهد حولها وقربها عشرات الأطفال الذين حاولوا الحصول لأهلهم على ما يروي الظمأ. استسلموا وواجهوا ما كانوا يخشون، وما لم يعد له معنى في قاموس أصحاب الضاد ولغتهم، اغتصاب طفلات، قتل، شق بطون، ربط الأرجل في سيارتين متضادتين وفسخ الجسد.. كيف للمصاب أن ينسى أو يسامح تلك المخلوقات أو خالقها؟

قبل يوم واحد من موعد انسحاب الزيلجن من البلاد المغدورة ١٩٤٨، نصحوا القيادات المدنية لافاي بالاستسلام للعصابات الجمودية حفاظاً على الأرواح وعلى المدينة، واستعد الزيلجن بنقل بحري لمن يريد من السكان. قبل تلك النصيحة دُك الجمود افاي لثلاثة أيام متوالية بالمدافع من دون اقتحام أو اشتباك. استسلموا، وأذيع الخبر فتدافع السكان المذعورون من القصف، والمتوجسون من خروج الزيلجن غداً، ومن استسلام القادة بدون اشتباك، تدافعوا إلى الميناء لاستغلال عرض الزيلجن بالنقل المجاني خارج حدود بلدهم. الميناء كان منفذهم الأسهل إلى الموت غرقاً، وفرض على المدينة الحكم العسكري بعد أن تناقص تعداد السكان في أسبوعين من سبعين ألفاً إلى أربعة آلاف وأربعمئة، وبعد ضم المدينة إلى بلدية المدينة المجاورة عام ١٩٥٠ أصبح أهلها يشكلون اثنين في المئة من السكان، ويشكلون سبعة عشر في المئة من مجموع اللاجئين حول الأرض المحتلة والعالم والكثير منهم في مخيمات نانبل.

«تعلمت إنجليزي وعربي ورياضيات في مدرسة افاي. شارع جمال باشا ما أحلاه، وهناك سينما الحمراء «قالت أم لخو عندما أراد المذيع توديعها، فكرر ما قالته، وعاد يخبرها أنه سيعود معها إلى افاي. أنقدها ورقة ليرات زرقاء بمناسبة العيد، وبارك لها وتمنى أن يعودا معاً إلى مدينتها، فقالت له: «نحن مالسيين ويجب أن نساند بعضنا، المالس أخو المالس، الله يخليكم ويمد بعمركم كما مد الزيت بالزيتون». بالفعل كانت سينما ومسرح الحمراء حيث قالت، ولكنها لم تقل إن أحياء مدينتها كانت تضم عشر كنائس لكل الطوائف، وست عشرة دار سينما، وإن الأفلام والمسرحيات وفرق الغناء والطرب كانت تمر في افاي قبل وصولها إلى توريب في نانبل رديفة افاي آنذاك، والمتنمرة على أهلها الآن.. استمع الصغار لما يكفيهم بالاعتزاز من ماضي أجدادهم ومدينتهم، وما يثبتهم على الطريق.

كانت افاي عاصمة البلاد الثقافية بدون منازع، حيث احتوت أهمّ الصحف المحلية اليوميّة، وشهدت صدور عشرات المجلات، وكانت المقر لدور الطبع والنشر، إلى جانب احتوائها أهم وأجمل دور السينما والمسارح والأندية الثقافية. أما مسرح وسينما الحمراء فقد باعه الغاصب الجمودي قبل ستة أعوام (٢٠١٢) إلى جماعة السانتيولوجي، ليكون مقراً لدينهم الجديد في المنطقة.. وكون الرواية متفاعلة منذ سبعة آلاف عام، فلها بالطبع بقية.

أحفاد رئيس وأحفاد لاجئ

«لا أدري من فتحها ومتى، لكني عثرت عليها قبل إشعال الإطارات وتغطية دخانها، تسللت منها فإذا بي على الطرف الآخر من السلك الحدودي.. لم إدر ماذا أفعل ولماذا دخلت أصلاً، لكن طالما أنني أصبحت في الطرف الآخر ركضت قدماي إلى الساتر الترابي القريب جداً والذي تقبع خلفه مجموعة قردة جمود مسلحين. تقافزت إلى القمة بسرعة، ثم استدرت مهرولاً فإذا بجيب عسكري يقترب، اجتزت الشارع وعدت إلى السياج الحدودي، لوهلة لم أعثر على الفتحة، وظننت أنني هالك إما بالرصاص وإما بالاعتقال، لكن الفتحة عثرت علي واجتزتها إلى ناحيتنا». كان يتحدث أمام الكاميرا بنشوة المنتصرين، وذاعت شهرته بين المتظاهرين الغاضبين عند السياج الحدودي، فيما أصبح يعرف بمسيرات العودة.. أصبحوا يقطعون السياج بمعدات كهربائية، ويجتازون ويركعون على الأرض ويقبلونها ثم يسرعون عائدين إلى معسكرهم. هي ليست مسيرات بل تجمعات أسبوعية عصية على الفهم كونها ليست مسيرات مسلحة وكذلك ليست سلمية. يحرقون الإطارات ليذهب دخانها إلى بلادهم المحتلة، وتحولوا إلى إطلاق بالونات تحمل مواد مشتعلة لتحرق مزروعات محتلي أراضي أجدادهم. في البداية كانوا يهاجمون الأسلاك الشائكة ويسحبونها إلى ناحيتهم، ولكنهم لم يجتازوا إلى الناحية الأخرى خوفاً من القتل بالرصاص، ومع ذلك تجاوز تعداد القتلى المئات كون عدوهم يتهمهم بالتخطيط للهجوم على المدنيين واختطافهم، ويدعي أنه يطلق عليهم الرصاص لهذا السبب.

كل المتظاهرين بغضب وبتمنيات إبادة الخصم، كلهم أحفاد لمن طردوا من قراهم ومدنهم قبل سبعة عقود، واعتاشوا على الإغاثة الدولية ريثما يتم حل قضيتهم. هم أيضاً أبناء الجيل الذي مل الانتظار وقرر اللجوء إلى المقاومة المسلحة التي توصلت إلى اتفاقيات لحلول سلمية أفشلها خصمهم واتهم من يفكر في العودة إلى الكفاح المسلح بالإرهاب الذي أصبح مكروهاً عالمياً.. ناهيك عن كون القرود المعادية لهم والمحتلة لأرضهم تفوقهم قوة عسكرية وتطوراً علمياً بمئات المرات، ومدعمة من قوى شر عبر الكوكب. هؤلاء المتظاهرون لم يقرروا بعد طريقهم النضالي، هم يحبون العمل المسلح ويتمنونه ولكنهم يعرفون الفرق في الموازين، ويرغبون في العيش بسلام ورخاء ولكنهم لا يهتدون إلى الطريق السلمي.. أو بوضوح لا يفكرون في احتمال رفع راية بيضاء مصحوبة بمطالب المساواة بين المحتلين والمحتلون في وطن واحد، ولم يهتدوا إلى ضرورة إلغاء فكرة الدولتين والمطالبة بدولة علمانية واحدة، كون الأفكار الدينية التي تحكمهم تحرم عليهم الاعتراف بالعدو، ولكنها في أحسن الأحوال تهديهم إلى دولة خاصة بهم ليجلس على مقاعدها قرود الدين السياسي.

الذي وجد الثغرة في السياج الحدودي، فخرج منها وعاد فوراً إليها، ولد عام ٢٠٠٠ وأنهى تعليمه الثانوي، ولا يرى أملاً في وظيفة تمهد له طريقه في حياة كريمة ولهذا لم يلتحق بالجامعات توفيراً لرسومها وتكاليفها. والده ولد في أسبوع حرب أكتوبر ١٩٧٣، وكان جده قد ولد بعد أيام من الهجرة إثر حرب ١٩٤٨. عام النكبة. عاشوا بالتوالي في مخيم للاجئين وتلقوا مساعدات إغاثة آخذة في التناقص حتى انتهت عملياً. جده نقل لهم ما سمعه من والده بامتلاكهم بيتاً وقطعة أرض واشتراكهم في أرض مشاع في قريتهم التي اضطروا لمغادرتها خوفاً على حياتهم. عم

والده قتل في حرب ١٩٥٦، وعمه اعتقل من المحتلين عشر سنوات.

حفيد الرئيس الذي تزوج في بلاد أخوية غنية ولد ويعيش فيها، هو لاجئ أيضاً بالوراثة عن جده الذي ترك مدينته الشهيرة في عام النكبة، وانتقل بعد بضع سنوات ليعمل في بلد النفط والغاز، وهناك أنجب الأبناء، وهناك أيضاً توفي ودفن أكبرهم بأزمة قلبية، وفي ذلك البلد تزوج الحفيد. التقى الجد هناك ثواراً من بلاده وانضم إليهم في التنظير ولم ينخرط في مهام عسكرية، ولكنه ترقى بسرعة في موجة الحلول السلمية وأصبح رائدها وورث الرئاسة بعد موت حملة السلاح والمنادين به. أبناء الرئيس الأغنياء فوق مستوى غالبية الرعية بكثير جداً تعرضوا لانتقادات الاستنفاع من موقع الأب، لكن ما يهم هنا هو كون الرئيس مسالماً ويرفض اللجوء إلى السلاح ويتعاطي مع الأعداء لمقاومة المقاومين وينادي بحل الدولتين. لكن الأبناء والأحفاد انضموا إلى رأي حل الدولة الواحدة إذ لم يتبق من الأرض ما يمكن للدولة الثانية أن تسيطر عليه، نعم قد يستمر منصب الرئاسة والوزراء وضباط الأمن ليتحملوا ما لا يريد الاحتلال تحمله، لكن لا يوجد أفق لحل دولة ثانية بحدود تعود إلى وضع قبل حرب ١٩٦٧ والتنازل عن الثلاثة أرباع؛ فالجمود يريدون الأرباع الأربعة وبأقل تعداد من رعية أصحاب البلاد.

هكذا استوعب بعض الأبناء وجل الأحفاد فشل إمكانية حل الدولتين، وأصبح بعضهم يتمنون حل الدولة الواحدة المشتركة كثيرة الخصوم والأعداء، ولكن صوت محبي هذا الحل خافت ويصطدمون بغباوة الرعية وتعصب المستفيدين من بؤس القرود. وحين يقتنع جيل اللاجئين الأحدث بفكرة الدولة الواحدة ربما تكون الفرصة قد ضاعت جراء تصرفات ونهج الجمود الذين لا يغفلون عن مصالحهم ويستبقون الأحداث. أعداء حل الدولة الواحدة تجدهم في كل الجبهات المتناقضة.

المتدينون على الطرفين يرفضون التعايش، متدينو قرود اللاجئين قد يقبلون بهدنة حتى تحين الفرص لقلب الأمور لمصلحتهم، ومتدينو قرود الجمود يرفضون مجرد التفكير في مشاركة الأغيار في أي شيء سوى العداء والقتل والطرد مرتكزين على معتقداتهم وكتبهم.

عموم القرود في الطرفين المتصارعين على الأرض، أصبحوا بفضل التجارب الفاشلة، يؤمنون بحل القوة. الجمود يأخذون بفضل قوتهم ودعمهم الخارجي، وأصحاب الأرض تولدت لديهم قناعة، ما أخذ بالقوة لا يسترد بغيرها، ولكنهم أعجز عن امتلاك القوة واستعمالها لاستعادة حقهم، أو حتى التوصل إلى حل عادل بشكل ما. وبالرغم من عجزهم لا يرون الطرق الأخرى التي تلائم الواقع السياسي في الكوكب، وهم يعيشون على وقع العادات القديمة، بينما تعليمهم وتجاربهم وعلاقاتهم لا تضاهي خبرة خصومهم. لو اقتنعوا أن قوة عدوهم قائمة على التضليل الذي يكسبهم دعم حكومات الكوكب المؤثرة وسكوتها، وتصرفوا على هذا الأساس بأنهم ليسوا أرهابيين ولا يريدون قتل أحد بل يطالبون بالتعايش والمساواة، لو فعلوا ذلك بطرق واضحة لخسر خصمهم قواعده الخارجية التي يرتكز عليها، ولفشل بسرعة برنامجه الاستعماري. وحين اقترب الجيل الحالي من قناعة التظاهر بدون سلاح على الحدود لكسب رأي عام قرود الكوكب وزعمائه المؤثرين، نفذوا رؤيتهم وقناعتهم بحرائق وحجارة وصراخ لا يبدو سلمياً وإن كان بدون حمل أسلحة آلية. كما أن هدف هذا العمل والمسيرات غير واضح أبداً، هل يريدون دحر الجيش المحتل وتحرير الأرض؟ أم يريدون إحداث فوضى والتضحية بالذات عبر تبرير استعمال القوة ضدهم؟ أو يريدون العودة إلى قراهم والعيش في ظل الدولة العدوة راضين بها بشرط منحهم مساواة حقوقية؟ إن القوى المؤيدة لهذه التظاهرات تدفع بهم كوقود من أجل حلحلة الوضع ليبقوا

هم على كراسيهم، ولفك الحصار الاقتصادي ليتنفعوا، وليصبحوا في النهاية حراساً للعدو الجار. ملخص الوضع أنهم يعيشون وهم الاستقلال في ظل الاحتلال، وهذا الحال قد يستمر حتى يتجهز عدوهم لالتهام المزيد، فالقضم لم يتوقف قط منذ سبعة عقود.

أحفاد الرئيس وأبناؤه لا يختلفون في واقع الحال عن الحفيد الذي وجد الثغرة وتسلق الساتر وعاد أدراجه إلى غرف مخيم والى بؤسه القائم منذ ما قبل ميلاده. قد يمتلك بعض الأبناء والأحفاد الملايين من أنواع النقود، ويسهرون ببذخ، ويأكلون ما لذ وطاب، ولكنهم مسلوبو الكرامة على الدوام.. حين يتنقلون في بلداتهم تحت الاحتلال، أو حين يعبرون أي حدود في المنطقة، أو ينتظرون نتائج تقديمهم طلبات الإقامة السنوية خارج وطنهم.. هم دوماً تحت التهديد، بل الرئيس نفسه بحاجة إلى موافقات أمنية من قرود احتلال صغار حين يتنقل بين القرى والبلدات المفترض أنه رئيسها. لكن الرئيس وابن المخيم متسلق الساتر يتفقان على حل الدولتين الذي لم يعد من الممكن تطبيقه، بينما أبناء الرئيس وأحفاده وأقلية من الرعية يرون النجاة في حل الدولة الواحدة، ولكن يصعب العثور على من يعلق الجرس ويستمر في قرعه. مصدر الصعوبة هو اتحاد محبي الكراسي مع المضللين أصحاب قناعة العمل بالقوة، مع المتشددين في العقيدة الذين يُكفرون ويُخونون الآخرين.. كلهم على استعداد للانتظار الأجوف بينما عدوهم يقضم ما تبقى ويشرع ويواصل مخططه معتمداً بدرجة عالية على شعارات هؤلاء وضياع بوصلتهم وزيادة بهتان روايتهم العادلة ونصوع رواية خصمهم الذي لا يكف عن تطعيم الرواية لصغار قروده وزواره بالكذب لضمان استمرار الكراهية.

لقد أُغرقت المنطقة بمحطات تلفزة متنافسة وبالرغم من كونها مناهضة للاحتلال الجمودي، لكنها محطات ناطقة بلغة أصحابها فقط،

وكل قرود المنطقة ليسوا بحاجة إلى الإقناع، فتأييدهم جاهز ومتوافر، ولكن أصدقاء الجمود عبر الكوكب هم المحتاجون للاستماع والاقتناع بالكلمة وبالممارسة وبفضح عملي لمقاصد وحيل الجمود الذين يعتبرون ما أنجزوه منذ سبعة عقود خطوة أولية على طريق مخططهم. لقد صنعوا نقطة الانطلاق الجغرافية ليسيطروا على المحيط، بعد ذلك يقفزون للسيطرة العلنية عبر الكوكب.. ليس بالاحتلال هذه المرة ولكن بالتطويع، وقد قطعوا شوطاً طويلاً حتى الآن في السيطرة والإدارة للبلدان الغنية القوية التي كانت تضطهدهم في القرون الماضية. غايتهم ألا يعود زمن يسيطر فيه متعصبون قوميون على مصيرهم، والتسبّب باعتقالهم وحرقهم في الأفران وتسخيرهم للعمل في المعسكرات. وحتى لا يعود ذلك الزمان، خلقوا أسطورة العودة إلى بلدهم الذي لم يكن يوماً لهم وبدون أهله، ثم هيمنوا على مصالح الدول الغنية وأموالها وبنوكها، وتبع ذلك التحكم في أجهزتهم الإعلامية للسيطرة على العقول.. ومن ثم تنصيب جمود على قمة الهرم السياسي في كل أو معظم البلدان، جمود بالعقيدة أو بالممارسة أو بالولاء والخضوع، أو أقله تجنب الصراع.

قوة القرود الجمودية تتمثل في عدة عناصر جلية الوضوح: توحيد كلمتهم واتباع قيادتهم ضمن مخطط واضح. وفي الوقت نفسه تشتيت كلمة خصومهم والإيقاع بهم والإكثار من المنافسات وتشجيعها. والعمل الدؤوب على رفع مستواهم العلمي والاقتصادي والديمقراطي، وعمل العكس ضد خصمهم لدفعه إلى الجهل والجوع والتبعية وتشتيت قناعاته السياسية، فيصبح الفارق شاسعاً جلياً مما يكسبهم أيضاً رضى الدول الغنية المتقدمة وتأييدها بحجة التشابه الحضاري. وضمان التأثير المكثف على أكبر عدد ممكن من الدول الغنية المؤثرة وتجنيدها لمصلحتهم في المجالات السياسية والدبلوماسية والاقتصادية، وطبعاً ضمان الحماية

العسكرية ضد أي تحالفات قد تحدث لمصلحة خصمهم المتهم على الدوام بالإرهاب والعنف ورفض السلام والتفاوض.

نجاحات الجمود تُظهر ذاتها يومياً عبر أحداث الكوكب، في حين أن ضحيتهم الأولى التي فقدت معظم الأرض تعيش في تخبط ونوم عميق لقيادة من أجداد يسرقون مستقبل الأحفاد، ولا يتنازلون عن الموقع طالما هم خارج القبر. تخبط وانهيار مؤسّسي، على صعيد القرود كافة الذين عادوا للتعصب القروي والقبلي بعضهم ضد بعض إلى درجة أن قرود الإقليم الشرقي لا يصدقون عيونهم حين يرون زناءة أو قرداً مهنداً راقياً من الإقليم الغربي. لقد أصبحوا عالمين مختلفين وكلاهما يواجه التيه نتيجة قبولهم فخ الدولتين والخوف من تفعيل حل الدولة المعطل.

ثمن الزعامة

أحفاد الفساد الديمقراطي

«لازم تخلفين ذكراً حتى يحق له أخذ الرئاسة».

«لا ماما، عندنا يُسمح للأنثى أيضاً أن تترشح وتفوز، وإذا رشح الحزب عمي للرئاسة، فعلى الأرجح الحزب الآخر سيرشح زناءة لتواجهه، وهي زوجة الرئيس الأسبق».

«شايفه حالكم يا قردتي الحلوة أسوأ من حال بلادنا، يعني عائلات تتوارث الرئاسة من جد إلى ابن إلى حفيد، وتقولون بلادكم ديمقراطية، وجيشكم غزانا وشنق رئيسنا عشان ما يصير ابنه رئيس من بعده». ضحكت الابنة من دعابة أمها، فأضافت الأخيرة: «يا رب أولادك يكثروا ويلعبوا في حدائق وصالونات البيت الرمادي».

«هذه عائلات سياسية، يعني تمتهن السياسة، وتتعلم الأجيال كيف ترتقي سلم السلطة. عمي مثلاً لا يعتمد فقط أن أباه وأخاه كانا رئيسين، ولكنه عمل في السياسة وهو حاكم ولاية منتخب، وبالطبع يريد الاستفادة من اسم العائلة وماضيها.. يعني الزعامة والرئاسة هنا لا تؤخذ بالقوة والانقلاب، ولكن بالانتخابات». قالت الابنة وصمتت، فاستمرت الأم في الإصغاء «.. يعني أن اسم وسمعة العائلة شيء مهم جداً إذا تذكرها الناخبون بالخير». خفضت صوتها بالرغم من حديثهما بلغة لا يفهمها غيرهما، كما أنهما وحيدتان في الجلسة. «هم عمي الأول والعقبة أمام فوزه بترشيح الحزب هما القردة ابنته والزناءة زوجته. الأولى مدمنة وضبطت بوصفة طبية مزورة لشراء مادة مخدرة من الصيدلية، وضبطوا

معها كوكايين في الحذاء أثناء فترة علاجها من الإدمان. أما عمتي فقالت في الجمارك وهي عائدة من رحلة خارجية إن المشتروات التي معها لا تتجاوز قيمتها خمسمئة رالود، لم يصدقوها وفتحوا الشنط وثبت أن قيمة المشتروات تسعة عشر ألفاً.. أرادت التهرب من الجمارك وهذه جريمة وفضيحة هنا». تنهدت وشرحت لأمها أن هذه القصص انتشرت في الإعلام، ولذلك ففرص فوز ترشح عمها ضئيلة بالفعل، نظراً لتلك الأفعال وغيرها مما يرشح في زمن الترشح.

«المهم سمعة عائلتك هنا نظيفة من ناحية الجنس والزنى».

«هذا لم يكن يهم الناخبين كثيراً في الماضي، فهم يعتبرون الأمر شأناً شخصياً في معظم الحالات، فزوج المرشحة ضد عمي ضبط وهو يعمل العمايل مع متدربة في مكتب البيت الرمادي». تذكرت أن الرئيس، جد زوجها، اتهم مراراً بالتحرش وقرص مؤخرات من يراهن، ولكن لم تخبر أمها بذلك، ولم تتطرق أيضاً إلى حقيقة أن الرئيس الابن كان مدمناً هو الآخر، وقريص مؤخرات. «.. كل، أو معظم الرؤساء لهم قصص جنسية شائنة، لكن بالفعل بدأت هذه الخلفيات تؤثر سلباً على المترشحين».

«السلطة والقوة والمال تثير رغبة الجنس لدى القرود، وإذا لم تنتبه الزناءات إلى أزواجهن وترضيهم جنسياً، بل تتعبهم، فلن يردعهم شيء عن انتهاز الفرص». قالت لابنتها وتذكرت: «.. الزناءات أيضاً ينجذبن إلى السلطة والمال وتثيرهن الرغبة بوضوح حتى لو كان القرد قبيحاً أو عجوزاً».

دار هذا الحديث بين الزناءتين في ربيع ٢٠١٦ حين زارت الأم ابنتها الحامل والمتزوجة من الابن الأصغر لأخ رئيس وحفيد رئيس، وكلاهما شن الحرب على بلاد الأم والابنة؛ الحرب الأولى كانت عام ١٩٩١ والثانية ٢٠٠٣ واللتان أعادتا البلاد إلى العصر الفوضوي. لكن

حفيد الرئيس أعجب بالزناءة من بلاد الخصوم، والتي تكبره بأربع سنوات فتزوجها عام ٢٠١٠ وأنجبت زناءتين للآن انضمتا إلى العائلة المتكالبة على الرئاسة. لحسن أو لسوء الحظ، فلا أحد يدري، لم يُرشح الحزب والد النسيب آنذاك، لكن أخ النسيب من الجيل الثالث للعائلة باشر يستعد لتأهيل ذاته للجولة المقبلة ضد القرد الأحمر المخبول، بمارت، ساكن البيت الرمادي.

لقد فاز الأحمر بالرئاسة ضد منافسته من الحزب الآخر، وهي الأخرى من عائلة تعمل للاستكلاب على الرئاسة والسلطة، فقد كان زوجها رئيساً، وها هي ابنتها تنتظر قرار أمها، فإذا أرادت الترشح مجدداً ستدعمها، أو ستعمل على تأهيل وترشيح ذاتها. هي الأخرى تزوجت في عام ٢٠١٠ ولكن من جمودي مصرفي، وأنجبت له زناءة. ومن شبه المؤكد أن الأحمر سيرشح نفسه مرة أخرى، وربما تستعد ابنته وزوجها الجمودي، المستشار الأول للأحمر، ليترشح أحدهما للمنصب، فهما يبنيان الآن شبكة العلاقات اللازمة لتلك الخطوة.. هذا إذا لم ينسف القرد الأحمر فرصهما بعمل جنوني لا يسامحه عنه حتى المجانين من الناخبين.

تاريخ هذا البلد في الشأن الرئاسي لا يخلو من غرابة. فحتى عام ١٩٦٥ طبقت قوانين عنصرية بحتة ضد القرود السود بحيث لا يمكنهم الجلوس في الحافلة سوى في المقاعد الخلفية، وضد حقوق الزناءات البيض، لكنهم تحرروا من ذلك الماضي بسرعة وانتخبوا رئيساً أسود لدورتين، وكادت زناءة تفوز في الانتخابات الأخيرة ضد القرد الأحمر، وبذلك تحطمت فكرتان راسختان ضد السود والزناءات وبقي أن تذوب ثالثة، وهي الدينية! الرؤساء الخمسة والأربعون كانوا من طائفة دينية واحدة، ما عدا واحداً منهم فقط، وقد تم اغتياله في ٢٢ نوفمبر ١٩٦٣ ودارت شبهات كثيرة حول الذين قتلوه ولم يحُسم الأمر. ورغم تغلغل

الجمود الآن في عالم السياسة والمال والإعلام وتحكمهم في توجهات الرأي العام ومجريات عمل البيت الرمادي والمؤسسات الأخرى المُشرعة، فليس من المؤكد أن يتقبل الجمهور رئيساً من دين مختلف.. نعم تقبلوا رئيساً أسود وكادت زناءة تفوز، لكنهما من الطائفة الدينية نفسها.

حتى الرئيس الخامس والأربعون جرت ست محاولات توريث ديمقراطي للرئاسة، أربع منها نجحت بتولي الابن أو الأخ أو القريب من العائلة نفسها. وقد حاول أخ الرئيس الذي اغتيل عام ١٩٦٣ تولي السلطة، وبالفعل رشحه الحزب لخوض الانتخابات، ولكن تم اغتياله في الأيام الأولى للمعركة الديمقراطية وفي الحقيقة أن هذه العائلة، يدينيك، أبيدت واحداً تلو الآخر في ظروف غامضة ما أقنع الكثيرين أن لعنة قد أصابتهم، فقد ماتوا في حوادث أو انتحار، ولم يعد هناك من يحمل اللقب لينافس به سياسياً. والمحاولة السادسة للتوريث السياسي قامت بها زوجة رئيس ولكنها فشلت بفارق بسيط أمام منافسة القرد الأحمر الذي قد تصبح عائلته صاحبة المحاولة السابعة لتوريث الزعامة.

ما اتفق عليه أغلبية الرؤساء منذ تأسيس هذه البلاد هو التحرش والتجاوز الجنسي واستغلال المنصب لهذا الغرض، أو عدم احترام الذات والمنصب، أو القدرة على ضبط الشهوة التي تولدها السلطة. الرئيس الحالي الأحمر ينتظر التحقيق في شكاوى سبع عشرة زناءة تحرش بهن أو اعتدى عليهن والقضية أمام مجلس النواب. من ضمن الشاكيات ثلاث تراوح أعمارهن من ٣٠ إلى أكثر من ٧٠ عامًا، تنوعت اتهاماتهن للقرد الأحمر، بين التقبيل والتحرش الجنسي الكامل، ومحاولة انتزاع الملابس، وقبل خروج تلك الاتهامات إلى النور، اتهمت انافيا، زوجة القرد السابقة، في كتابها، أنه مزّق ملابسها واغتصبها عام ١٩٨٩. لقد كان صاحب سلطة مال قبل تولي السلطة السياسية. لم تتوقَّف اتهامات

الاغتصاب على الأحمر فقط، وإنما امتدت أيضًا إلى زميله الجمهوري، والرئيس السابق، الابن السكير، الذي اتهمته زناءة باغتصابها في أكتوبر من عام ٢٠٠٠، وفي عام ٢٠٠٢ رفعت دعوى قضائية ضده تتهمه فيها «بارتكاب جرائم واعتداءات جنسية على أساس عرقي ضدها». وبعد عام واحد فقط من رفع تلك الدعوى ضد الرئيس الابن توفيت الزناءة في عام ٢٠٠٣ متأثرة بجراحها بعد أن أطلقت الرصاص على نفسها، وتجاهل الإعلام خبر وسبب وكيفية انتحارها. في عام ٢٠٠٨ التقى الرئيس الابن فريق الإناث لكرة الطائرة فصار يلاحق اللاعبات ويداعبهن وضرب إحداهن على مؤخرتها. عندما لم يعد رئيساً ضبطت الشرطة معه في السيارة مخدرات وقال للشرطي: «لقد خالفت قوانين كثيرة جداً عندما كنت رئيساً، ولم أركُم تحاولون الإمساك بي، لقد كنت أتعاطى الكوكائين في محفل الجمجمة والعظام عندما كنت أنت رضيعاً».

أما الرئيس الأب الذي سبق ابنه في الزعامة فلم تردعه الكهولة حتى وهو في كرسي متحرك عن التحرش جنسيًا وذلك في تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١٧. وأفصحت زناءة أخرى بأنه تحرش بها جنسيًا عام ٢٠١٤ من الخلف أثناء التقاط صورة، ما دفع المتحدث باسم الرئيس السابق للاعتذار عن تلك الواقعة التي لم تكن الأولى من نوعها. فالرئيس الأب اتهم بتكرار تلك الطريقة في التحرش الجنسي غير مرة، ففي العام نفسه اتهمته روائية بالتحرش بها أثناء إحدى جلسات التصوير، وهو الاتهام نفسه الذي وجهته ممثلة أخرى واصفةً إياه بـ«العجوز القذر» فيما أفادت زناءة بأن الرئيس الأب تحرّش بها عام ٢٠٠٣، عندما كان عمرها ١٦ سنة، أي كانت أصغر سناً من حفيداته، أثناء التقاط إحدى الصور، وهو الاتهام نفسه الذي وجه إلى القرد العجوز من زناءة قبل أكثر من عقد من تلك الواقعة، عام ١٩٩٢.

الرئيس الأسبق نوتنيلك، زوج المرشحة التي فشلت أمام القرد الأحمر، اشتهر بفضيحة نكحه متدربة في مكتبه بالبيت الرمادي، أو شبه نكح كما اعترف، وقد أثرت عليه الفضيحة وسقط في النهاية، في ديسمبر ١٩٩٨، لكن تلك الحادثة لم تكن فريدة في سجله، إذ اتهم بالاغتصاب. «قاومته وحاولت الابتعاد، لكنه اغتصبني، وجرحت شفتي، وقال لي: ضعي ثلجاً على شفتك، ووضع نظارته الشمسية وخرج». هكذا قالت زناءة عما حدث بينهما عام ١٩٧٨ حين كان مدعياً عاماً يسعى إلى شق الطريق في عالم السياسة.

قصة الرئيس الخامس والثلاثين صاحب أجمل زوجة، والذي اغتيل في موكب شعبي، كانت علنية مع ممثلة إغراء مشهورة، لكن الأقل انتشاراً أن أخاه كان يقيم معها علاقة أيضاً، وبالطبع لا تزال ظروف موتها ومقتلهما غامضة. أما نائبه الذي أصبح رئيساً، فقد كان يغازل أي زناءة تقع تحت عينيه، وكان يندس في فراش الزائرات إلى البيت الرمادي ويقول: افسحي المجال لرئيسك، فلا يسعها أن تصرخ أو تفضح ذاتها فيما بعد.

الرئيس الممثل الأسبق اتُهم من قبل ممثلة باغتصابها في خمسينيات القرن الماضي. كان نقيباً للممثلين، وطلب عنوان إحداهن أثناء جلسة فلم تعارض على أمل الاستفادة من النقيب، لكنه ظهر على بابها تلك الليلة في الثالثة فجراً واغتصبها. أما الرئيس صاحب فضيحة الجيت فقد كان يقدم عروضاً غير لائقة للزناءات، وخصوصاً المساعدات في مكتبه، ويبدو أن حياة الإناث في البيت الرمادي قد تعدت اللمس والهمس في ذلك العهد.

الرئيس الذي كان جنرالاً وقائداً للجيش أثناء الحرب الكوكبية الثانية، ترك زوجته في البلاد وذهب لقيادة المعارك من بلاد الزيلجن، وهناك عشق الجندية سائقة سيارته. عندما عرفت الزوجة بالأمر أرادت

السفر إليه فأوعز إلى جنرال صديق أن يكتب إليها أن حضورها سوف يؤثر في قدرات وتركيز القائد ويعرض الحلفاء للهزيمة، فبقيت في بلادها.

الرئيس التاسع والعشرون من عام ١٩٢١ كان زير زناءات ومتهماً في إقامة العديد من العلاقات الجنسية مع صديقات العائلة. وكان على علاقة مع زوجة أحد أصدقائه القدامى، وغطى على الأمر بمنح سفريات للعشيقة والزوج.

الرئيس الرابع والعشرون من عام ١٨٨٥ اغتصب العديد من الإناث، وأنجب من زناءة قرداً ولم يعترف بأبوته فأدمنت الزناءة الخمور وأدخلها الرئيس مستشفى للعناية ووضع صغيره في دار للأيتام، وقد اعتبرت الحادثة لاحقاً الأحقر في التاريخ السياسي للبلاد، إذ هددها في بداية العلاقة بالأذية والانتقام إذا أفصحت عما حدث، ولكنها رقدت إلى جانب سريره عندما أصيب بالشلل. الرئيس الخامس عشر كان شكلاً آخر شاذاً يقوم بدور الأنثى لعضو في البرلمان، وكانا مثل زوجين.

أما الرئيس الرابع من عام ١٨٠٠وهو من المؤسسين، فقد وصُف بالمغتصب لزناءة سوداء كانت تعمل عنده وأنجب منها ستة قرود ولدوا أثناء فترة الاستعباد الأبيض للسود. وقد حاول بعض المقربين إضفاء صفة الرومنسية على تلك العلاقة، لكن الحقيقة جلية بأنه كان يستغلها جنسياً كجارية منذ كان عمرها أربعة وثلاثين عاماً. الظريف أن الرئيس الأب، وبعد قرنين من الزمان، تجاوز المحظور واستقبل أحفاد الرئيس الرابع من الجارية، والأحفاد من الزوجة الرسمية، أثناء الاحتفال بذكرى عيد ميلاد جدهم المشترك.

«يقال دائماً إن نوسرفيج لم يكن لديه الوقت ليجمع شمل عائلته كلها في حياته. لكن اليوم أمامنا الفرصة لإعطاء صورة لعائلة موحدة ولجعلها رمزاً للعالم. لأنه إذا كانت عائلة متباينة إلى هذا الحد مثل عائلتنا

قد تمكنت من الاتفاق رغم الماضي فلا سبب لأن لا تتمكن بلادنا من أن تحذو حذوها». هكذا قال أحد أحفاد الجارية السوداء المشارك في تأليف كتاب عن جده وجدته. أما الرئيس الأب، المُضيف للأحفاد، فقال متحدثاً عن سلفه الشهير: «إن العالم يردد حتى الآن أفكاره حتى وإن كان هو نفسه لم يطبقها دائماً. فإن نوسرفيج الذي أصدر الأمر بحظر الرق في أراضي الشمال عاش هو نفسه من عرق العبيد، وهو الذي أنكر المساواة العرقية، هو نفسه الذي لا تزال أقواله عن المساواة في الحقوق مدوية حتى الآن».

أحفاد الحراثين

«نحن جيران وأصدقاء، لذلك أتمنى عليك أن تتفهم وتتحمل ما سأقوله، لأنني لا أريد أن أوافقك آراءك الخاطئة لأريح نفسي من النقاش والجدال معك، لكني أريد أن تستفيد، ولك الحرية أن تصدق أم لا، ولكن لا تزعل مني». هما من عائلة ومن البلدة نفسها لكن عائلة المتحدث نالت تعليماً أفضل خلال الجيلين السابقين، الجد تعلم القراءة والكتابة في المدارس الدينية، والأب تعلم وتخرج مهندساً، والحفيد المتحدث حصل على درجات أكاديمية في علوم الاجتماع، لكنه حافظ على تواضعه، وشعر بحرج وهو يسمع صديقه ابن وحفيد لأميين، الذي يعمل في مهنة التدريس، يدلي بالأحكام جزافاً أثناء حديث بينهما بالأمس، فقرر مجادلته اليوم بعد أن جمع معلومات محددة من الإنترنت.

«أنا لن أزعل منك يا عطوة ومما ستقوله، ولا أعرف لماذا تعارض ما سمعته مني بالأمس واليوم؟ كل الرؤساء وأبنائهم وأحفادهم وأقاربهم في بلدنا لصوص.. هذه حقيقة يعرفها الفلاح والعامل والأمي والمتعلم.. الحاكم جائر ولص، لكن تفضل فسر لي رأيك المعارض». قال الصديق، عرفه، وهو يتذكر كيف كان يغلب عطوة في كل شيء أيام الطفولة والمدرسة.

«حين تتهم الغير باللصوصية من دون إثبات أو حكم قضائي، فقط تتهمهم لظنك أن مناصبهم أو مناصب أقاربهم تخولهم السرقة والغش، فيسرقون ويغشون، فهذا يدل على نفسيتك واستعدادك للغش حين تتاح

لك الفرصة وتظن الجميع مثلك». قرر عطوة الضرب في المليان ولم يعط عرفة فرصة للمقاطعة: «.. نعم كان ملوك بلدنا تابعين للزيلجن النهابين، وكان أجداد ملوكنا تابعين للكرت أصحاب النظام السياسي والاجتماعي الفاسد والمرتشي، لكن الرؤساء بعد الثورة، عام ١٩٥٢، ليسوا لصوصاً، وحين اعتدى أبناء بعضهم على المال وسعوا للسلطة بالوراثة، قامت ثورة أخرى، وسقطوا وأحيلوا على القضاء. هل لديك إثبات لاتهام أي رئيس؟» كان عرفة قد فغر فاه ويشير بيديه الطويلتين بحركات غير مفهومة، لكن بعض القرود يفعلونها عندما يرتبكون.

«الرئيس الذي قال إنه قائد الثورة، وقادنا للهزيمة والخراب، ليس لصاً؟ هذا ما تريد أن تقوله يا عطوة؟» قال عرفة وهو يحاول تذكر سؤال صديقه ويبحث عن جواب يضم إثبات لصوصية الرئيس. «إنه لص وخرب البلد». أكمل جملته.

«ليس كذلك، لا لصاً ولا خرب البلد، والدليل أن البلد تخرب بزيادة بعد موته، وسأثبت لك أنه أشرف من الشريف». صمت عرفة وكأنه يحترم الرأي الآخر، وشحذ ذهنه لضبط هفوات فيما سيسمع. «لقد حرر بثورته البلاد من استعمار الزيلجن وفساد أعوانهم. ثم تصدى، عبر تحريك الشارع، إلى غزو استعماري ثلاثي بعد أربع سنوات فقط من الثورة في بلد كبير وفقير وشبه معدوم عسكرياً وتسليحياً.. دعني أكمل لك باختصار حتى لا نتجادل مثل الطرشان». كف عرفة عن محاولة المقاطعة وأنصت متصيداً. «.. عندما مات ترك في البيت خمسة وعشرين جنيهاً، وفي البنك بقية قرض لشراء شقة لم ينتهِ من سداده. وقبل أن يموت وفي عنفوان حكمه، نال ابنه الأوسط وابنته الصغرى علامات ضعيفة في الثانوية العامة. يعني لم يراعهم أحد كونهم أبناء رئيس، ولم يتمكنوا من دخول الجامعات ولم يتوسط الرئيس لهم. الذكر انتسب إلى الكلية العسكرية لأنها تأخذ

أي نسب مئوية للمتخرجين، والزناءة درست اللغة في معهد خاص أصبح لاحقاً جامعة. ودعني أضيف لك، عندما تخرجت توسط لها الرئيس لدى صديق له يدير دار نشر صغيرة تترجم الروايات الأجنبية، وتوظفت هناك براتب متواضع. يمكنني إخبارك أن الأبناء الثلاثة الباقين لم ينالوا أي موقع سياسي أو وظيفة عليا في عهد والدهم، ولا يمكن الآن القول عنهم أو حتى عن أحفاد الرئيس بأنهم من أصحاب الفلل أو الملايين أو أي مال يذكر». لم يكن عرفة يتوقع سماع هذه المعلومات، وبدا مندهشاً، فأضاف عطوة: «ربما أنك لا تعرف أن الرئيس أخذ معه إلى مؤتمر عدم الانحياز جبنة وخبز نخالة تكفيه ومن معه لعشاء ثلاثة أيام، ليوفروا في مصاريف الرحلة».

«لكن أبناء الرئيس كرابم قدموا للمحاكمة بتهم التربح». قال عرفة وضحك عطوة.

«أنت تقولها بلسانك، خضعوا للمحاكمة مثل أبيهم الذي أسقطته ثورة شعبية بعد ثلاثة عقود من الحكم. لكن الرئيس الأول الذي مكث عامين والثاني الذي حكم ثمانية عشر عاماً، والثالث الذي اغتيل على المنصة، كل هؤلاء لم يتربحوا ولم يورثوا السلطة أو المال لأبنائهم وأحفادهم، وعندما حاول أبناء الرئيس الرابع سلب السلطة أوقفهم الشعب بثورة أطاحتهم. هذا يعني أن بلدنا أفضل ديمقراطياً من أكبر وأغنى وأقوى دولة في الكوكب، حيث يحاول الرؤساء توريث الرئاسة لأبنائهم وزوجاتهم، وحيث يفوز بالرئاسة القرد الغني، صاحب المال والمستعد للإنفاق على الدعاية والكذب. دعني أذكرك أن زعيم الزيلجن الذي تسبب في غزو ٢٠٠٣، وقتل مليون قرد وتخريب عدة بلدان عن بكرة أبيها، قد خرج من الزعامة مليونيراً وتزداد ملاينيه كل عام، ولم يُقدم إلى أي محكمة. أما رؤساؤنا فهم كادحون أبناء وأحفاد كادحين وحراثين، وتولي مثل هؤلاء

للزعامة مستحيل حدوثه الآن بين أمم القرود في أي مكان على الكوكب».
كان عرفة يستمع مشدوهاً ويود التشكيك في كل ما سمع من صديقه.

«كيف عرفت بكل تلك القصص عن أبناء رؤسائنا؟».

«كل ذلك وأكثر منه معلومات موجودة على الإنترنت، المهم أن يبحث القرد ويفكر قبل كيل الاتهامات». أجاب عطوة بهدوء متوقعاً أن يكون صديقه قد أقتنع وتلقن درساً.

«لكن الرئيس السادس الحالي الذي خلع الخامس المنتخب، يقال عنه الفساد والظلم». لاحظ عطوة حيادية في مصطلحات الاتهام.

«نعم يقال الكثير في عصر حرية التعبير على وسائل التواصل الاجتماعي، لكن ليس كل ما يقال صحيح بالضرورة. الإخوان، أنصار الرئيس المخلوع، سيهاجمون الرئيس الخالع مهما فعل، ولن يتهاونوا في التلفيق والتهويل. وعلينا ملاحظة الفرق بين الفساد والظلم وسوء الإدارة من جهة، وبين السرقة واللصوصية والمحسوبية من جهة أخرى. قد يلجأ رئيس للأولى ليعزز موقعه، ولكن ليس بالضرورة للسرقة والاستفادة الذاتية. لقد سمعت الرئيس السادس يقول خلال لقاء تلفزيوني: إن قرده الأصغر تقدم للالتحاق بالسلك الدبلوماسي بوزارة الخارجية مرتين، إحداهما ووالده يتقلد منصب مدير المخابرات الحربية، والأخرى وهو وزير للدفاع، لكنه لم يُقبل.. بمعنى أن البلد لا تأخذ بأسلوب المراعاة، والوالد لم يلجأ إلى المحسوبية لتوظيف قرده الصغير». صمت عطوة وقد تذكر أسماء أكثر من رئيس لدول كبرى تدعي الديمقراطية عينوا أقاربهم أو زوجاتهم أو عشيقاتهم أو أنسباءهم كمستشارين وموظفين حتى بدون دوام رسمي، بينما لم يحدث ذلك في بلاده.. ثم تبسم وهو يتذكر بعض القصص التي طالعها وهو يجمع المعلومات لإقناع صديقة، فقرر أن يُحدثه عنها:

الابن الأصغر للرئيس الموقت بين الحالي والمخلوع، وجد وهو عائد من السفر من يريد استقباله في صالة كبار الزوار بالمطار، لكن الابن رفض التكريم وذهب مع بقية الركاب لإنهاء إجراءات وصوله إلى البلد. الرئيس الثالث، صاحب المنصة، أنجب من زوجته الأولى ثلاث زناءات، ومن الثانية فيما بعد ثلاثاً أخريات وقرداً. الثلاث الأول تزوجن وافترقن عن أزواجهن، إحداهن لاحظت أن زوجها يستغل اسم والدها فهددته فخلع من البلد، وفي حالة الثانية اتضح أن الزوج مغامر، إذ بعد أن عاد من شهر العسل اكتشفوا أنه لا يملك شقة للسكن، ثم باشر باستغلال اسم الرئيس وكشف أمره فهرب، واستغل الوالد سلطاته لجلبه والطلب إليه تطليق ابنته. كل الزناءات أنجبن من أكثر من زوج، ابن الكبرى الأكبر، أي حفيد الرئيس الأول، تزوج وأنجب منذ أكثر من عقدين. ابن الرئيس الوحيد تخرج في الكيمياء بعد أن واجه اتهامات بأنه غير مؤهل، وأن الشهادة منحت له كونه ابن الرئيس، لكن التحقيق أثبت عدم وجود تواطؤ، واجتهد الابن لاحقاً وأكمل تعليمه العالي في بلاد أجنبية، وصار يضارب في البورصة وأقام شركة لتعليم الطيران في بلد آخر. ومثل أخواته تزوج مرتين وطلق حتى وجد الثالثة، وهي مطلقة ابن ملكة البلاد السابقة.

«تريد يا عطوة القول إن الرؤساء لم يتدخلوا لإسعاد الأبناء والأحفاد، وإن الوضع لدينا آخر ديمقراطية، ولكن كلامك يؤكد أن أياً منهم خرج سلمياً من المنصب». شعر عرفة بالنشوة وهو يسدد الحجج: «.. الأول عزلوه ومات فقيراً شبه مشرد، والثاني مات بالحسرة على ما فعلت يداه، والثالث قتل على المنصة، والرابع انتهى في المحاكم والمستشفيات، والخامس انقلبوا عليه واعتقلوه، والسادس يجدد لذاته الحكم ولن يتنازل حياً عن الكرسي». كان عطوة يوحي بالتأييد لكلام صديقه الذي صمت ليستمع إلى الاعتراف.

«نعم صدقت، هذه نقمة، الكرسي ابن كلب، لكنهم ما عدا الرئيس الرابع الذي أوقع به أبناؤه وزوجته، ليسوا لصوصاً، أو متنفعين، كما أنهم يتميزون عن زعماء الديمقراطيات بأنهم ليسوا وحوشاً جنسية».

«لكنهم قرود متوحشة ولا يتورعون عن القتل والتعذيب للحفاظ على سلطتهم». توقف عرفة وقد خطر له ما قاله صديقه قبل ذلك عن وجود فرق بين حب السلطة وحتمية السرقة، فسأل: «إذا لم يكن المال هدفهم من السلطة، فلماذا يموتون دونها؟».

«خوفاً من الموت إذا تركوها». قال عطوة على الفور. «ولأن الفكرة السائدة هي أن الزعيم متنفع، فلو تنازل أو تقاعد فإن الانتقام من التالي مؤكد حتى يُرضي جمهور القرود الذي يظن أن فقره الذاتي نابع من غنى الزعيم. مجتمعاتنا تعيش للآن مرحلة الغرائز وما قبل المنطق، ولهذا تصبح الحياة يوماً واحداً، هو الذي تعيشه، فنحن أسرى هذه العقلية التي تحولنا إلى سجناء في حريتنا. النظام القمعي، وليس اللصوصي بالضرورة، يريد إبقاء القرود في مرحلة ما دون الحيوانية. القرد المتسلط بالسلطة يخاف عليها». لم يقاطع عرفة ما يسمع من صديقه وإن كان لم يستوعب معاني بعض ما يقال. «لو تبدلت الأدوار بين القامع والمقموع، فماذا سيفعل في رأيك؟» مطّ عرفة شفتيه ولم يجب، ولكنه قال لذاته: سيفعل ما فُعل به بالطبع. «في الحقيقة لا نحتاج إلى تغيير الأدوار لمعرفة النتيجة». قال عطوة وأكمل: «الحكام دوماً يشركون بقية القرود في الحكم والتنفيذ، فهم يرجمون المخطئ ومنهم من يسجن ويعذب المعارض، والكثير من القرود يقترحون عقاباً أشد مما يفرضه القانون طالما أنهم ليسوا الضحايا، علماً بأنهم ليسوا قضاة أيضاً. إن البلاد مليئة بالجلادين المتجولين غير الرسميين، يوجهون التهم بالعمالة أو الكفر أو السرقة لمن هب ودب ويطالبون بالأحكام».

«اللعنة على الزيلجن، فهم سبب كل المصائب». قال عرفة مبتسماً

ليخفف من حدة النقاش.

«نعم عليهم كل اللعنات فهم أساس البلاء الحالي، وإن كان وضعنا الأقدم هو الذي ساعدهم على التوصل للتحكم بنا، فلم نكن يوماً من البشر أو قريبين من صفاتهم. لقد سلخ أجدادنا جلود المعارضين عندما كان الزيلجن يخوضون حرب المئة عام ضد جيرانهم سعياً للتملك. لكنهم بالفعل بعد أربعة قرون باشروا بالتآمر مع بقية القرود الشقر وعقدوا مؤتمراً في عاصمتهم عام ١٨٤٠ ليدعموا القائد الذي أرسله الكرت إلى بلادنا لمحاربة حملاتهم، ساعدوه على البقاء ليسلخ بلادنا عن الخلافة، واتفقوا فيما بينهم على تقسيم أراضي الخلافة. هكذا دعموا سلالته حتى أطاحت الثورة آخرهم». تنهد عطوة وأضاف: «.. لكن تآمرهم استمر في المنطقة فخلقوا أنظمة حقد وغدر وخيانة تحيط بنا وتتوارث هذه الصفات في خدمة الزيلجن ومن ورث دورهم من القرود الشقر الأخرى».

دروس الرعب

الكلاب تألف بعضها بعضاً، وكذلك تفعل الأسود، والقرود هي الأخرى على دين ملوكها وتتشبه بالبشر، أو هي على دين رؤسائها وزعمائها، والضابط مطيع لمن فوقه، والجندي يؤمر فيأتمر وينفذ، ويعلل انصياعه بالطاعة، وغايته الاستفادة. وحين تكون بغلاً وتريد أن تصبح أسداً وملكاً للغابة فعليك التصرف كأسد، أو كما تظن أنه تصرف الأسد.

في غابر الأزمنة وحتى بضعة قرون خلت، كانت الزعامة من نصيب الأقوى، ومن يهزم القوي يأخذ مكانه. جاء هذا النهج من أصول وتطبيق حاجات جنسية، فقد كان زعيم القبيلة الحجري، يستأثر بكل إناثها ويحرم بقية القرود الشابة من التجربة والمتعة، وهذا ما ساد بين بقية الحيوانات حيث مبدأ الذكر الواحد لكل إناث القطيع، ولهذا أصبح القوي من القرود يقتل الزعيم العجوز ويستحوذ على الزناءات حتى طورت القرود نظام التزاوج من القبائل الأخرى، ومنعت التزاوج بين أفراد العائلة، القبيلة الواحدة لوقف القتل العائلي. من ذلك التطبيق تطور نهج القيادة السياسية واحتفظ بالأصول الجنسية، وأصبح على القائد أن يتميز بالقوة، ثم بالحنكة لتجميع القوى وصد الخصوم، وحماية الأرواح والأملاك. انقرض هذا الحال الحجري في معظم مناطق الكوكب، ولكنه مستمر حتى الآن في بعض المناطق، وانتهى قبل بضعة قرون فقط في مناطق أخرى أصبحت تعتبر ذاتها الآن في قمة التمدن والرقي، كونها لجأت إلى تطبيق واحد من أساليب الحكم الاختياري الديمقراطي، سواء الفعلي أو

التظاهري أو شبه التظاهري، وحرمان الزعيم من وهم قدرته على فعل ما يريد سياسياً وجنسياً. وهذا التطبيق الأخير ما زال يعتمد عملياً على قوة استعداد بطش الزعيم عبر الغير وليس بقوته الجسدية الذاتية، ولذلك تراه يستعين بأسلوب العصابة، وتسليط العشيرة، وتسخير الطائفة، أو استغلال الدين والتدين ليستفيد منهم ويفيدهم. هكذا تعجز هذه الدولة بالطبع عن تحقيق مصالح الأغلبية، وتمارس القمع لضمان الحكم والتحكم. يعيش الزعيم وشركاؤه في خوف من مطالبة الأغلبية بحقوقهم، خوف من الانتقام ومن ضياع المزايا.. كما يخاف الشركاء من تغير مزاج الزعيم تجاههم، فيعيشون في ذعر منه وهم يرون ما يأمرهم بفعله في الآخرين، وهكذا ينُفذون رغباته ويذوبون في رؤيته، ويستكلبون معه وله.

في أواخر القرن التاسع عشر هبط مصارع كرتي إلى قرية القردة المجاورة وأخذ يصيح طلباً لمن يصارعه، وصار يتحدى القرود التي تجمعت تتفرج على عضلاته وتنتظر تطور الأحداث. التفوا حوله مذعورين، ومستمتعين أيضاً، حتى اخترق صفوفهم الفلاح ناميلس. أمسك ناميلس بالمصارع من وسطه ورفعه ثم طرحه أرضاً. انتهى المشهد بالتهليل، ولقب الفلاحون ابن بلدتهم بالبغل، تعبيراً عن قوته. تدريجاً أصبح البغل يحل مشاكل القرود لأن من يخالف حُكمه قد يداس تحت حوافره، ثم ترقى إلى درجة اجتماعية أعلى نظراً لشعبيته فأصبح مختاراً. ابن المختار تنبه لأهمية عصبية العائلة، فتزوج أربعاً لإنتاج الكثير من القرود، ولكن الابن غير لقب العائلة من البغل إلى النمر. أنتج الأبناء قروداً واستفاد الجميع من سمعة المختار وابنه، ودخل بعض الأحفاد إلى الكلية الحربية، وانتمى أحدهم إلى حزب سياسي جديد واندس مع انقلابيين ضد النظام، ثم صحح انقلاب الانقلابيين بانقلاب، وأصبح رئيساً، اجتهد لحماية كرسيه طوال ثلاثة عقود بتنمية العصبية الطائفية محتفظاً للبلد اسمياً بلقب

جمهورية، وصفات ديمقراطية واشتراكية، ومنقياً الحزب من كل الشوائب والأعشاب الضارة، وعاقداً انتخابات رئاسية بنتائج ٩٩ بالمئة، وبالطبع امتلأت السجون بالضيوف ممن لم يعجبهم الحال، وممن لم يهللوا. في بلاد النمر وجيرانها تطورت الأحوال بسرعة من تحكم وضمان المنصب عبر المصارعة بالقوة الجسدية إلى ديمومة في التحكم حتى مع ضعف وهزال القوة الجسدية بل إن مرض زعيم لم يعُق مبايعته وانتخابه مرة بعد الأخرى حتى يقع عن كرسي متحرك فيموت ليتولى ابنه أو أحد زبانيته.

لم يبق أحد من قبيلة النمر أو من أنسبائهم لم يتبوّأ منصباً أكبر من استحقاقه، وزراء، مديرو وزارات، مديرون عامون في الدولة والقطاع العام، أصحاب شركات خاصة ذات حقوق استيراد وتصدير حصرية، ضباط وقادة فرق خاصة، وكل ما يخطر على البال من أعلى إلى أسفل حتى تصدير المخدرات والتهريب.. ميزهم وأشركهم في الجريمة مع منتفعين آخرين من المنافقين محبي النفايات. هكذا حين تقع أول محاولة انقلاب أو اغتيال للزعيم تتوجه القوات الخاصة بقيادة أخيه أو ابنه إلى السجن الذي يضم صفوة المعارضين من أساتذة جامعات وأطباء ومختصين كان ذنبهم أنهم اعترضوا على مجريات الأحداث، أو رفضوا التهليل للزعيم أو حتى راحوا ضحية وشايات شخصية.. في السجن تتم تصفية الجميع بدون تمييز، حوالى ألف شخص. درس في الرعب والانتقام ممن قد تسوّل له نفسه معارضة الزعيم.

ثم إذا تلمس الزعيم معارضة متجمعة في مدينة كبيرة في بلاده، معارضة متلبسة مثلاً لثوب الدين أو مشهود لها بالكفر. يبدأ التحريض في صفوف الضباط وقادة الفصائل وأبناء الطائفة ضد المعارضين، تحريض على شاكلة أنهم كذابون ساعون للسلطة بالاغتيالات، يجهزون أنفسهم لثورة مضادة رجعية، محجباتهم ساقطات مدعيات الشرف ومتهمات

لغيرهن، كلهم مرتبطون بخصوم إقليميين وأجانب. هكذا تحركت القوات الضاربة باتجاه المدينة، وفي الرابعة فجراً سيلعلع التكبير من كل المآذن، وكأن المدينة تُعلن الحرب على الزعيم، وبعد قليل تصل الطائرات تقصف الأحياء السكنية، ثم تفتح المدافع أبواب جحيم إضافية تساعدها الدبابات التي تحركت تفتح الشوارع الضيقة، تتلوها القرود تنهب وتقتل وتغتصب بطرق همجية. يطلبون من الإناث رفع الحجاب، ويجبرونهن على ذلك، ويسألون الأب أي واحدة يختار لهم من بناته ليغتصبوها. أباح زعيم القبيلة لقروده المدينة طوال ثلاثة أسابيع، والإباحة تعني باختصار أنه لن تتم محاسبة أي قرد على أي فعل، وكل واحد وشطارته. لم يُسجل أي تمنع أو امتناع أو رحمة أو تمرد، الكل نزلوا من مستوى النمور إلى درجة الضباع.

وللمقارنة وكون أساليب القرود الإرهابية متنوعة: فقد حدث بعد عدة أشهر أن غزا العدو الخارجي البلد المجاور، وافتتح الغزو بتدمير العديد من الطائرات للأخ النمر، فأعلن الهدنة وترك جيرانه يُغزون. يحاصر العدو العاصمة الجارة، وتتلقى فرق الدبابات الأوامر باقتحامها بعد أن دكتها المدافع، لكن قائد لواء الدبابات العدوة يرفض طلب القيادة ويتمرد قائلاً في العلن: إن الاقتحام سيؤدي إلى قتل مفرط للمدنيين. عزلوه من المنصب فوراً وعينوا من انصاع واقتحم، ولكنهم لم يقتلوا المتمرد.

تمكن كتابة بقية لقصة تزعم الغابة بالحديد والنار: بعد القيام بمجازر متعددة في الداخل ولدى الجار الأصغر، وحروب وهزائم وفقدان أراضٍ لمصلحة أكثر من جار، وبالطبع بعد تكرار الممارسة الديمقراطية والفوز المتفوق فيها للزعيم، الذي كان يُعد وريثه الأكبر لقيادة المسيرة، أصيب الزعيم بسرطان وتم التكتم على المرض، حتى لا تقل هيبة الوريث القوي. وحين يموت الوريث في حادث غير سياسي، لن ينتقل الحكم خارج

العائلة، سيتم تدريب سريع للوريث الثاني على الزعامة. وهكذا استبشرت القرود المغلوبة على أمرها خيراً، فالوريث ابن مثقف مودرن وشاب، بل إن المجلس المُنتقى بالانتخاب، إياه، ليمثل كل الأطياف، يجتمع على عجل، ويوافق بالإجماع على تغيير بند دستوري يخفض العمر المسموح به للزعامة من أربعين إلى أربعة وثلاثين ليناسب سنوات الزعيم الجديد.

المستبشرون، من الأغلبية المقهورة طوال ثلاثة عقود، أعلنوا بيانات تأييد وتقبل ومطالب خجولة بالديمقراطية. تركهم الزعيم الجديد، وهو أول وريث حكم جمهوري على مستوى الكوكب، تركهم ريثما رتب جبهته العائلية والطائفية، ثم أعلن أن الديمقراطية عمل يُكتسب بالتعلم طويل الأمد، وعليهم أن يتعلموا في ظل الظروف القائمة كما ورثها، أي تأبيد الحكم. تزوج على وجه السرعة وأنجب ذكراً بعد عام، وأورثه لقب جده، في أوضح إشارة للاستمرارية وللتوريث الجمهوري. كانت المنطقة تعج بالجمهوريات المماثلة والتي يستعد فيها الأبناء لوراثة الزعامة الرئاسية من الآباء. في ٢٠١١ تحرك جمهور أصغر تلك الجمهوريات فهرب الزعيم بحياته وأمواله وزوجته، وقفز المتدينون على الثورة. تدحرجت حبات السبحة إلى الجمهورية المجاورة فقتل الثوار زعيمهم وأبناءه بطريقة بشعة وبدعم مباشر من الزيلجن، وقفز المتدينون بالسلاح سعياً إلى السلطة وما زالوا، بعد ثماني سنوات، يتصارعون عليها وشتتوا حياة البلد وأهلها، فصار المواطنون، كما في جمهوريات أخرى، يترحمون على الزعيم المقتول هنا، والمشنوق هناك، والمعتقل في جمهورية أخرى. وصلت الثورة إلى أكبر الجمهوريات، فاعتقل الزعيم وأولاده وقفز المتدينون هنا أيضاً على الثورة وصمدوا فيها لمدة عام حتى انقلب عليهم العسكر بتقبل جماهيري اضطراري.

عندما تشجع الجمهور ضد النمر، أكدوا سلمية تحركهم كونهم

يعرفون العواقب المنتظرة، ولكن المتدينين أشهروا الأسلحة وعرف المتنمرون أن الهزيمة ستعني الإبادة انتقاماً منهم لما سبق، فاستأسدوا واحتفظوا بالتماسك بالرغم من الانكماش الجغرافي، لكن البديل الديني الذي تلبس الثورة بدعم من ممالك الثروة، أظهر وحشية فاقت الضباعية، وعادت مجدداً الأغلبية تدفع الثمن، وتبحث عن المخرج.

قبل الثورة توزّع الجمهور المعارض نظرياً في جمهورية النمر، وعلى اختلاف مشاربهم، توزعوا ضمن خانات: مواطن قرد عادي يعيش على مبدأ «ما دخلنا»، وقرد عاقل يُخرِس النقاشات السياسية المحيطة قبل انطلاقها حرصاً على السلامة العامة والخاصة ورهبة من الوشاية، وهؤلاء وأولئك هم الأغلبية بين الأغلبية، ومواطن مُعتَقَل بسبب وشاية أو نشاط حقوقي أو سياسي، ومواطن يفكر في العمل السري المعارض وهم أقلية، أغلبهم يتمسح بالدين ويتخذه كأساس للاعتراض ويهوش على الآخرين باسم الآلهة والرسل، ومواطن قرد مدني مُفسد، أو كاتب تقارير ومصدر للمعلومات، وهذا قرد خطير كونه مضطراً لفبركة المعلومات ضد الغير حتى لا يتهم بالتقاعس، وبالطبع هناك القرود من الفئة المؤيدة للزعيم، سواء كعنصر أمن يتبع لأحد الفروع أو المصالح الخادمة للنظام والمخدومة منه.

النظام المستبد يحتاج إلى أمة جاهلة، أو مُجهلة عبر القمع والرقابة، ولخدم منظمين لتسخيرهم للقمع وتوريطهم في طريق لا عودة منه، وهؤلاء مثل الحاشية، يجب أن يكونوا غارقين في الخسة وانعدام الأخلاق، بل الاستهزاء بالقيم المتعارف عليها. هكذا تطبق القرود مقولة شهيرة: إذا كان تسعة من أصل عشرة مواطنين يكرهونني، فما أهمية ذلك إذا كان العاشر هو فقط من يملك السلاح.. أي يملك سلطة القتل والقهر. هذا القرد العاشر المقموع والخائف من الزعيم، يعتبر ذاته زعيماً

على الآخرين، أي هو مقموع وقامع ويرقد في فخ دائم، وعليه استشعار رغبات الزعيم مسبقاً ليحسن الخدمة ويضمن إغماض عين الزعيم عن تجاوزاته مع الآخرين. هذا يعني انتهاء وضع القانون واحترامه وتصبح السلطة اعتباطية وتنتشر مبادئ الخدمة الذاتية، والفساد، والنفاق للزعيم الأوحد، الديكتاتور، وللزعماء الفرعيين حسب التسلسل، وينتقل هؤلاء إلى وضعية الإقناع بالقوة للآخرين واغتصابهم نفسياً. هكذا يمكن لجيش بلد ما أن يستبيح مدينة آمنة في بلاده بدون تمنع، وتتقبل باقي المدن الأمر وكأن شيئاً لم يكن، لأن المعلومة حُجبت وقدمت بالمقلوب للمرتعبين فصدقوا الديكتاتور ليرتاحوا.

عندما تشجع المرتعبون وانضموا إلى ثورات جيرانهم كانوا مجُهلين على مدى أربعة عقود، غير منظمين في أحزاب أو مؤسسات مدنية، قياداتهم المحتملة في السجون أو المهاجر، فقفز إلى الواجهة مسلحون ارتموا بسرعة في أحضان ممولين إقليميين وأجانب يعملون أصلاً لمصلحة العدو الأكبر. بزغت عشرات المنظمات الجهادية الممنوعة من توحيد صفوفها، لتواجه نظاماً بنواة قوية متماسكة لا يهمها سوى الزعيم ومصالحها.. تدمرت البلاد إذ أصبحت حرب الكوكب المتصارع، ومات أكثر من مليون، وفر الملايين من المرتعبين، وتوصل القاصي والداني إلى نتيجة تفضل مساوئ النظام على توحش البديل، وما يمكن أن يكون إذا استمر القتال. لهذا ترفض أغلبية الذين فروا من البديل العودة في ظل استمرارية النظام. يعرفون ما ينتظرهم، وأن ابن الزعيم باقٍ وحفيد الزعيم قد بلغ الرشد ويتعلم ويتلقن بانتظار الاستمرارية.

حفيد وجد ومخابرات

استقبله ورحب به ودعاه إلى الجلوس على المقعد الأيمن في طرف الطاولة التي جلس هو في وسطها على الطرف الآخر. كان الضيف جَدًّا يبحث عن حفيده، والمُضيف مدير أحد الأقسام في المخابرات.

«أهلاً وسهلاً يا أستاذ.. ما الخبر؟ وصلتني مذكرة من معالي الوزير أنك بحاجة للمساعدة.. عفوا ماذا أطلب لك لتشرب؟» تشكّر الجد ولم يطلب شيئاً وباشر في شرح حاجته. فقد خرج حفيده للمشاركة في المسيرات السلمية، المطالبة بإقالة الحكومة، ولم يعد، وها قد مر أسبوعان على غيابه ولم يُعثر عليه في مستشفيات أو مراكز الشرطة. كان الجد يعرف أن عناصر من المخابرات خطفوه من التظاهرة ولكنه لم يوجه إليه أي اتهام. هو قرد شيوعي قديم، ويعرف أساليب قرود الأمن والمخابرات، وأن استفزازهم يُخرب المسعى، كما أنه آت بتوصية من أحد الوزراء الجدد تربطه بوالده علاقة قديمة من أيام شبابهما. «وحضرتك تعتقد أنه معتقل لدينا!» سأل القرد الجالس على الطرف المقابل، وقبل سماع أي تعليق من الجد أضاف: «كل الذين اعتقلناهم طوال أيام التظاهر واحد وخمسون، وأطلقنا سراح نصفهم بعد يومين، وهذه قائمة بأسماء البقية الذين ما زالوا في ضيافتنا». قال للجد وهو يقدم له ورقة فيها خمسة وعشرون إسماً. ثم سأله إذا كان من يبحث عنه موجود في القائمة.

«لا اسمه ليس في هذه القائمة». أجاب الجد وهو يعيد التدقيق في الأسماء وقرر حفظ بعضها عن ظهر قلب. «.. أين يمكن أن يكون إذا؟».

«ربما هو راقد في حضن زناءته، أو سافر مع أصحابه لرحلة في داخل البلاد أو خارجها». أجاب مدير المكتب، واقتنع الجد من أسلوب مُحادثه التهكمي أن حفيده محتجز لديهم.

«لا يمكن أن يغيب طوال هذه الفترة عند حبيبة أو مع أصدقاء من دون أن يتصل بنا، وسألنا كل صديقاته، وهو بالتأكيد لم يغادر البلاد حسب سجلات شرطة الحدود». أراد الجد تأكيد اختلاف الثقافات بالإشارة للصديقات، وحاول الاحتفاظ بالهدوء، وسأل: «ما العمل؟».

«ما العمل، هذا سؤال شيوعي بحت، فما هو العمل برأيك؟». أصبح الحديث على المكشوف الآن. «لماذا تعتقد أن حفيدك في ضيافتنا؟ كل الذين تظاهروا عادوا إلى بيوتهم ولم يلاحقهم أحد». خطر للجد القول: كلهم ما عدا من تعترف بأسمائهم في القائمة إياها، لكنه عدل عن الفكرة. «لم تجبني يا أستاذ، لماذا تعتقد أن الشاب عندنا؟».

«لا أعتقد أنه عندكم، بل حضرت إليكم للمساعدة في العثور عليه، فأنتم المخابرات ويفترض أن تعرفوا بكل، أو بمعظم الأمور». قال الجد وقد اقتنع بسرعة من عدمية الاستمرار، إذ له تجربة سابقة مع التحقيقات، كما مر ابنه، والد المفقود، بفترة اعتقال تعسفي قبل أن يغادر البلاد. «أتمنى على حضرتك الاهتمام بالأمر والسؤال عن حفيدي، فربما كان محتجزاً لدى أجهزة أمنية أخرى.. وأنا بدوري لن أتوقف عن البحث وعمل الممكن، وغير الممكن، للعثور على حفيدي». قال الثمانيني بحيادية مصطنعة وهو يستعد للمغادرة وقدم يده لمصافحة المدير وشكره.

«لا شكر على واجب، هذا عملنا، أن نخدم المواطن. إذا عثرت على معلومة جديدة سأتصل بك.. سلم على معالي الوزير». وافقه الجد بهز رأسه وانسحب وهو يكرر الأسماء التي قرر تسجيلها في ذهنه ريثما يتمكن من كتابتها على ورقة أو في هاتفه الجوال، أراد التأكد إذا كانوا

شيوعيين أو ملتحين. «في الزيارة المقبلة لن تغادر قبل أن نضيّفك بمشروب». هل ما زالوا يستعملون خدعة المشروب مع زوارهم؟ سأل الجد نفسه في الطريق إلى سيارته. لقد مارسوها معه أثناء التحقيق في عام ١٩٧٠، قدموا له العصير الحلو ثم استأذن المحقق بالخروج لقضاء عمل سريع وطلب منه كتابة اعترافاته على الشيوعيين أصدقائه وبذكر كل التفاصيل. دقائق وبدأت معدته تتحرك وتطلب الذهاب إلى المرحاض. صار ينادي على الحراس، فيسأله أحدهم من شق الباب إذا كان قد كتب كل الاعترافات، وينهرونه أن لا يناديهم قبل الانتهاء من تسجيل كل شيء. حوالى نصف قرن من الزمان مر على تلك الواقعة، وقيل الكثير عن تطور أساليب التحقيق في البلد. ربما أرادوا فعلاً استضافته بمشروب بريء هذه المرة.

أبلغ الجد هاتفياً مدير مكتب الوزير بما جرى، وأن حفيده لا زال قابعاً في مكانه، وسعى مع أصدقاء الحفيد وصديقاته طوال يوم كامل للبحث بعدة طرق عن عائلات الأشخاص الذين تذكرهم من القائمة، ولكن دون جدوى. لم يعثروا على وجود إثبات لأي منهم، أسماء عائلاتهم معروفة، ولكن الشخص لا وجود له. «خدعة مبتكرة إذاً، يعتقلون من يريدون خارج إطار القانون ثم ينكرون وجودهم ويقدمون لمن يسأل عنهم أسماء وهمية لمعتقلين وهميين، ثم يخبرونك أن المفقود يتمتع بحياته هنا أو هناك، وأنك تشكك في الأمن زوراً وبهتاناً». استنتج الجد ذلك وطاف في مخيلته أن قلة من القرود ترتقي إلى مستوى البشر في أفعالها وأفكارها، وغيرهم ينزلون إلى مستوى الحيوان، وبالطبع ليس الحيوان الأليف، ولكن من النوع المفترس والغبي والقبيح. تعود الجد وحشيتهم، ولكنه لم يصل إلى درجة الخنوع وتقبل أي شيء مثل أغلبية القرود.

قبل شهر تقريباً من بداية الاعتصامات حضرت الشرطة مع قوات

مسلحة من جهازين أمنيين آخرين إلى بيت الجد، حيث يقطن حفيده ووالدته وبقية العائلة، ومعهم إذن من المدعي العام لتفتيش البيت عن أسلحة، وقالوا إنهم يبحثون عن مخازن أسلحة. كانت قوات الشرطة في غاية الأدب وحسن المعاملة.. فتشوا ولم يعثروا على أي سلاح. أخذوا الجد معهم لتوقيع المحضر في قسم الشرطة ثم عاد إلى البيت. في اليوم التالي ذهب الجد إلى المدعي العام سائلاً ومتسائلاً عما جرى، فقيل له إن أحدهم أبلغ أجهزة الأمن، وبدورهم يراقبون ثم يطلبون إذن التفتيش إذا كان البلاغ قوياً والمراقبة أيدته، وتحجج المدعي العام بحساسية الموقف وخطورته والتخوف من الإرهاب في المنطقة، وبالتالي لا يسعه سوى الموافقة على طلب التفتيش. «ومن هو أو هي التي أبلغت عن وجود أسلحة في بيتنا؟» سأل الجد، فأكد المدعي العام أنه لا يعرف، وأن الواشي محمي في القانون حتى يتشجع الجميع على معاونة الأمن.

في ذلك المساء طرق أحد الجيران باب البيت، وأبلغ الجد عن وجود شيء في أجهزة الأمن اسمه المصدر. هذا المصدر له عضو اتصال يبلغه بما يعرف أو ما يشك بأنه يعرف، وللمصدر راتب شهري ومكافآت حسب حجم الصيد، وهؤلاء قرود خسيسة ساقطة ويشعرون بعظمتهم وقوتهم في هذه الوظيفة السرية كونهم محميين من القانون وبوسعهم تنكيد حياة من يريدون، وغني عن الذكر أنهم بضمير تحت الصفر. «أي أصبحوا حيوانات ضارية تستمتع بصيد وقمع قرود مذعورة وفوقهم هناك من يستمتع بالقتل والتعذيب أو يمارسه أو يتفرج عليه». قال الجد في ردة فعله الأولية، وشكر جاره على هذه المعلومة. في الأيام التي تلت استنفر الجد الوحش الذي بداخله وبحث عمن قد يكون وشى بهم زوراً. لم يجد عدواً تغير حاله إلى الأحسن وقد يكون مصدراً، فهؤلاء بطبيعة عملهم جبناء، يظنون أنهم سياط وسيوف، ولكنهم مضطرون للبقاء المتواضع

حتى لا يكتشف سرهم. لقد نهب الشك والتخمين ذهن الجد، وتراجعت تدريجاً، مع فشله في التخمين، غرائز الانتقام، لكنه أصبح لوهلة مستعداً لقتل وتعذيب من تثبت عليه تهمة الوشاية الكيدية.

اقتنع بوجود تلفيق خلف اختطاف حفيده، فهو مطلع على تفاصيل حياته وأعماله وتوجهاته في سنوات الدراسة الجامعية، وبعد الانتهاء منها قبل شهور. طالما أنهم ينكرون استضافته فهذا يعني أنه تحت التعذيب وقد تأذى كثيراً، أو ربما قاومهم فقتلوه. هكذا نهبته الشكوك، فوضع خطة مضادة لاستجلاء الأمر. جمع من وثق بهم، وطلب منهم فتح عشرات المشاركات في وسائل التواصل الاجتماعي بأسماء وهمية ومحاولة إفشال أي تتبع إلكتروني للأصول، وشدّد عليهم عدم ذكر أي إشارة فيما بينهم عبر الهاتف. ثم أعد بياناً قصيراً يتحدث عن الاعتقالات الأخيرة غير القانونية، وذكر عشرات الأسماء الوهمية ووضع بينهم اسم الحفيد. هكذا انتشر الخبر في غضون ساعات بدسه في آلاف المجموعات، وإضافته كتعليق لدى مواقع المشاهير والرسميين، ثم أرسل الخبر إلى الصحف المحلية الرسمية، وأيضاً إلى الصحف والإعلام الإقليمي والأجنبي مع إضافة تعليق بخوف الإعلام المحلي الرسمي عن النشر، وتمت صياغة بيان بلغات أجنبية أرسل إلى منظمات حقوقية.

بعد ثمانٍ وأربعين ساعة تقريباً أصدر مكتب وزير الداخلية بياناً ينكر فيه وجود اعتقالات، وهذا ما كان ينتظره الجد الذي توجه فوراً إلى مكتب الوزير، وأصر على مقابلته. قال الجد للوزير إنه لا يعرف من هم المعتقلون ولكن حفيده أحدهم. ثم شرح للوزير عن مقابلته في مقر المخابرات، وأنهم أطلعوه على أسماء معتقلين شاركوا في المسيرات السلمية ولكنهم أنكروا وجود حفيده بينهم. «إذا كان حفيدي ارتكب أي مخالفة فأنا أطالب بتوجيه تهم إليه حتى نعين محامياً يدافع عنه، وإذا كان

الاعتقال تعسفياً أطالب جنابكم كوزير للداخلية بإطلاق سراحه». صمت الوزير لثوانٍ، وقبل أن يدلي برأي أضاف الجد: «حين تصبح جَدّاً ستعرف أن الحفيد أغلى من الابن، واعذرني على القول بصراحة إذا لم أعرف مصير حفيدي بسرعة سأخاطب الإعلام بوجود اسم حفيدي في القائمة وأنها حقيقية». شعر الوزير الجديد في المنصب بالإحباط والغضب، فقد أكدت له الأجهزة الأمنية أن هذه القائمة مختلقة، وبناء على ذلك أصدر مكتبه بيان النفي، وها هو جد أحدهم يقول العكس، ويؤكد أنهم أطلعوه على قائمة معتقلين.

«أتمنى عليك التروي، وأؤكد لك أنني سأبحث في الأمر وأخبرك بالنتيجة». قال بهدوء غير عادي وهو يحاول إقناع نفسه بوجود خطأ ما والتباس، «فلا يعقل أن يستهبلوني إلى هذه الدرجة» دار في ذهنه، وطلب من الجد أن يترك رقم هاتفه واسم حفيده مع مدير المكتب. قبل المغادرة سجل الجد في هاتفه رقم مدير مكتب الوزير الذي قد يتصل منه في حينه.

في الطريق إلى البيت رن هاتفه، وكان الرقم المتصل غير مُعرف، فلم يُجب. تكرر الاتصال مع هاتف الجد وهو يرفض الإجابة، كان متأكداً أنه رقم مدير المخابرات الذي جالسه، وهو لا يريد العودة إلى نقطة الصفر. طلب من الأهل عدم فتح الباب لأي غريب لا يعرفونه حتى لا تصله دعوة خطية منهم. في المساء رن الهاتف، وكان المتصل جوال الحفيد الذي كان معطلاً منذ اختفائه، وعلى الطرف الآخر جاء صوت قرد المخابرات. «لماذا لم تجب على هاتفك طوال اليوم».

«ها أنا أجيب، أين صاحب الجوال؟» قال مقاطعاً وباقتضاب.

«إنه لدينا بالفعل، ولكنه أعطانا اسماً مزيفاً، ولهذا لم تتعرف أنت عليه في القائمة».

«والآن اعترف لكم باسمه، حمداً لكل الآلهة». لم يكن الجد يرغب في الذهاب مجدداً إلى مقر المخابرات فقرر الحسم وأضاف: «هل وجهتم إليه تهمة تستدعي أن نعين له محامياً في الصباح أم أنه سيعود إلى بيته الليلة».

«تهمه كثيرة، أقلها أنه رفع شعارات تطالب بإسقاط النظام».

«لا عفواً، هذا غير صحيح». قاطع الجد محادثه وأكمل: «.. رفع لافتة كتبتها أنا بيدي تطالب بإسقاط الحكومة، وهناك فرق بين الحكومة والنظام، وكل الشعب طالب بإسقاط الحكومة، هل تظن أن المتظاهرين كانوا يؤيدون الحكومة، وحفيدي الوحيد الذي تمرد وطالب بإسقاطها». كان المحادث على الطرف الآخر يحاول المقاطعة والمجادلة. «.. حفيدي يعود إلى بيته الليلة، أو توجهون إليه تهمة رسمية ويتم إيقافه في أي مركز شرطة ريثما يُعرض على القاضي، أو سأوجه في الصباح دعوة قضائية ضدكم باختطافة وإخفائه طوال أسبوعين بدون مبرر قانوني».

«لا تريد التفاهم إذا؟».

«هذا صحيح الآن، حضرت إليكم طلباً للتفسير والتفاهم فأنكرتم وجوده، والآن طلع هو مزيف لاسمه ومنكر لذاته.. إذا كان كذلك فهو لديكم فتفاهموا معه، أما أنا فموقفي أصبح واضحاً لديك.. واعذرني على إنهاء المكالمة الآن». في ذلك المساء، وبطلب من الجد، أعدت والدةُ الحفيد حقيبة السفر، كان عليه الذهاب إلى مستشفى لأخذ تقرير بوضعه الصحي ثم التوجه خارج البلاد لينضم إلى والده في المهجر. لقد رفض الجد في شبابه الهروب، ولكنه أصبح يتخوف على حفيده وهو يرى أن الطغيان يغرس الخوف بشكل دائم لتأمين ديمومته، وهذا يتطلب خلق رهبة لأصغر ممثل في الإدارة حتى يشعر الجميع أن مصيرهم معلق بوشاية أو سوء فهم، فيتحول الجميع إلى قطيع ينتظر الصدقة ويحابي ويتملق.

أما وقد ثبت وجود واشٍ، وها هو الجد يتصدى لممثل أمني، فهذا يعني استمرار المضايقة وربما تحولها إلى غدر، وبالتالي قرر عدم تحويل من يحبهم إلى فريسة أمام حيوانات ضارية.

حفيد الملوك

تذكر قصص جد الجد والرؤوس المقطوعة لمن حضروا يتشفعون لأقاربهم الأسرى، ويعتذرون عما فعلوه واعتبرها ذلك الجد خطأ في حقه وعدم انصياع لرغباته.. تلك الرواية ذكرها جده لضيوف حضروا للغرض نفسه فكفوا عن طلبهم حتى لا تتكرر الأحداث معهم. تذكر حفيد الحفيد تلك الرواية وهو يستمع إلى تقرير من مستشاره الإعلامي والذي يكلفه بأشياء خاصة أخرى كثيرة غير توجيه الإعلام، مثل الإشراف على عمليات تعذيب المعارضين على اختلافها وللمعارضات أيضاً. أقر له المستشار أن المعارضين من رعيته في الخارج ارتفع تعدادهم، وأنه جدولهم في قوائم حسب درجة خطورتهم. هذا المستشار قرد مطيع ومتفانٍ في الخدمة، وذو قدرات عالية في الإلكترونيات والاختراق للحسابات الإنترنتية، ولكنه لن يُقصر في تأدية أي خدمة أخرى لولي نعمته حتى لو كان يعرف أنه ليس في مستوى العمل المطلوب. المستشار جزء من الأدوات التنفيذية التي تعمل بدون تفكير وبالتالي لا نصح لديها تقدمه ولا اعتراض على ما تسمعه.. فقط سمع وطاعة لإرضاء الزعيم الذي بذلك يعتقد أنه العبقري الذي لا يخطئ. في الماضي كان قطع الرؤوس للمعارضين يحسم المواقف وينهي الخلافات، ثم أصبحت الأموال لاحقاً تتحكم فيما تقوله الصحافة المحلية وبعض الخارجية، لكن الآن في عصر الميديا المفتوحة للجميع لم يعد بالإمكان ضبط كل المتحدثين، خصوصاً في الخارج، لكن يمكن تحديد هوياتهم، والتشويش عليهم وخلق حسابات كثيرة مؤيدة لطرف ومشككة في المعارضين، وهذا من ضمن مهام المستشار الهمام.

«أريد وقف كل الكلام المعارض الصادر عن أي من رعاعنا في الداخل أو في الخارج». قال القرد المتنمر، لمستشاره الإعلامي فاغراً حنكه عن أسنان صفراء ضخمة تعطي شكل رأسه حجماً أكبر وشراسة إضافية. قدم المستشار مقترحات إلكترونية بتعطيل حسابات المعارضين أو تشويه محتواها. «هذا لا يكفي ولن يجدي، يجب إرهابهم وترويعهم أينما كانوا». قال القرد المتنمر وهو يتذكر ولائم جد جده، ثم سأل من الأكثر شهرة وتأثيراً من بين المعارضين، وجاءه الجواب المتوقع فوراً. «.. نعم يجب أن نمثل بهذا القرد ليكون عبرة لمن يعتبر، لقد كان خادماً مطيعاً ثم تمرد، وها هو يضع الخطط ليُظهر ذاته. نسّق مع المعنيين، واعتبروه هدفاً، وافعلوا اللازم، يجب أن يفهم الجميع أن المعارضة والكتابة، بل والكلام ممنوع وله ثمن باهظ». تذكر المستشار كيف تخلصت حكومة، كانت صديقة، من أحد معارضيها الذي احتمى في الخارج.. انتظروا حتى توفيت والدته وأعطوه الأمان لحضور الجنازة في بلد مجاور، وفي طريقة إلى المطار عائداً خطفوه وعذبوه وقطعوا أصابع يده اليمنى وقتلوه وأخلوا سبيل جثته ليتمعن كل معارض لهم فيما ينتظره.

بعد فترة مراقبة وتتبع للهدف، اكتشف المستشار حاجته للحصول على أوراق رسمية تثبت طلاقه من زوجته كون البلد المضيف له يرفض تعدد الزوجات. كانت سلطات بلاده في السابق، وبأمر مباشر من القرد المتزعم، قد منعت زوجته من مغادرة البلاد لتلحق به، وخيروها بين أن تطلقه ولا تغادر، أو يقتلونها، فقبلت بالطلاق منه. أراد الاستقرار، وكون معتقده يسمح أصلاً بتعدد الزوجات سعى للزواج، واحتاج لإثبات عزوبيته، فأوعزت إليه سفارة بلاده حيث يقيم بضرورة السفر إلى أرض الكرت القريبة لبلاده وذات العقيدة الدينية المشابهة ليستخرجوا له الشهادة وليتزوج هناك. هنا بالذات أبلغت السفارة المستشار بالأمر، فاتفق مع

مسؤولي سفارتهم في بلاد الكرت بالمماطلة ليومين حين يتقدم إليهم بالطلب. فوراً جهزوا فريق النمر الأسود: ضباط أمن أشداء، محققون، ضابط مطافئ، طبيب تشريح حمل معه منشار عظام، وبالطبع قرد شبيه تزود بلحية مستعارة ليبدو على شاكلة الهدف وتدرب على تقليد مشيته وتحريك يديه. خمسة عشر قرداً استقلوا طائرتين خاصتين ووصلوا إلى البناية المحصنة بالقوانين الدبلوماسية قبيل موعد وصول الهدف إليها. وكون الزعيم لا يثق بجدارة أحد ممن حوله طلب من المستشار مرافقة فريق النمر، وطلب منه أن يبقى على تواصل معه طوال الوقت.

طبعاً هدف العملية هو ترويع كل فئات وأطياف المعارضين لسياسة وسلطات الزعيم الجديد، أما الأسلوب فهو قص لسان ونشر أصابع الضحية التي يكتب بها وحملها إلى صاحب الأمر، حفيد قطاع رؤوس المعارضين. طُلب من فريق النمر أيضاً تقطيع بقية أوصال هذا المعارض ورميها في أطراف المدينة حتى تنهشها الكلاب، ويتم العثور على البقايا والتعرف إلى صاحبها ولكن من دون إثبات مسؤولية مباشرة للقرد الزعيم أو لجماعته، الذين يعرفون بدورهم أن المعارضين سيفهمون الرسالة من غير إعلان مسؤولية. لأنها قرود غبية متوحشة وغريزية فلم يتقنوا الاستعداد للعملية، لم يراقبوا الهدف وهو قادم مع خطيبته، وتركها لتنتظره على مسافة أمتار فقط من السفارة، ولم يتنبهوا أنه سلمها هواتفه، ولم يعرفوا سابقاً أنه يملك ساعة يد تبث الصوت بتقنية البلوتوث إلى جواله. دخلوا المكتب الذي وصله قبلهم وباشروا الاعتداء عليه، ارتفعت الأصوات فكتموا أنفاسه وعروه من ملابسه وقتلوه وقطعوا أصابع يده، واحتج القنصل وطلب منهم استكمال عملهم خارج المكتب فأخرسوه بالتهديد.. فجأة اكتشفوا الساعة وتعاملوا معها ولكن بعد فوات الأوان، فقد بث ما جرى وتم تسجيله على الجوال المنتظر في الخارج والذي

لم تكن الخطيبة، حاملته، تعرف بأنه يستقبل من الساعة، فلم يكن القتيل يتوقع هذا الفخ، ولكنه للاحتياط أراد تسجيل ما يدور وإذا كان للقنصل رسالة يريد إيصالها منهم إليه. كان يظن أنه تابع لمنظومتهم ولكن برؤية وسطية، وأنهم سيتحملون اعتراضه ويسخرونه لمصلحتهم، لذلك ذهب إليهم من دون خوف أو احتياطات.

ارتبكوا بسبب الساعة، لكنهم واصلوا تنفيذ المهمة، أخذوا ملابسه وارتداها القرد الشبيه وخرج من باب آخر ومر أمام الباب الذي دخل منه المغدور لتصوره الكاميرا التي صورت دخول الأصلي. سار معه قرد آخر يحمل كيساً بلاستيكياً فيه ملابس الشبيه.. تسكعوا إلى منطقة سياحية، وغير الشبيه الملابس وخلع اللحية وعاد بشخصيته الفعلية كما اقتضت الخطة الأصلية. في هذه الأثناء اتصل المستشار بالزعيم وأبلغه بالتعقيدات وحيرتهم ماذا سيفعلون بالجثة.. التهموها أيها الأغبياء، قال لهم غاضباً. تم تقطيع الهدف لكن بدل توزيعه على صناديق وعدة سيارات تنطلق لاستكمال المهمة برمي الأجزاء، استبدلت الخطة بسبب اكتشاف الساعة وغضب الزعيم، استُبدل الرمي لأجزاء الجثة بإذابتها في الأحماض والادعاء أنه خرج من السفارة حياً. عندما تأخر الخطيب في المبنى دقت الخطيبة جرس الإنذار، وأبلغت الجهات الأمنية والإعلامية، وتوجهت الأسئلة إلى بيت القتلة.. قالوا إنه خرج من المبنى الدبلوماسي، فاستمر الضغط عليهم وتزايد وبدأ تسريب رسمي بطيء ومتواصل من البلد المُضيف حتى اعترفوا أنه مات نتيجة عراك بالأيدي، اعترفوا لأنهم تأكدوا من وجود تسجيلات مع الغير لما حدث.. لم يقبض أحد في الكوكب روايتهم واتضحت الحقيقة، أن القتل كان مدبراً قبل أيام على الحادث، وأن التعليمات جاءت من القرد الحاكم الناهي والآمر الفعلي والمُدعم من القرد الأحمر الذي يتصرف كزعيم لكل الكوكب.

القرد الملتحي يشعر بأن زعيم العالم، القرد الأحمر بمارت في جيبه، ولن يعترضه لعدة أسباب: حجم رشى الصفقات التي منحها له ولبلاده، وجود صديق كمستشار للأحمر وهو أيضاً صهره وهو الجمودي رينشوك، الخدمات التي يقدمها الملتحي للجمود وانخراطه في مساعي حل سياسي يُنهي قضية احتلال الجمود لبلاد لا سلطات له عليها، وأماكن مقدسة لا وصاية له عليها، ويذيب قضية لاجئين لم يساعدهم في الماضي، وبالتالي فبلاد القرد الملتحي ممول لبلاد ومصالح الأحمر وصهره، وحامٍ للجمود الذين يسيطرون على البيت الرمادي وساكنه الأحمر، ويقدم من الوعود ما لا يملك. كان القرد الملتحي يعرف أن الزيلجن ومخابرات بمارت يعرفون بمخطط قتل هذا المعارض، فقد تدخل الزيلجن ونصحوه بعدم التنفيذ وحذروه من عواقبه، وحرصت مخابرات بمارت على إبلاغه برفضها للأمر، إذ كانت عصابة الزعيم يريدون قتله في بلاط سفارتهم لدى القرد بمارت.. عرفوا وسكتوا للإيقاع به وابتزازه لاحقاً، لكنه اعتبر صمتهم موافقة وواصل تنفيذ الجريمة.

ثقة القرد الملتحي في التملص من أية مسؤولية نبعت من تجارب سبقت، فقد اعتقل رئيس وزراء بلد أخوي، وأجبره على التنازل عن الرئاسة وادعاء أن قراره حر ولوم بلد آخر خصم بمسؤولية الاستقالة كونه يتدخل في بلاده!! وحاصر بلاد مجاورة براً وجواً ما تسبب في ضخ الأموال لاسترضاء وكسب تأييد الزيلجن وبمارت، وتهرب من مسؤولية اعتقال أبناء عمومته وإكراههم على التنازل، عبر التعذيب، عن جزء من أموالهم كفدية مقابل إطلاقهم. ولم يعترضه أحد، إذ ادعى أن هؤلاء فاسدون حصلوا على المال بالفساد، فسكت العالم الذي يعرف أن الفساد والمحسوبية ساريان في قصورهم. تبع ذلك اعتقال قرود الفتاوى الذين قامت البلاد في شكلها الحالي على أكتافهم وأفعال أجدادهم من

قبل، إذ توارثوا تقاسم السلطة مع العائلة المتملكة، هم يُشرعون ويبررون وأولئك ينفذون ويحكمون.. فلما اعتقلهم ليثبت للأصدقاء الجدد أنه قرد متحضر، سكت الجميع عن ضيم الذين خلقوا الضيم للآخرين. ثم تملص الزعيم الملتحي من قضية قتل طلاب صغار في باص مدرسة، وقيل إنه تم قصفهم بالخطأ، وما زال السكوت يخيم على حرب يقودها كوزير للدفاع وأدت إلى دمار جيرانه وإحداث مجاعة لم يحصل في التاريخ مثيل لها.. آخر المعلومات تؤكد وصول تعداد الذين يعانون المجاعة بسبب تلك الحرب، في أرض النمي، وصل إلى ثمانية عشر مليوناً، بينما قادة الكوكب القرود الكبار تعودوا واعتادوا هذا الإجرام ويزودون القاتل بالسلاح مقابل المال.. القرد الأحمر يتحدث علناً بدون أن يشعر بحرج، أن بلاده تبيع السلاح بمئات المليارت ولا تريد مقاطعة أو عقاب الإجرام حتى لا تضيع الأموال!! إن الظلم الواقع هنا سبقه ظلم مشابه منذ سبعة عقود في بلاد مقدسة احتلها الجمود بدعم الزيلجن وتواطؤ وسكوت الجيران المفترض أنهم إخوة. في مثل هذه الحالات تكون الحقائق واضحة للجميع عبر الكوكب، بل تُتخذ قرارات تناصر الحق لكن في الواقع لا مقاوم للظلم والظلام، ولا ملتزم بقوانين ومعاهدات كوكبية، فالقرود كلها تصبح عمياء خرساء طرشاء.

كان يقال عمن يُفقد من القرود: خرج ولم يعد، ربما ضاع أو خُطف أو أكلته الذئاب، ولكن الآن تطور الأمر إلى: دخل ولم يخرج. في زمن ما قبل تحول البشر إلى قرود كان علماء مقاومة الإجرام حين يجدون جثة ضحية يبحثون عن القاتل حسب دراسة المعطيات، أما الآن فهناك جريمة وقاتل مُعترف بجريمته ولا توجد جثة أو محاسبة. جريمة أُريد لها السرية فأصبحت الأكثر انتشاراً ومتابعة.

مع ظهور الملامح الأولية للجريمة وانهيال الاتهامات تصدت قرود

مأجورة وأخرى بحسن نية للدفاع عن المتهم الأساسي.. كان الطيبون منهم لا يصدقون ذلك الاحتمال الغريب والمستهجن والمحرم حسب الأعراف والتقاليد والأديان.. لم يتصوروا وصول قادتهم إلى تلك الدرجة من الخساسة وغباوة التنفيذ لأن القرود على دين ملوكها، وهم يظنون أنهم يعرفون ملوكهم ودينهم وأنهم معاً على الطريق الصواب. ظنوا أن الأمر دبره أعداء بلادهم ليشوهوا سمعة قادتهم ودينهم، ثم اعترف القادة بفعلتهم، فسكتت القرود وابتلعت المرارة بعد أن صدقت الكذب الذي قيل لهم في البداية. كانوا مضطرين إلى تكذيب واستهجان ما قيل عن قادتهم وعن أجهزتهم، ثم فغروا أفواههم حين اعترف هؤلاء بفعلتهم.. إنها صدمة قوية يفترض أن تزلزل موازين الثقة بين القرود الحاكمة والأخرى المحكومة، لكن المحكومين وعبر التاريخ يخنعون لأي قانون طالما توافر لهم الطعام والألعاب.. الطعام يُهدر منه الآن ٤٥٠ طنًّا يومياً وذلك من ٩٠ بالمئة من قرود البلد وبتكلفة تعادل ٥٠ ملياراً سنوياً.. أما الألعاب فقد أصبحت تتوالى بسرعة وتشمل حفلات غناء، وفرق رقص مستوردة، وحتى مصارعين وركوب ثيران لتحسين ثقافة سباق الهجن. كل ذلك بدايات فقط لما يقدمه الزعيم بشكل متسارع من عطايا وحريات قشورية لذرِّ الرماد في عيون الكوكب، واستعادة رضى الشارع المحلي، وإصلاح آثار خطيئة المنشار التي أعاقت رغبة الزعيم في تولي الحكم قبل الأوان، وتثبيت مبدأ وراثة الابن للأب بدل تتابع الأخوة العجزة على الكرسي.. ويبدو أن النجاح يحالف الزعيم، فالعجلة تدور وتتسارع كما يريد لها.

صهر القرد الأحمر حثه على عدم الاستجابة لصراخ الكوكب المطالب بالعقاب ومساءلة القتلة، ومقاطعة نظامهم، فاستجاب الأحمر لصهره وبرر السكوت بالمكاسب، وألغى علناً نهاراً وجهاراً مبادئ العدالة

والأخلاق والمساواة والحرية، ويضيف من التبريرات للتناسي أن المعني مفيد للجمود ومؤيد لدولتهم الغاصبة، بل قال إن نظام القتلة هو الحامي الأفضل للدولة العنصرية الجمودية، ذلك النظام الذي قام على ادعاء الدين ولاحقاً على ترويج أنه معادٍ للجمودية ودولتها المحتلة.. الآن اكتملت الدائرة، وظهرت أصول كل فريق وكشفت أفعاله القديمة الجديدة التي طالما استهجن التقول بها من الآخرين، واتضحت أهدافه وأصبح التآمر علناً ومنشوداً.. ثبت بالفعل أن العرق دساس وأن الزيلجن للبلاء أساس. الغاية هي الاستمرار في الحكم بالأسلوب المطلق، والوسيلة لا تستثني أي عمل مهما كان مخالفاً لقوانين القرود ومن قبلهم البشر ورؤيتهم وسليقتهم وتاريخهم.

ثمن العلف

قرود ذكية..!

«لماذا يتفوقون علينا وعلى غيرنا من القرود البنية؟ هل هم أغنى منا مالاً، أو أكثر عدداً، أو لديهم تركيبة جسمانية وذهنية أفضل منا؟ هل تعاليمهم وديانتهم أرقى مما لدينا، أم هم ملتزمون أو منفلتون ونحن على عكس فعلهم..؟؟».

«ليس هناك أي شيء من ذلك، وليسوا أذكى منا أيضاً، فرغم إنجازاتهم لأهدافهم لا يمكن الحسم بأنهم على طريق الصواب، فهم مثل الذي يبالغ في شد اللولب فينكسر بين يديه ويؤذي وجهه». كان الجد يعرف أن حفيده يتحدث عن تفوق الجمود والقرود الشقر والزرق ونجاحاتهم على طريق أهدافهم والانسجام الذاتي في مجتمعاتهم، فقد تكررت مثل هذه النقاشات بينهما في الآونة الماضية، لكن الجد عزم على توسيع الرؤيا لعل حفيده اليافع يتروى ويستوعب فأضاف في رده على تساؤلات حفيده وقال: «الفرق الأساس والأهم هو تقبلهم للعبة السياسية الديمقراطية وتطبيق النتائج، وتداول السلطة، واحترام القانون والتزام الخط الذي تتفق عليه الأغلبية وتنفيذه.. هذا ما أصبح يعفيهم من معظم الموبقات المتفشية بيننا، ويقربهم من أمم القرود الأكثر تطوراً. لا توجد فروق بيننا في تركيب الجسد، لكنهم نظموا ذاتهم فأصبحوا في نعيم ونحن ننشر الفوضى فنعيش في جحيم». ارتسمت علامات ترقب على وجه الحفيد وتنبه الجد لاقتراب قرود أخرى فانتظر وصولهم وجلوسهم، ثم أوجز لهم عما كان يتحدث مع حفيده وأكمل:

بالنسبة إلى الأموال نرى أن القرود الأخرى في الدول المتقدمة التزمت بدفع ضرائبها منذ كانت فقيرة حتى أصبحت غنية، وأموال الضرائب هذه هي التي تنفق على حاجة الجميع من الخدمات الأساسية، وبالتالي تؤهل للمزيد من الإنتاج والأموال والنظام والسعادة. أما في مجتمعاتنا فقد التزم أولي الأمر بالسيطرة على المال وديمومة الحكم واعتمدوا على التشبه بالممارسات التي سادت منذ نشأة الدين.. آنذاك كان الدخل من الغزوات يتوزع على المحاربين وكبار القوم فقط، والآن أصبح الدخل من باطن الأرض يذهب إلى كبار القوم أيضاً ولا يوزعون منه على الآخرين إلا قليلاً، ولا يلتزمون بمبدأ التعاضد الديني مع الجيران الفقراء؛ صحيح أنهم يتدخلون في شؤون بعضهم السياسية إلى درجة بيع بعضهم لبعضهم الآخر ولكن لا مشاركة ملزمة في المال، ولا توجد مداخيل أخرى كون نظام النهب والاستحواذ حدَّ من فرص تدوير المال وتعميمه وزيادته. أما من اغتنوا من عامة القرود نتيجة لاجتهادهم فلا يقلدون أغنياء الجمود بالتبرع المجزي لخدمة قضايا تهم رؤيتهم المشتركة، فكل منهم يقلد الحكام في الاستيلاء والبخل والتنصل من خير الجماعة.

هل الجمود والشقر والزرق أذكى من البنيين؟ لم ينتظر الجد أجابة من أحد وواصل حديثه: لو تأملنا وتبصرنا قليلاً سنجد أن ما نراه اليوم من صراعات غبية هو تكرار لصراعات سبقت وتكررت منذ آلاف السنين، ولكن الجميع لا يتعظون. مثلاً قبل ١٥٠٠ سنة تصارعت إمبراطورية من شرقنا مع أخرى في غربنا، أما نحن فانقسمنا على ذاتنا، بعضنا قاتل مع الشرقيين وبعضنا الآخر انضم إلى الغربيين، وفي الحالتين جعلوا منا حراساً لحدودهم ومصالحهم. ذلك الصراع يتكرر الآن ونسمع عنه بشكل يومي، وبالمجمل فموقفنا هو الانقسام ذاته، ننقسم في تأييد كل من الطرفين ونصارع ذاتنا لمصلحتهم. سأذكر لكم مثالاً آخر، قال الجد للمنصتين

الذين عرفوا عما تحدث للآن ويحبون الاستماع إليه كونه من القلائل الذين ما زالوا يطالعون سير التاريخ: قبل ذلك الصراع القديم انشقت الإمبراطورية الغربية على ذاتها، وهاجمت أقوام همجية الجزء الشمالي الذي فشل في حماية حدوده من اقتحامات تلك الأقوام واختلطت سوياً ثم تعايشت طوال قرون وانصهرت بعضها مع بعض. أما الجزء الآخر من الإمبراطورية فقد خسر كل أراضيه حول البحر ولم يسترد عافيته إلا بعد ألفي عام حين عاد للتفاهم والاتحاد لنصف قرن، وها هو التشتت مجدداً ولأسباب عدة على الأبواب. أحد أسباب الاختلافات الغربية الجديدة هو الهجرة من الجنوب ومن الحروب إلى الشمال، حروبهم التي أشعلوهامن دون حساب لعواقبها.. كل ذلك التصرف المتكرر منهم ومنا لا يمكن وصفه بالذكاء.

لا يمكن أيضاً وصف الزيلجن بالأذكياء.. صحيح أنهم سبب الخراب والمشكلات في غالبية بقاع الكوكب، وأنهم عاشوا وأقاموا إمبراطورية على السلبطة والنهب والفساد، لكنهم الآن هبطوا إلى قعر الدول الغربية المتقدمة، وصعدوا إلى قمة جداول الخاسرين مادياً ومعنوياً، ، وجيرانهم يكرهونهم ويبتعدون عنهم، أما قرودهم فهي منقسمة على ذاتها في جزيرتهم الصغيرة المهددة الآن بانفصال غربها وشمالها عن وسطها، فكل من أجزائها عاد إلى لغته الأصلية وعاداته ويطالب بنصيب الأسد من خيراته.. كل ذلك بفعل سياسات أنانية ستؤدي بهم إلى الخراب. كل الإمبراطوريات قادها الغرور وأبادتها الأنانية، وهذا أيضاً ما ينتظر بلاد القرد الأحمر الأهوج بمارت التي تناصر الفساد وتسعى إلى النهب وتتخلى عن المبادئ وقيم العدل. أما الجمود فبقدر ما يمارسون الذكاء ويخططون للمستقبل إلا أن نظرتهم قصيرة، ولم يفكروا في حل معضلة الجغرافيا. بوسعك أن تعيش معزولاً مكروهاً بين خصومك إلى حين،

لكن ليس إلى قرون، والحروب لم تقدم حلولاً في أي عصر، ولكنها في أحسن الأحوال تعيد خلط الأوراق. قد يطول الاضطراب والزمن الرديء قليلاً في منطقتنا بفضل خطط وممارسة الزيلجن في السابق وتطبيقها من الجمود الآن بدعم من أنصارهم، لكن لا بد من الاستقرار المتعادل ولو بعد حين. لقد أغرقونا في حروب قبائل وجيران وأغرقنا أنفسنا بالحفاظ على العبودية والاضطهاد والحرمان من الحريات وتحديد مصادر الدخل، لكن من المستحيل استدامة تجاور الفقر مع الغنى والظلم مع الحرية والديمقراطية مع الديكتاتورية، فعاجلاً أو آجلاً لا بد من عدوى هذا لذاك.

حين يتقلص التحكم الاقتصادي والمعنوي يمكن الحفاظ على الفروق عبر التفوق العسكري، لكن إلى حين. عندما تصبح الحرب وسيلة أولى وليست أخيرة للحسم وزرع الخوف والرعب في قلوب الخصوم سيأتي انهيار القوة الغاشمة بسرعة غير متوقعة، سواء أكان ذلك بسبب نقص الفوائد والموارد، أم نتيجة لتقمص المغلوب عسكرياً لحضارة الغالب الذي يفقد بالتالي ما كان يميزه.

«تقصد يا جدنا لو تقمصنا حضارة الجمود وأساليبهم يمكن أن نغلبهم؟» شعر الجد عبر هذا السؤال بأن مستمعيه يودون سماع ما يخصهم وبعيداً عن العموميات.

«ليس بالضرورة أن نغلبهم، ولكن أقله نحد من تدهور وضعنا ثم نتعادل معهم ونقترب من تفاهم يفيد الجميع». قال العجوز وصمت ليرى أين تريد القرود الفتية توجيه الحديث.

«لكننا سنفقد خاصيتنا لو تقمصنا حضارتهم».

«إذا قصدت الدين فليس هذا المطلوب تقمصه لأن كل الأديان تؤدي إلى النتيجة نفسها، وهم لم يتفوقوا عبر الدين. وخاصيتنا التي تتخوف من فقدانها دفعت بنا إلى الخلف ومهدت طريق خصومنا منذ مئات

السنين وحتى الآن». قال القرد العجوز وقد عزم على إجراء مقارنة سريعة ليوضح لهم مقصده. «نحن نواجه مشكلة في قيادتنا عبر كل منطقتنا أقله منذ بداية العهد الكرتي وحتى كل من يعتبر ذاته رئيسنا الآن. منهم من تنصب بالإرهاب والترهيب وقطع الرؤوس الذي أورث الحكم، وبعضهم جلبته قوة السلاح وعصبة مسلحة إلى الكرسي، وبالتالي يتمسكون كلهم به حتى لو كان كرسياً متحركاً. في الوقت نفسه خطط الجمود ووضعوا هدفهم ورسموا طرقهم وأقاموا أطرهم وتكاتفوا سعياً إلى تحقيق غايتهم وما زالوا يسعون لاستكمال خططهم. كسبوا التأثير المالي والسياسي على صعيد الكوكب ولطخوا صورتنا ثم خربوا مستوى تعليمنا وأفسدوا علاقتنا مع محيطنا، وأفسدوا بين قياداتنا وأوصلونا إلى نظام سياسي متحجر فاسد متكالب لا يندثر إلا بالموت، بينما تغيرت لديهم وتتابعت عشرات القيادات ومارسوا الانتخابات واحترموا النتائج. بفضل هذا وذاك يتفوقون ونتراجع حضارياً وجغرافياً واقتصادياً وعلمياً وبالطبع عسكرياً. هم تقمصوا حضارة الدول المتقدمة وتفوقوا على بعضها، ونحن بالمجمل تمسكنا بخواصنا التي زرعوها في تربتنا وما زلنا نتقاتل على الكرسي ونعزز القبلية والطائفية وننتج الحروب طويلة المدى».

«نعم.. قبل نكبتنا كانت قياداتنا دينية على نهج القيادة التي سادت لأربعة قرون، ثم مع بداية الصراع ضد الزيلجن نمت قيادات عائلية متصارعة ومتهاونة وليست في مستوى قيادة وقدرات الجمود المدعمين من الزيلجن، وانقسموا في مستوى توافقهم مع المحتل. بعد النكبة والخسارة غيب زعماء المنطقة دور تلك القيادة اتقاءً للشر واستجابة للزيلجن، وبعد استعادة الإرادة أصبحت القيادة للأقوى، أو لمن يطلق النار ولأنهم أقل حيلة وقعوا في فخ التصالح بعد التنازل عن ثلثي البلد؛ فالمقاتل يقتل حتى يجلس على الكرسي ثم يتمسك به حتى الموت.. وباختصار ها نحن

نعود إلى اقتتال القيادات وتقسيم البلاد والولاءات علماً بتعامل كل أنواع القيادات مع الجمود الأعداء، فلم يعد هناك خجل من عمالة القيادة.. والبلاء هو تسرّب الجغرافيا من تحتنا كل ساعة بينما القيادة متجمدة الأعضاء ما عدا اللسان يكرر الهذيان».

«صحيح.. لقد فشلنا ديمقراطياً بل لم نتمكن من إقامة أطر اجتماعية ذات قدرة على التأثير في توجهات السياسة والقيادات، لقد نجحوا في تحويلنا عبر أدائهم إلى غنم تبحث عن فتات المراعي من هنا وهناك». قال الجد بهدوء غاضب وبهجة مخفية معلقاً على كلام حفيده.

«والحل يا جدنا؟ ماذا لو طال واقعنا كقرود ولم نتقدم إلى مستوى بشر نمارس حقوقنا ونلبي واجباتنا، أو لم نتراجع إلى مستوى حيوان يكتفي بتوافر العلف.. ماذا علينا فعله إذا استمر هذا الحال؟» سأل مستمع آخر القرد العجوز.

«التكالب مستمر علينا سواء من قادتنا الذين نسكت عنهم، أو من عدونا الذي استعاد كل حقوقه وتعويضاته ممن ظلموه في السابق ويرفض الاعتراف لنا بأي حق عن ظلمه لنا، أو حتى من الزيلجن بالطبع الذين يواصلون دعم المحتل الظالم، ويرفضون الاعتراف بأي خطأ منهم تجاهنا، بل يحتفلون جهاراً مع عدونا في ذكرى خيانتهم لنا.. هذا كله لا يُبشر بخير مستقبلي. لذلك أرى خياراتنا كالتالي: تنبه القرود لما سيقول الجد.

تغيير قياداتنا كلها ورميها في صندوق القمامة كونها صاحبت العدو فأصبحت كمن يحمل الحية في كمه، وانتخاب قيادة جديدة تقبل بتغييرها ديمقراطياً في مواعيد ثابتة مهما كانت الظروف وبشرط أن لا يتجدد لها الترشيح. واجب هذه القيادة هو عكس المجريات إلى وجهتها الصحيحة مع الالتزام بتثبيت الحقوق.. وهذا الحل طبعاً سيعطي نتائج بطيئة في البداية، ولكنها تتسارع بتسارع جودة الفعل والالتزام، ويمكن سياسياً

طرح حل مصاحب وهو إقامة دولة واحدة للجميع بحقوق وواجبات متساوية، مع الإصرار على تعويضنا عن استغلالهم لأرضنا وعن المعاناة التي تسببوا بها، تماماً مثلما حصلوا هم على التعويض المادي والحقوقي الشخصي والجماعي ممن ظلموهم، وهذا الطرح سوف يسحب بساط الدعم المعنوي والسياسي من تحت عدونا.

الحل أعلاه متوسط الأمد ولكنه مضمون العواقب، أما الخيار الثاني فهو العودة إلى نضال ذاتي بمعنى الاعتماد على الذات وليس على الذين قايضونا منذ عقود لتحقيق مصالحهم مع الزيلجن، أو الذين يغمضون عيونهم لإرضاء الجمود وأنصارهم.. والمقصود هو نضال مرير بربري سيؤدي إلى تضحيات ويتطلب تكاتفاً داخلياً وإصراراً على شاكلة الكثير من الثورات التي ضحت وانتصرت بل وهزمت قوى أعظم من عدونا.

الخيار الثالث لو تمكن بعضنا من تطوير سلاح تدميري أياً كان نوعه، ويستعمل مرة واحدة، فيهدم المعبد على من فيه فنرتاح ونرُيح، لأن وضعنا أصبح الآن إذلالياً تعذيبياً أسوأ من الموت ذاته، وبدون أي من هذه الحلول سنصل بسرعة إلى مرحلة الاستسلام التلقائي والاندثار وتمهيد الطريق للعدو لإنجاز مرحلة تالية من أهدافه.

«يمكن للآلهة أيضاً أن توقف تحولنا من قرود إلى حيوانات وتواصل تحويلهم».

«لا أعتقد أن ذلك يمكن أن يحصل، ولا يجب عليكم الغرق في الأحلام. لا تتوقعوا تدخل الآلهة». قال الحفيد مقاطعاً نظيره في العمر، وتبسم الجد، وتوقفت بعض القرود عن تفلية بعضها البعض، وعبرت مع غيرها بإيحاءات عدة عن موافقتها.

القرود المسحورة

جلس قبالة التلفاز على غير العادة، كانت حالته النفسية متوسطة السوء، مثل أغلب القرود المحلية، التي ترى وتقر بتدهور الأوضاع مقارنة بقرود أخرى في الكوكب، ولكنهم لا يهتدون إلى سبب هذه الفروق. في محطات الأخبار شاهد وسمع عن قتل القرود الغنية في المنطقة لجارتها الفقيرة، وتجويعها بهدف تركيعها وبحجة إبعادها عن توجه ديني مخالف، أي ضرب الأخ والجار لإيذاء خصم غريب! في محطات أخرى سمع عن اختطاف وقتل قرود معارضة خارج بلادها، واعتقال زعيم متدين لعشرات آلاف من يعتبرهم متآمرين على نظامه، وذلك بسكوت كوكبي واستمرار في التعامل مع حكومة الزعيم ورئاسته. إنها القرود المتنمرة تحاول إرهاب أي معارض في الداخل أو في الخارج، وهذا الأسلوب هو الأشد غباوة، فبدل انتهاجهم سياسة تحبب الرعية فيهم، وتأخذ ببعض صفات الإنسانية المنشودة فيتعزز بذلك موقعهم القيادي، يلجأون إلى قتل واعتقال المعارضين وإرهاب بقية القرود، فتتأكد الكراهية لهم. في محطات مختلفة، نعم هناك أكثر من ألف خيار من المحطات المتحالفة والمختلفة والمتصارعة، شاهد أفلاماً هابطة فيها دروشة ورقص وسحر. وشاهد أيضاً محطات تبث صوراً وصوتاً يبشر برجال دين بوسعهم فك السحر وعمل سحر مضاد وتزويج العوانس والقيام بأعمال لتطويع الزوج للزوجة أو العكس، وبالطبع إخراج الجن من الجسد وشفاء المرضى ولكل داء دواء يعرفونه.. ولا تحتاج لنيل أمنيتك، وأكثر منها، سوى إلى

اتصالٍ هاتفي وتحويلٍ مالي لهم فتتحقق أمانيك. قال لنفسه: «يا ريتهم يحلون أي مشكلة بسحرهم هذا، بطالة، فقر، أمية، زيادة إنتاج، إنزال مطر ومنع كوارث.».. هز رأسه يمنة ويسرة وأغلق التلفاز.

أعلن جواله تسلم رسائل واتساب، أصدرت صوتاً كإطلاق الرصاص لكثرتها، فعرف مصدرها قبل أن يراها، أحد الأقارب الذي يرسل ما يجمعه بالجملة. فتحها وقرأ: «القرد الذي يسمع الأغاني أثناء الأذان لا يستطيع نطق الشهادة أثناء موته». هز رأسه وأكمل: «إذا لم تنشرها لأصحابك فاعلم أن ذنوبك هي التي منعتك». كانت هذه التحذيرات مسجلة تحت بنود «معلومة غريبة» وهي غرائب شائعة بالفعل بين القرود في المنطقة، قال وتنهد وطالع الثانية: «كل فجر من يوم الجمعة تصمت كل الحيوانات في العالم، تنتظر سماع صوت النفخ في الصور. وتخاف من قيام الساعة ما عدا القرد في غفلة». هذا يعني أن القرود أغبى من بقية الحيوانات وأشد كفراً ونفاقاً، ولكنه يحمل معاني أخرى مثل أن القرد لا يؤمن بنفخ الصور. ولكن ما جاء في المعلومة التالية رجح كفة الاحتمال الأول: «عند سماع الأغاني تحضر الجن والشياطين وترقص حول من يسمعها، ولو كشف الغشاء لصُرع القرد من هول المنظر».. حفلة شيطانية خفية إذاً، ومليارات من الجن والشياطين ترقص حول مستمعي الأغاني عبر الكوكب. وجاء في التالية: «عندما تستيقظ في الساعه ٢ أو ٣ فجراً بدون سبب، فهناك احتمال بنسبة ٨٥٪ أنه يوجد مخلوق يراقبك! (نتائج بحوث علمية على ما يبدو) وأن الإله ينزل في السماء الدنيا ويقول هل من مستغفر فأغفر له وهل من داعٍ يدعوني فأستجيب له». وهذا يشابه عمل المسحراتي في الليل، أو بائع الخضار في النهار. وقرر أن يطالع البقية قبل أن يشطبها من الجوال: «ملك الموت ينظر إليك في اليوم ٣٦٠ نظرة، وينتظر أمراً من الرب ليقبض روحك، فلا تجعله ينظر إليك وأنت على معصية فتقبض

روحك فكيف تقابل ربك؟ في هذا الوقت إذا قال كل متدين استغفر ربي ثلاث مرات، وأمرَّ هذه الرسالة في خلال دقائق معدودات، ملايين من الناس سوف يقولونها وهذا قد يطفئ غضب الرب، ولن تخسر شيئاً». الآلهة غاضبة إذاً، أليس في وسعها قول كن فيكون، إنهم يعممون الجهل والغباوة الألعن من الكفر، تردد ذلك في ذهنه وطالع لإتمام هذه الرسالة: «عندما تمسك بيدك الكتاب المقدس فإن الشيطان يغضب، وعندما تفتحه يبكي (الشيطان) وعندما تقول بسم الآلهة ينهار، وإذا بدأت في القراءه يغمى عليه، وهل تعلم أنك إذا فكرت أن ترسل (هذي) الرسالة أن الشيطان سيحاول منعك، عسى اليد اللي ترسلها ماتمسها النار».

أمية وغباوة وتناقض لا يُعلى عليه، لهذا فجماعات ودول وقبائل منطقتنا وعقيدتنا إما في قمة مؤشرات الفساد والأمية والإرهاب والاضطهاد، أو في قعر مؤشرات العلوم والثقافة والإنتاجية والتراحم.. نحن عموماً من أكثر الأمم في الكوكب إظهاراً للتدين، وتمسكاً به إلى درجة يهون علينا القتل باسمه والحكم الخطأ بشرائعه ونسب قعر الجهل إليه.

تذكر أن نصف أحفادة يعيش في بلاد القرود الشقر، والنصف الآخر ينعم هنا بوالدين أبعد ما يكونان عن التفكير الميتافيزيقي وبالكاد يعتقدون بالحياة الأخرى. لكن والده وجده ومن سبقوهما كانوا يصدقون غير المنطقي ويؤمنون به كجزء من إيمانهم بالآلهة. كان والده يخبره عن قصص العفاريت وأنه شخصياً شاهد ذات ليلة رقبة جمل مقطوعة وطائرة، وأنه عايش تجربة البعض ممن أركبوا خلفهم على الحمير عابر سبيل ليساعدوه في الوصول إلى بيته قبل الغروب، فإذا به يمد أرجله فتجر على الأرض ثم يركب ظهر الذي أمامه ولا يتركه إلا ميتاً أو مجنوناً مركوباً من الجن، وأن الكثيرين عايشوا هذه التجربة وهربوا تاركين الحمار بما حمل

للعفريت. لم يكن هناك مجال للتشكيك بكلمة أو بهمسة أو ابتسامة، لأنهم كانوا يؤكدون أن ما له ذكر في الكتاب فهو موجود بالفعل والتشكيك كفر، وأنهم شاهدوه بأعينهم. إنها قرود كانت، وما زالت، متغربة عن واقعها، وبالطبع لا تتركها القرود الغريبة القوية في حالها، فبعضهم يحتل الأرض ويطرد أصحابها معتمدين على قوة العلم وسطوة الأسطورة، وبعض القرود الأخرى تنهب خيرات القرود المركوبة بالعفاريت والجن والخائفة من الشياطين والمصدقة ما يجب استحالة أخذه بالحسبان، مثل أن الحمار حين ينهق فقد رأى شيطاناً والديك حين يصيح فقد رأى ملاكاً، وعليك الدخول إلى الحمام بالقدم اليمنى اتقاءً لشر العفاريت التي تسكنه. أمهات وآباء يخيفون صغارهم بالغول وأبو رجل مسلوخة، رغم أنهم تلقوا تعليماً جامعياً ولكنهم يورثون لأبنائهم وأحفادهم ما أخذوه عن أجدادهم من خرافات وخزعبلات.. أمة من القرود تخاف التمشي في الليل.

لقد مرّت بلاد القرود الشقر والزرق المتطورة جداً الآن، مرّت بمراحل السحر والشعوذة التي كان الكثيرون يصدقونها، فكلما مرّت منطقة بكارثة اتهموا سحرة متخفين، أو بالأحرى ساحرات، بالتسبب في ذلك البلاء. ثم يقبض الكهنة أو العمدة أو غيرهم من محبي السلطة على الساحرة التي غالباً ما تكون جميلة جداً وتمنعت عن رغباتهم، أو قبيحة شمطاء لا حول لها ولا قوة، ويعذبونها إلى درجة يستحيل تحملها فتعترف، فتحرق علناً، وقد أحرقوا في تلك البلاد أكثر من ستة آلاف ساحرة. كانت آخر عملية حرق في عام ١٧٨٢ ثم دخلت بلادهم تدريجاً عصر النور والعلم وأصبحوا الآن يعتذرون للعائلات التي اتهمت بالسحر، ولم تعد تهمة شنعاء أن يطير أحدهم على عصا مكنسة، بل لو وجد من يفعلها الآن لنال جوائز وشهرة لا تقدر بمال. لقد أصبحوا يطيرون بالطاقة الشمسية الآن، وتغيّر حالهم من الفقر والمجاعات إلى الرخاء والحرية الشخصية المنضبطة مع

الغير. ما يلاحظ الآن أنه حيث توجد معتقدات شعوذة واحترام لقصص العفاريت والشياطين والتربية الخزعبلية، يوجد الجهل والفقر والظلم والتسلط الديني والسياسي. لقد كان التسلط دوماً، وما زال، ارتباطاً بين الدين والسياسة. وهذا ما نراه الآن، فحيث ينتشر الجن والعفاريت والسحر والشعوذة نجد النظام السياسي متسلطاً، والفقر منتشراً بين أغلبية القرود، بينما الأموال مكدسة في جيوب قرود معينة تعيش حياتها بانفتاح بعيداً عن العفاريت ومعتقداتها. إنك لن تجد غنياً يعتقد بوجود العفاريت وأخواتها، ولن تجد فقيراً متحرراً فكرياً من المعتقدات الخزعبلية السائدة. كانت هذه الأفكار العامة والمعروفة تدور في رأسه فيستغرب عدم إلمام الأغلبية بها وأخذ العظة منها، أو تقليدهم لبعض ما يعرفونه من صفات البشر.

تجربة بلاد الشقر والزرق تثبت قابلية القرود على التطور. لقد بحث كهنتهم في القرن الخامس عشر عن طريقة للتحكم في الرعية فلم يعثروا سوى على اتهام الأبرياء والخصوم وغريبي الأطوار بالسحر، وبالتالي نسب الكوارث والفقر لأفعالهم، وعقابهم بهدف ردع الآخرين عن الاعتراض. بعد حين أصبح الكهنة يختلقون المزيد من الخرافات ويعطون تفسيرات خزعبيلة لكتبهم المقدسة ليعمقوا القناعة بوجود الشياطين ومن يتحالف معها، ولتستمر حربهم، وبالتالي التحكم في المجتمع. وأشركوا رجال السياسة معهم وضمّوا المعارضين السياسين إلى طائفة السحرة والمشعوذين ليتم تعذيبهم، وما زالت بعض أساليب التعذيب من ذلك الزمان سارية ويعمل بها للآن، وخصوصاً التغطيس في الماء الذي استعمل ضد السحرة ليعترفوا بتحالفهم مع الشيطان، وتستعمله بلاد القرد الأحمر الآن ضد القرود المتهمة بالإرهاب. القرود الشقر والزرق كفوا عن أساليب التعذيب تلك وضمنوا حقوق كل قرد مهما كانت جريمته. لكن البلاد التي يؤمن أهلها بالسحر والشيطان ورفاقه ما زالت تُعذب بأساليب

شبيهة بتلك التي سادت أربعة قرون لدى الشقر والزرق، وما زالت قرودها فقيرة ومتخلفة، ويسكت حكامها عن تلك القناعات الخزعبلية لأنها تخدم مصلحتهم، وكذلك يسكت قرود دينها ويسبحون بالشكر للحاكم، كون تقدم القرود فكرياً بعيداً عن الإطار المحدد لهم سيؤدي إلى تهميش رجال الدين وإنهاء تحالفهم غير المقدس مع السلطة السياسية، تماماً كما هو الحال الآن في بلاد القرود المتقدمة.

اختلطت الأفكار في ذهنه وعاد يتذكر قصص والده وذلك الجيل، ويستنتج استمرار تلك الأفكار حتى الآن في بلاد غالبية قرود المنطقة وبشكل طبيعي يعكس ذاته في الواقع اليومي العادي جداً جداً. من الممكن لأي جماعة من القرود أن تتحدث عن ظهور عفريت لأحدهم في الليل، أو زواج قريب لبعضهم من عفريتة، أو اللجوء إلى ساحر أو رجل دين لفك طلسم كنز وذهب مدفون، أو عمل حجاب لتطويع أحدهم لزناءته في الفراش.. وستجد لدى غالبيتهم طقوساً لدخول الحمام ليلاً لها علاقة بالجن واتقاء شرهم، وكل قرود المنطقة غير الأميين يطالعون أبراج الحظ والنجوم. ماذا لو اتُهم كل من يقول إن الحمار ينهق حين يرى الشيطان، سواء كان القائل قرد دين أو غيره، يتهموه بالسحر ويعذبونه قليلاً حتى يتوب عن ترديد هذا الهبل وترويجه، وحتى يضطر لاستعمال عقله؟ وماذا لو غطسوا من يصنع تلك الحُجب، لعمل السحر أو لفكه، غطسوه في الماء قليلاً ليعرف أن عمله ضار للمجتمع ككل ويكف عنه؟ وماذا لو غرموا مالاً لكل صاحب محطة تلفاز تروج للسحر عبر الدعاية المباشرة أو عبر الأفلام والمسلسلات، وخصوصاً الذين يربطون السحر بالدين؟ وعقاب كل من يقول أو يردد قصصاً تلمح إلى وجود السحر والعفريت والشيطان. خجل من نفسه للتفكير في مثل هذه الحلول. لكنها مجتمعات تفرض الرقابة بالفعل، وإنما تراقب الكتاب المعارض، والكلمة الناقدة،

والمحاضرة الهادية إلى الطريق المؤدي إلى الرخاء والتقدم، وتراقب الناقد السياسي والمحتج على الفساد، ومن يطالب بالعلمانية، وتترك الخزعبلات بدون أي رقابة كانت. إنها مجتمعات قرود تتهم من يغرد خارج السرب بأنه كافر، ومن لا يردد معهم ولا يشاركهم طقوسهم بالخروج عن الملة، وطقوسهم تلك لا تميز بين المعقول واللامعقول، بين الدين والخزعبلات. الأديان كلها قابلة للتأويلات المتعددة بل والمتناقضة، ودين منطقتنا تغلب عليه تفسيرات الفئة المتخلفة المدافعة عن سلطتها ورؤيتها بقوة تمكنها من اتهام المخالفين وعقابهم. الأديان الأخرى عادت إلى دور العبادة في الدول المتقدمة، وبالأحرى انهزمت قبل قرنين من الزمن ولم يعد بوسعها فرض رؤيتها كالسابق، حتى الجمود حصروا الديانة في المعابد بعد أن استغلوا الأسطورة في بناء دولة علمانية أصبحت تسيطر بالقوة والعلم والترهيب والحيلة على كل من حولها.. هم ودولتهم المستفيد الأول من استمرار سيطرة الخرافات على جيرانهم، فهم استوعبوا أن الخرافة تعني الجهل واستمرار التخلف وزيادة التشرذم، وبالتالي ضمان تفوقهم.

لبن الحمير

«لو كان الجد الأكبر لزعماء منطقتنا واحداً، لافترضنا أنه راضع من لبن حمير وبالتالي جاء الأحفاد وأحفادهم جحوشاً بدل أن يكونوا قروداً محترمة مثل بقية قرود العالم المتنور».

«ليس بالضرورة جد أكبر ولبن حمير، فجميعنا نشرب لبن البقر». قاطع القرد الثاني المتحدث الأول بعد الانتهاء من وليمة طعام تضم العشرات من القرود بخلفيات اجتماعية وثقافية متنوعة. كانوا يحتسون القهوة وكل مجموعة متقاربة تتبادل الكلام فيما بينها، البعض يناقش قانون ضمان اجتماعي وضريبة دخل مقترحة، أغلبهم يعارضونه، طبعاً، بالرغم من كونهم لا يدفعون سواء لقلة مداخيلهم أو لتهربهم أصلاً. آخرون يفتون في صفقة القرن غير المعلنة وجارية التنفيذ بدون استشارة وتفاوض، ومنهم من هو موافق، وآخرون يعارضونها، أو يضعون شروطاً لتحسين الصفقة.. لم يركز مع أي حديث ولكنه كان منصتاً وذهنه شغالاً على موجة مراقبة خاصة به. ظن لوهلة أن حديث اللبن يحمل خلفية فلسفية، لكن اتضح له أن القردين كانا يكملان بعضهما البعض في سرد نكتة ادعيا ابتكارها.

«هذه نكتة قديمة مطورة منكما». قال ثالث لينفس غرورهما وينفخ ذاته، وأكمل: «النكتة الأصلية أن أول عملية نقل دم في الكوكب حدثت على يد طبيب من هنا، إذ نقل دم حمار إلى طفل أثناء عملية جراحية، فتعافى الطفل وكبر وتزوج وأنجب وتوزع أحفاده في المنطقة». قاطعاه

محتجين بينما سرح ذهن حفيد الحراث وابن ملاك الأرض، والذي أصبح لاجئاً بعد طرد عائلته من قريتهم، ثم تعلم وعاش في بلاد القرود الشقراء والزرقاء قبل أن يعود ليستقر في المنطقة كثيرة الولائم والمناسف والتطاحن اللفظي.

«ما رأيك في صفقة القرن، أو صفعة القرن كما يسميها رئيسكم؟» سأله أحدهم بشكل مباشر أفاقه من سرحانه. تروّى لحظة كونه لا يحب الحديث السياسي، وخصوصاً أمام أناس لا يعرفهم جيداً، كما اشتم رائحة تمييز في السؤال.

«رئيسنا ورئيسك يرفضان الصفقة، ولكنهما وغيرهما بمن فيهم أنت وغيرك من أفراد وجماعات ومنظمات وأحزاب، وأنا أيضاً، أعجز عن رد الصفعة». تنبه الحضور الأقرب وأنصتوا. «.. الصفقة جزء صغير من مخطط جمودي قائم تنفيذه منذ قرنين من الزمن، ومع ذلك هو جزء مهم ومتطور في التعامل مع أهل المنطقة. لم يسألنا أحد رأينا، ولم يطلب موافقتنا، أو نقاشنا، وبالتالي رفضنا وقبولنا لا معنى له، لأننا لا نعرف ماذا نرفض أو نقبل، فالصفقة غير واضحة ولم تعلن رسمياً، ولكنهم ينفذونها بالتدريج من طرف واحد، وإذا أعجبك فخذ، وإذا لم يعجبك فارفض واحتج واصرخ وتظاهر». تناول فنجان القهوة من يد الساقي وارتشفه بين همهمات المحيطين الذين واصلوا الاستماع. «ألم تشعروا أن القرد الأحمر يخبرنا أنه السيد، فهو الذي يقدم الدعم أو يمنعه، وبالتالي في يده تحريك التظاهرات أو تجويع القرود وتجهيلهم.. تعرفون أن الطحين من بلاده، وكذلك المال الداعم يمر عبر تأييده أو معارضته، وهو المتحكم في أموال جيراننا الأغنياء، وهو الذي يحميهم من البعبع الذي خلقه لهم، ويقول ويكرر ذلك جهاراً ونهاراً ويعلن أن ممالكهم لن تصمد أسبوعين بدون حمايته وعليهم أن يشتروا منه الحماية.. ونحن هنا نرفض دفع الضرائب

حتى تبقى البلد مرهونة لقراراتهم، ونحن هناك نرفض التصالح فيما بيننا ونتبادل التهم ونعلق المسؤولية على القرد الأحمر وعلى الجمود، لكننا نرفض الاستقالة والتجديد والكل يغسل يديه من التبعات التي لا عائق أمامها سوى الكلام والكلام ثم الكلام، وكل واحد يعتقد أنه أبو العُريف ورأيه هو الذي سيحل الإشكاليات كلها لو طبقوه».

«والسبب يا أستاذ». قال أحدهم وقد بدأ الضيوف ينفضون إلى بيوتهم كما هي العادة بعد الانتهاء من الطعام، وأكمل: «.. هل هو الحليب، أو عملية نقل الدم اللعينة؟» تضاحكوا وسار كل إلى سبيله بعد أن شكروا المُولم لهم، وسمع حفيد الحراث من يتمنى لو تعلمت القرود بعض الصفات الطيبة التي تقال عن البشر.

القرد الأحمر ليس الوحيد الذي في يد الجمود ويتحرك بتعليماتهم ويلبي رغباتهم. مخططهم ساري المفعول منذ زمن طويل، قد تراه جلياً إذا انتبهت، وقد لا تراه لأن خطواته متغيرة وغير تقليدية. التأمل في حال الكوكب يؤكد هذه الحقيقة، فهم يسعون إلى توسيع عدد الحكام والمؤسسات التابعة لهم، وتفريغ المؤسسات الدولية من محتواها الحقوقي والتشريعي، ولكن من دون إغلاقها كونها قد تنفعهم لتأكيد رؤاهم وشرعنة خطواتهم. وضعهم الطوق في رقبة القرد الأحمر عجل في كشف الأوراق، فهو، أو بالأحرى هم، يقررون ما يريدون. فيما يخص قصة الصفقة مثلاً لم يعودوا بحاجة إلى مفاوضات وتوقيع أو تنازل شفهي من أي طرف، وإنما ينفذون ما يريدون بقدر استطاعتهم على استيعاب المتغيرات.. هكذا كان يفكر في طريقه إلى البيت. حتى الآن لم نستوعب أننا منذ عقود نسير كالغنم، والآن بوسعهم منع العلف متى شاؤوا وكأنهم يقولون اعتلف واسكت، أو جُع وابحث لذاتك عن علف في مكان آخر. كنا على قناعة بأن الحق معنا والبلاد لنا، وحين تراخينا عسكرياً ظننا أن

قبولنا بهم معنا، ثم قبولنا بهم فوق جزء من أرضنا، ثم قبولنا بالتنازل لهم عن ثلاثة أرباع أرضنا، ظننا أن هذا سيرضيهم ونتعايش. لكن اتضح وهمنا وحقيقة أن احتلال بلادنا هو جزء من مخططهم الشمولي الكوكبي. نرى الآن أن حكاماً وملوكاً من قرودنا هم فعلاً من أصل جمودي، والبقية تعتاش من دعم مؤسسات الجمود وتأتمر بأوامرهم بالطبع. كما أن غالبية حكومات وحكام العالم تحت إرادتهم فعلياً. ما معنى أن كل القرارات الدولية لا يتحقق شيء منها إذا كانت ضدهم، وتتحقق كلها إذا كانت لمصلحتهم.. كيف يُقرر أن الاحتلال وأفعاله غير قانونية ولكن الذين أقروا ذلك يتعاملون مع الاحتلال والمحتل بكل ود وطاعة. كل حكومات الكوكب متخاصمة مع بعض الحكومات الأخرى وتعلن رأيها في ذلك وتقاطع وتخاصم، ولكنها تسكت عن هذا المحتل والاحتلال وتدعمه، مع اعترافها بوقوع الخلل ووجود نتائجه. إنهم يملكون طرقاً وأدوات وفنوناً للسيطرة على الحكام والدول، وكل يوم نكتشف توسع سيطرتهم.

أدار مكيف الهواء عندما دخل البيت، وأشعل الغاز وفتح صنبور الماء لعمل كوب من الشاي.. توقف كمن صعقته الكهرباء إذ هاجمته الأفكار كالرصاص: فواتير الكهرباء والغاز والماء يذهب الجزء الأكبر منها إليهم، فالغاز للطبخ ولتشغيل محركات توليد الكهرباء منهم، أو بالأحرى غاز منهوب مثل الأرض والماء. الجزء الأكبر من فاتورة الكهرباء الشهرية تذهب إلى أصحاب الغاز الذي يولد الكهرباء، إليهم، و٣٠ في المئة تأخذه حكومتهم كضريبة لميزانيتها، وبالتالي يذهب إلى قوات الاحتلال مباشرة. بل هم وحسب المعاهدات يتحكمون في كمية المياه التي يمكن سحبها من تحت الأرض، ويتحكمون فيما يخصص للزراعة، وهم يختارون منتجاتنا الزراعية الجيدة، ويشترونها بأسعار زهيدة ليصدروها كمنتجات لهم وبأسعار مضاعفة، وحين لا يشترون منا تكسد بضائعنا. تعكر مزاجه

عن شرب الشاي، وفتح نوافذ البيت وتمدد على البلاط سعياً للرطوبة.

تحول النعاس إلى نشاط ذهني بعد أن طالع في هاتفه الجوال قصة ٨٠٠ قرد مسجلين على قوائم رواتب مؤسسة حكومية ولكنهم لا يداومون أبداً، ٨٠ فقط يشتغلون هناك بالفعل. كان يعرف من إحصائيات كوكبية أن القرد في هذه المناطق يعمل بمعدل ١٨ دقيقة في اليوم، بينما يعمل مثيله في بلاد القرود المتحضرة ٧ ساعات ويهدر ساعة فقط في مشاوير داخلية وتدخين ورغو وزعبرة وهواتف، لكن هنا ١٨ دقيقة عمل في اليوم، وكان يظن أنه شيء قياسي في عالم الكسل والغش، حتى طالع هذا الخبر بأنهم يقبضون ولا يداومون أصلاً إلا دقائق آخر الشهر للاستيلاء على الراتب. اتصل مع موظف يعمل في تلك المؤسسة فأكد له القصة، وأن هؤلاء ضربوا المدير الذي كشف الأمر بالعصي وكسروا بعض عظامه، والمدير العام للمؤسسة اعتكف في بيته خوفاً من مصير زميله. اتصل بقرد صديق يعرف مخابئ البلد فعرف منه أن الأمر عام جداً في الكثير من المؤسسات الرسمية.. كل البلديات مثلاً لديها موظفون وهميون يحضرون آخر الشهر لتسلم الراتب. هؤلاء يتم توظيفهم من رئيس البلدية مقابل انتخابه للرئاسة، يعني رشوة للقبائل والحمايل التي تعطيه الأصوات مقابل حصص في وظائف وهمية ورواتب حقيقية.. ثم سمع صديقه يقهقه على الجانب الآخر من الهاتف ويقول: «هؤلاء هم الذين يتظاهرون ضد الفساد.. قرود فاسدة من تحت إلى فوق».

كيف يمكن أن يحدث ذلك؟ نحن في منطقة تشتهر بالقيل والقال، وبالنميمة، وتُغرم بالوشاية واستغلال قوة القانون وسطوة الدولة ضد الجار والخصم، كما توجد مؤسسات ضد الفساد، وعشرات مراكز الشرطة، وأرقام هواتف لاستقبال الشكاوى مع ضمان سرية المصدر.. كيف إذاً يتم هذا من قرود تزعق بمناسبة وبدون مناسبة ضد الفساد؟ ألا يرون في فعل

هذه الدوائر فساداً؟ هل الفساد هو ما يمارسه القرد الغني جداً، بينما سرقة أموال الدولة في وضح النهار عمل قردي شريف وقانوني؟ سرح ذهنه في البحث عن مكامن الخلل. الدين لا يجيز ذلك أبداً بل يطالب بإصلاح الاعوجاج، ألا يوجد صاحب دين واحد من غير المستفيدين في تلك المؤسسات يُبلغ ولو سرياً عن كوارث كهذه تحدث تحت نظره؟ التربية المدرسية والجامعية لا تسوغ ذلك أيضاً، وتحث على مكارم الأخلاق.. ألا يوجد خلوق بين غير المستفيدين ويشي بالأمر لمصلحة توفير ميزانية الدولة، أم إن المدارس هي الأخرى تعج بالمدرسين المتسربين؟ المدارس الحكومية طبعاً وخصوصاً مدارس الأرياف. ولماذا أستثني المستفيدين من التدين والتعلم، إنهم يملأون دور العبادة ويستمعون إلى المواعظ ولا يخطر ببالهم أن فعلهم هذا سرقة وفساد وتخريب.. هكذا فكر ولم يجد إجابات. لكن ماذا عن القرود ذوي المناصب مديري تلك المؤسسات، ماذا يديرون؟ ألا يداومون؟ ربما لا يداومون بما يكفي، أو أن مرؤوسهم يغالطهم ويداهن عليهم كما يداهن المحيطون بالرؤساء والزعماء والوزراء فلا يرون شيئاً.. الحاكم الفعلي إذاً هو المداهن الصغير، يا له من صادق صدوق لا يشي بلص أو متسرب، دهنلي وأدهنلك.

لم تعجبه تلك الاستنتاجات شبه الغاضبة.. تروّى وعاد ينشّط خلايا ذهنه التي عادت للاستسلام وكسل فترة القيلولة. ربما يعود السبب إلى طبيعة أصل السكان، الذين عاشوا على الغزو والنهب وكان السلب عندهم شطارة ومداعاة فخر وبطولة ويكتب عنهم الشعر وتروى الحكايات، ولم يتخلصوا من تلك العادات المنغرسة في طبيعتهم لأنهم لم يتحضروا، ولأن دينهم مثل بقية الأديان، شجعهم على الغزو واقتسام المنهوبات من الغير، وعندما لم تعد لديهم قوة لغزو الغير أو حتى رد الغزو الخارجي

سولت لهم النفس الجماعية نهب الأخ والجار والمؤسسة والدولة وكل ما يمكن أن تقع عليه اليد.. وربما لذلك لا يرى المديرون في هذا الحال ضرراً ولا يشي القرد بالقرد خصوصاً إذا كانت الدولة هي المنهوبة. هو لم يعرف جده قطّ، فقد مات قبل ميلاده، ولكنه يعرف والده وأقاربه ولا يتذكر أن هذه الصفات كانت لصيقة بهم آنذاك قبل سفره للتعلم في بلاد القرود الشقر.. لكن الوضع هناك الآن في القرية ليس أفضل مما هو هنا في المدينة، قال لذاته، ولمع في ذهنه أن أحفاده الذين يعيشون عند القرود الزرق يتلقون تعليماً وعادات وتربية لا يمكن أن تؤدي بهم إلى مثل هذه الهاوية، ولكنهم بالضرورة لن يتلقوا هناك ما يقربهم من صفات البشر.

تشتت ذهنه، أصبح يتذكر الغاز والحمير وقرود غازية تركب البغال وتلوح بالسيوف، ثم أفاق من النوم وتذكر ما حلم به وأخذ يكرر الأحداث حتى لا ينساها بسرعة.. رأى أنه يرتدي بدلة مرقطة بالأسود والأبيض، وباله مرتاح ومنشرح، يتمشى بهدوء في مرجة جافة مغبرة، ولكن ذهنه يقنعه بأنها خضراء تنبت فيها أيضاً زهور برية بديعة الأشكال والألوان، وعلى مسافات متفرقة توجد قرود مشابهة له في اللباس والهدوء والانشراح. كرر صور الحلم وسجلها خطياً إذ أراد البحث عن تفسير لرؤياه هذه.

قرود وزناءات وعجول

في السادسة صباحاً يضرب الطورية في الأرض لضبط الجور حول ساق الأشجار لحفظ المياه أثناء الري، يعمل رسمياً لثماني ساعات يومياً عدا الجمعة، يتمنى لو عمل ساعتين إضافيتين كل يوم لزيادة الدخل. خبزه وشايه وسكره مجاناً، وبقية طعامه معلبات رخيصة من السردين والتونا، وبيض وبصل وطماطم، وبالطبع الكثير من معلبات الفول وشوربة العدس. يرسل العامل رباص كل شهر ما يتبقى من راتبه، أو بالأحرى معظمه، إلى زناءته، التي بدورها تدخر مما يصلها لتجهيز ابنتهما. عندما سافر، قبل موعد زفافها بشهر، استلف راتباً شهرياً إضافياً، وحصل من رب عمله على بعض الدعم والهدية النقدية للبنت، وعندما عاد من الإجازة بعد الزواج، أصبح يؤكد أنه لن يزوج ابنته الثانية الصغيرة ألا بعد أن تبلغ الخمسين، ويلعن الإناث وخلفتهن.

متوسط الدخل في موطنه المزدحم بالقرود، كثيرة التناسل، هو ٢٥٠٠ وحدة نقدية، ودخله حيث يعمل في بلاد مجاورة يعادل ثمانية آلاف، وثمن الأثاث الذي توجب عليه تقديمه لزوج ابنته مئة وخمسة آلاف. حملته أربع سيارات بك أب صغيرة وأوصلته في زفة وغناء ورقص إلى بيت العريس. أسرة وخزانات ونجف وطاولات وغرفة سفرة وأخرى للجلوس، وثلاجة ببابين، وبوتوجاز للطبخ وحلل وصحون وشوك وسكاكين وفناجين وكاسات.. كل شيء من لوازم بيته الفارغ زفت إليه، كما هي العادة هناك.

«لازم تجيب الآن عجل كبير تطعم القرود». قالت له أم العروس. تذمر وأخبرها أن معلمه، القرد الكبير، حيث يعمل في البلد المجاور، أخبره أن القرود ستأكل وتشرب وأنت ستدفع. «مفيش طريقة ثانية، كل القرود بتعمل كدا.. عايزنا ننفضح؟» سألته والتصميم باد في عينيها. قال لنفسه العجل ثمنه عشرة آلاف، ويمكن يكون مدهن والمعازيم ترجع قطعة اللحمة اللي حنقدمها، ويروح وزن كثير على الفاضي. ذهب إلى جزار واتفق معه على شراء ٦٠ كيلو لحماً ومعها رأس عجل، ودفع له جزءاً من الثمن على أن يسدد الباقي بعد تناول المدعوين الطعام، ودفعهم للنقوط. حمل اللحم في طشتين من حديد، وعاد به قبل المغرب ليشاهد قرود البلدة ما ينتظرهم غداً. مع حلول المساء تخوف أن تفسد حرارة الجو اللحوم، احتار وسأل، فقيل له أن يشغل مروحتين على اللحم للصبح، واتصل مع الطباخ وأخبره مخاوفه، فاستعد هذا بالحضور بعد الفجر مباشرة مقابل ٤٠٠ وحدة نقدية محلية.

جاء موعد الطعام وتوجب ضبط التسليم والاستلام. باشر الطباخ يقدم للقرود صحوناً فيها قطعة لحم، وقطعة كنافة، وقطعة بسبوسة، وكان في الغرفة التي تتسع لعشرة فقط، أرز مطبوخ وبطاطا. عندما ينتهي العشرة يخرجون ويغسلون الأيدي ثم ينقد كل منهم الطباخ خمساً أو عشراً من الوحدات النقدية فيضعها هذا في جيبه، بينما يكون الفوج التالي قد تسلم صحونه ودخل الغرفة. عند الزناءات كان الوضع مشابهاً مع فارق أنهن كن يقدمن النقوط لأم العروس، أو بالأحرى يرددن ما قدمته هي لهن في السابق، وكانت الابنة الصغيرة تسجل في دفتر خاص ما تقدمه الزناءات لأمها. «هل ستأخذ كل ما قبضته؟» سأل أبو العروس الطباخ، فأكد هذا له أن هذه رزقة ثانية واستغرب من سؤاله. «أعطيتك ما اتفقنا عليه كأجر للطبخ، وأنت الآن تجمع مثله مرة أخرى». لم يعطِ الحوار نتيجة، ولم يتسلم أبو العروس نقوطاً لأنه لم يكن يدفع للآخرين في مناسباتهم،

فهو مغترب منذ سنوات طويلة لتوفير الحد الأدنى لأسرته وتوفير القليل للتعامل مع مشكلات الحياة التي لا تترك الفقراء في حالهم.

في المساء اختلى بزناءته ونشرا النقوط على الأرض، وباشرا في ترتيب النقود حسب فئاتها، وسهرا على تعدادها، فكانت سبعة آلاف. في الصباح توجب عليه وزوجته إرسال الهدايا لزوج ابنتهما في صباحيتهما. كانت الأم قد جهزت ديكاً رومياً ثمنه ٤٠٠ وحدة نقدية، وبطاً ودجاجاً وحماماً مطبوخاً ومشوياً، وطيوراً أخرى حية ليذبحوها فيما بعد. «اذهب إلى السوق واشتر عجلاً وأرسله إلى زوج ابنتك». قالت له ولم يفهم ما يجري فقد أكل الجميع بالأمس، وما أرسلوه هذا الصباح يكفي العروسين لأسبوعين. لكنها أكدت أن عدم القيام بما يقوم به الجميع، سيعني فضيحة للعروس، وشتائم لأمها وأبيها من كل قرود الحارة والبلد.

في سوق المواشي والسبعة آلاف في جيبه، قرر شراء أصغر عجل تقع عليه عيناه. الكبير كان بعشرة آلاف، وأصغر واحد، بالكاد يكبر عن خروف، كان ثمنه سبعة آلاف. تردد في دفع كل ما في جيبه، فأخبره البياع أن العجل شبه مباع، وأكد له زبائن أنهم يفكرون فعلاً في شرائه بثمانية آلاف، ولكنهم يجدونه صغيراً بعض الشيء ليقدموه لزوج ابنتهم. اقتنع واشتراه وأوصله في بيك أب بالقرب من بيت أنسبائه الجدد. هناك سلمه إلى أحد صغار العائلة ليجره إلى بيت العروس تحت أنظار الجميع ورقابتهم. وصل الخبر إلى أعمام العروس فانطلقوا نافخي الصدور رافعي الرؤوس ليباركوا لها الصباحية وينقطوها بما تيسر.. أكلوا بسبوسة وانصرفوا، وسلمت العروس نقوطها إلى عريسها، كما هي العادة. لقد أصبحت تابعة له، وما تملكه هي يملكه، وما يملكه هو ملكه، ودوره أن يوفر لها الحماية والتلقيح، طالما اشتغلت وأنتجت وأنجبت وأطاعت.

«ولكن الزوج يقدم لعروسه أشياء هو الآخر».

«ستون غراماً ذهباً، وسوف يأخذها قريباً، كالعادة؛ فالأزواج

يستعيدون الذهب عندما يحتاجونه، وسرعان ما يحتاجونه». أجاب رباص والد العروس على تساؤل معلمه بعد أن عاد للعمل وجلس يقص ما حدث له في ريف بلاده. «ثاني يوم على وصولي هنا اتصلت بالبلد، وقالوا لي إنه باع العجل الذي أعطيته إياه في الصباحية، باعه وأخذ فلوسه طبعاً». أكمل والقهر مرتسم على وجهه وأضاف بعد وهلة: «كل ذلك الشقاء حتى يصبح لي أحفاد!» ثم لعن الأبناء والأحفاد وتساءل عما أخذه من جده غير إرث الشقاء والفقر. كان المعلم يسجل الأرقام في ذهنه واستنتج أن العامل في تلك البلاد يحتاج إلى ادخار كامل لدخل أربع سنوات حتى يوفر المئة والخمسة والعشرين ألفاً التي دفعها هذا العامل مهراً وملحقات لتزويج إحدى زناءاته.

«هل العروس عرجة أو عورة؟» تشجع المعلم، رب العمل، وسأل وكأن الأمر نكتة، لكن الحضور، وكان منهم عمال من تلك البلاد، أكدوا أن هذا النظام يُطبق هناك على الحلو والمر، وأكد الوالد أن العروس، التي كلفه تزويجها ما لا يملك، من أجمل إناث البندر، ولم يتشكك المعلم في ما سمع بعد أن أعاد النظر والتأمل في وجه الأب، حيث الطيبة والوسامة متخفية تحت طبقات الهم.

اختلط الحديث عن تجارب أخرى، فأحدهم يعرف والداً لسبع زناءات يعمل في بلاد الزيت، وكل عام أو اثنين يعود بما ادخر ليزوج إحداهن، وهو على هذا الحال من العمل والادخار منذ عقدين من الزمن. «يالها من مثابرة». دار في ذهن رب العمل، وسرح بأفكاره عن قوة وتحكم العادات المكتسبة في القرود وحياتهم، حتى وإن كانت قوة عادات سلبية وضارة لأهل الإناث، أي للجميع، يبدو وكأنهم بهذه الممارسات يعذبون بعضهم بعضاً ويتلذذون في هذه السادية. فقراء يدفعون بأنفسهم إلى حافة العوز، بل إلى درجات تحت ذلك الخط حتى يجاروا غيرهم ويتفاخروا بعمل ما يتعسهم في الحقيقة، وهناك عشرات الحلول المنطقية الجميلة

التي تساعد العروسين وأهليهما وتنهي مشكلات العنوسة، ولكنها حلول مستبعدة. هذا أحد أسرار كراهية القرود للزناءات وخلفتهن وتمني البعض موتهن في المهد.. إذا كانت عادات مكتسبة، وضارة، ولها هذه القوة الاجتماعية، مع شبه استحالة تغيير هذا النظام، فما بالك في احتمال تبديل الأفكار القريبة من الدين، أو ما يظنون أنه قول ربهم وقول الرسل، أو ما يعتقدون أنها طرق سار عليها أنبياء وأولياء. دارت هذه الأفكار في ذهن رب العمل وهو لا يسمع ماذا يقول الآخرون ولا يعرف لماذا يضحكون. بالطبع تعقيدات التغيير لما سبق، أهون من استيعابهم إنكار تفسير مختلف لقول أي جزئية من كتاب مقدس، أو تكذيب حديث يقر أهل العلم أنه موضوع.

علماء الأديان قاوموا العلم والمنطق لقرون من الزمان، وبالكاد سكتوا عن حقيقة أن الكوكب مكوّر، بل وما زال الكثير منهم للآن يقولون إنه مسطح، ويستشهدون بتفسير مهلهل لقول مقدس هنا أو هناك، علماً أن الكتب المقدسة تشمل الشيء ونقيضه.. البعض منهم مستعد للموت دفاعاً عن هذا الشيء، والبعض الآخر جاهز للقتل لحماية التفسير المغاير. «لو قلت للمتمسكين بالعادات إلى درجة إفقار أنفسهم وتعقيد حياتهم، لو نفيت لهم شيئاً يعتبرونه أهم من هذه العادات، مثل: وجدت الأديان وتطورت لحماية القرود مما لا يعرفون، بمعنى أن الديانات الصنمية وما تلاها تعبر عن مشاعر ذاتية وليس مقدسة أو منزلة، فماذا ستكون ردة فعلهم؟ إنهم ملتزمون بعادات يكرهونها ولكنهم يطبقونها، فما بالك لو أخبرتهم أن حياتهم ليست مسيرة ومكتوبة ومخططة منذ الأزل إلى الأبد، وأنه لا توجد لهم سوى هذه الحياة، ولا تعويض لاحقاً عن تعاسة سابقة؟» أفاق رب العمل من حواره الذاتي على من يسأله عن رأيه في موقف الحكومة المطالبة بتحديد النسل. «مطلب جيد». قال المعلم وظن

أنهم كانوا يتجادلون في متطلبات الزواج، فأكمل: «.. المانع الأساس على ما أظن، أن القرود التي تلد الزناءات تريد الذكور أيضاً، لذلك الأسهل المطالبة بمولود ذكر وآخر أنثى، وضبط الأمر بتلقيح صناعي للمولود الثاني ليكون مغايراً لجنس الأول. هذا يخلق تعادلاً، ويريح الأسر في التزويج، فيقابل الدفع للأنثى القبض للذكر وتدريجاً تنقرض هذه العادة». ضحك المستمعون وأعربوا بجمل مختلفة عن استحالة التطبيق.

«الذكور مصدر رزق سواء بالعمل أو عند الزواج، والزناءات خراب بيوت، لذلك الجميع يريدون الإكثار من الذكور والحد من الإناث». قال رباص، صاحب التجربة الطازجة، وسط تأييد العمال الحضور سواء من الريفيين أو أهل المدن من البلد المستضيف.

«الحل الآخر أن تتحولوا مثل أهل هذا البلد، فالذكور يدفعون مهراً ويلتزمون بمؤخر يُدفع عند الانفصال، ويتكفلون بتكاليف الفرح، ويقدمون الذهب للعروس، وعليهم توفير المنزل والإنفاق عليه، وإذا أرادت العروس العاملة فبوسعها أن تنفق راتبها الخاص على شؤونها وليس على بيتها». نظر المعلم إلى مسؤول العمال وأضاف: «ومع ذلك يتمنى القرود هنا إنجاب الذكور ويفضلونهم على الإناث». مسؤول العمال لديه قرد ذكر واحد وخمس زناءات، وهو بالطبع مستاء من كثرتهن وقلتهم دون مراعاة لما سيوفره من تزويج واحد فقط، وما سينفقه لو كان الوضع الاجتماعي هنا كما هو في البلد المجاور.

«العنوسة هنا كما هي هناك، الفرق أن الذكور وأباءهم هنا لا يملكون تكاليف العروس، بينما عندنا لا يملك والد العروس تكاليف متطلبات العريس». قال رباص وسط ضحك الجميع على حكمته غير المستفاد منها.

صداقة وعطاء

لم يستجب لرنين الهاتف، كما هو حاله غالباً في الأعياد، بل لم ينظر لمعرفة المتصل، لكن وصلته رسالة على الواتساب تقول: رد على الهاتف وإلا سأحضر في أول طائرة وأخرب عزلتك. رن الهاتف مجدداً فاستجاب لصديقه، وحاول إنكار حالة الإحباط التي يمر بها: «كان الهاتف على الصامت». قال في شبه اعتذار بعد أن هنأ صديقه بالعيد. كان ذلك قبل خمس سنوات على أضحى ٢٠١٨.

«هذا حال القرود يا صديقي، لا أدري إذا كان وضع البشر بالفعل أفضل، لا بد أن يكون أفضل، فكل المخلوقات تحمل الجميل وتسعى إلى رده ولو بكلمة طيبة، إلا معشر القرود، فهم ملوك الجحود والغطرسة».

«يعز على النفس أن يكون الوضع هكذا». خاطب صديقه.

«هذه هي الحياة.. ألم تقل لي إن هذه من العبر المفضلة لدى قرود الإسبان، والأندلسيين تحديداً. لن يفيدك أصلاً اتصال وتواصل كل الذين ساعدتهم، أو يضرك عدم تواصلهم، أنت أعطيت وتعطي عن طيب خاطر، ولنصرة المجتمع والقضية ببناء أجيال محترمة متعلمة، بالتأكيد لم تكن تفكر أن يتواصلوا معك في المناسبات والأعياد، أو تتوقع أن يبحثوا أين تقيم ليقدموا التحية والشكر. القرود تظن، وتصدق ظنها، أنها كونت ذاتها بجهودها الذاتية، ولا تقر باحتمال فشلها لو لم تحصل على نصيحة من هنا ودعم من هناك.. إنه باختصار سوء أخلاق».

«لكن الوضع مع الآخرين مختلف، فالجميع يتقرب ويتصل».

«بالنسبة إليّ فالوضع مختلف لأني أغنى منهم كلهم بالمال، ولأني ما زلت أساعد وأوفر لهم فرص شغل أو هبات وحل مشكلات، كما أنني أسعى إليهم، بينما أنت تقاعدت وتوقفت عن خدمتهم والسعي إليهم، والذين خدمتهم في الماضي استغنوا.. أقول لك مجدداً نحن قرود ولسنا بشراً نحفظ الجميل، وبوسعي مراهنتك أن أكثر من نصف الذين يركضون حولي الآن لن يسيروا في جنازتي.. تذكر قولي هذا إذا سبقتك إلى العالم الآخر». تمنى لصديقه طول العمر وهنأه بالعيد وشكره على الاتصال واتفقا على تزاور قريب.

هما، أكاديمي ومليونير، صديقان وابنا صديقين وجداهما على الأرجح كانا صديقين. جد الثاني هاجر من قريته لاختلاف مع أهله واستقر على بعد خمسة كيلومترات شمالاً في قرية جد الأول، الأكاديمي، تزوج هناك وأنجب العديد ومن ضمنهم والد المليونير، الذي كبر وتزوج وأنجب في القرية ذاتها التي يقطنها جد ثم والد الأكاديمي. لم يكتف كلا الأبوين بزوجة واحدة، ولكن كلًا منهما تزوج مجدداً بمن تصغره كثيراً في السن. كل واحدة من الصغيرتين أنجبت عدداً من البنات قبل أن تنجبا بكريهما من الذكور، وبالتالي مرت الصغيرتان في الظروف ذاتها ومجموعة تجارب تكاد تكون متطابقة، وبالطبع أثرت تلك الظروف في تكوين الصديقين، وساهمت لاحقاً في تفاهم سريع لا إرادي بينهما عندما تعمق تعارفهما عام ٢٠٠٨. ولدا في مخيمي لاجئين، وتلقيا سنوات التعليم الأولى في مدارس اللاجئين، لكنهما أكملا التعليم في مجالين وبيئتين مختلفتين، هندسة وسياسة فأصبحا مليونيراً وأكاديمياً.

«لا يوجد شيء اسمه صداقة».

«تقصد لا يوجد شيء بالمفهوم السطحي السائد». قاطع السياسي المهندس خلال زيارة قام بها الأول للثاني قبيل عيد أضحى ٢٠١٦.

«أقصد لا توجد صداقة ولكن توجد مصلحة، قد تظهر من الطرف المستفيد وكأنها صداقة». عاد المهندس ليؤكد ويوضح رؤيته أثناء جلسة يشارك فيها أيضاً ثلاثة من أصدقاء المهندس الأثرياء جداً والذين يجتمعون ويسهرون معاً مع آخرين كل ليلة تقريباً.

«لدي أصدقاء لا يمكنني سوى اعتبارهم أصدقاء كما أثبتت التجارب، صحيح أن عددهم قليل جداً ولكنهم يؤكدون القاعدة، وبوسعنا معاً سرقة الكثير من البقر دون خوف أن يشي أحدنا بالآخر». قال السياسي وقد لاحظ بعض الحرج على قسمات المستمعين، الذين يعتبرون أنفسهم أصدقاء للمهندس، ويأتمنون بعضهم بعضاً على ملايين من دون أوراق وكمبيالات.

«صديقك ذاك له أيضاً مصلحة عندك، ليس بالضرورة مالاً ولكن ربما حاجة عاطفية أو معنوية، أو تريحه رؤيتك وزيارتك، وبالتالي هناك مصلحة بينكما قد تكون الحفاظ على أسرار بعضكما بعضاً. حتى الابن والأم بينهما مصلحة تؤدي إلى الحب، هي عطاء الرعاية التي لا وجود له من دونها، وهو يمنحها شعور الأمومة وتظن أنه سيؤمن مستقبلها. الشيء ذاته بين الزوجين، وبين الصديق والصديقة، فالجنس يولد الصداقة وهو بالطبع تبادل منافع على شكل متعة، وإذا غلبت المشاكل والنكد على المتعة تراهما ينفصلان». ظهرت ابتسامة رضى على وجوه أصدقائه إذ تحول الحوار إلى فلسفي يؤهلهم للقبول بتعريف المهندس للصداقة. لكن السياسي لم يبتلع التفسير وتأمل في علاقة المهندس بمحيطه، وتذكر ما سمعه منه بين الحين والآخر عن الأقارب والمحيطين. كان يعرف أن معظمهم منتفعون وانتهازيون، وأقر للسياسي مراراً بأسماء من يسرقون منه وهو ساكت عنهم ويستمتع بمحاولاتهم للتضليل. «لا أريد معاداة كل القرود، لكن أغلبهم غير صادق، وليس مهمتي توبيخهم أو تصحيح نفسياتهم».

«لكنك صاحب مقولة عن متعة العطاء، وأنت من قال: الذي في جيبي ليس ملكي، ولكني أملك ما أعطيه للآخرين». علق السياسي مستدراً وموجهاً للحديث.

«نعم، العطاء متعة، وأنت تعرف ذلك بالضبط لأنك جربته في مجالات متعددة، وكما تعرف فالعطاء ليس مالاً فقط، وهناك فرق بين أن أمنح وأن أُسرق». توقف عن تفسير ما يعطي استبعاداً لسوء الفهم. لكنه أسس مزرعة يرتادها من يريد من بني جلدته والبلد المضيف لهم، يقدم فيها الطعام والشراب مجاناً ويتعارفون ويتسامرون، وهناك أيام مخصصة للعائلات كمتنفس لهم. وأهم ما يعطيه هنا هو البشاشة في استقبال الكبير والصغير، والغني والفقير، ويختلط الجميع متناسين الفروق المصطنعة بين القرود.. يحاولون الشعور ببعض ما يسمعون عن حياة البشر من مساواة واحترام متبادل ووفرة في المتطلبات. كما أن المهندس ينفرد عن الآخرين بتشغيل بني جلدته، خصوصاً الخريجين الجدد في الجامعات ليضعوا أرجلهم على بداية الطريق، ويُحرم طرد أي واحد منهم، ولا يقف في طريق من يرتقي السلم بالعثور على موقع أفضل. والحديث هنا عن شركات تشغل ثلاثين ألف عامل، وعندما تحتاج الدولة إلى سحيجة في مباراة كرة دولية أو استقبال ضيف مهم، فإنها تستنجد بهذه الشركات التي للمهندس نصيب فيها لا يزيد عن النصف ولا يقل عن الربع.

في زيارة له لمكان إقامة السياسي، تحدث المهندس عن فلسفة العطاء ومتعتها. كان الحضور ثلة من المدعوين الأقارب، لكن كلهم أبعد مادياً عن قدرة عطاء شحاذ أو إخراج فرض الزكاة سوى القليل. لاحظ على سحناتهم عدم استيعاب فكرة العطاء المالي لأنهم يطلبونه، وعندما تحول المهندس بالحديث لتبيان أنواع العطاء الأخرى: ضحكة، احترام، مشورة، إزالة ضرر، عطف، ظنوا أنه يسرح بهم، أو أقله لم تظهر القناعة على

محياهم. عندما انفضت الجلسة وغادر المهندس استهزأ البعض وضحكوا من فلسفة العطاء. لم يعترض أحد على موقفهم هذا ولم يتشجع السياسي لمزيد من التوضيح عن مقاصد صديقه المهندس ومفاهيمه. من يملك المال بوسعه أن يمنحه ويضيف أشياء أخرى من العطاء ويستمتع بما يفعل من خير للآخرين، أما من يظن أنه لا يملك المال الكافي، فليس بوسعه أن يمنحه، أو يقدم للآخرين هبات غير مادية. في واقع الحال فالكثير من الأغنياء يجمعون المال لأنهم بخلاء، والبعض الآخر يأتيه المال تباعاً نظراً لكرمه وحسن أخلاقه وعطائه، والقلة النادرة هي التي يمكنها بناء الأوطان بما تملك من مال وحكمة.

في رمضان ٢٠١٨ كان عمر السرطان قد زاد عن عام وأخذ ينتشر في جسم المهندس. كان يتصرف بقناعة ورضا، ويؤكد أن الإله يختبره، وسينجيه من هذه المحنة. «الآلهة تخبرني بالانتباه: إذا لصديق عليّ عشرة دنانير أردها إليه، إذا أخطأت في حق أي مخلوق أن أصحح الخطأ وأعتذر». قال للسياسي في الزيارة قبل الأخيرة. كان يظن أنه يشعر بتحسن، ولإثبات ذلك مارسا معاً بعض الرياضة الخفيفة، وخرجا كثيراً في جولات، وكان المهندس يقود سيارته.

«أراك شبه طبيعي، عسى أن تظهر نتائج الفحوص هذه الأيام وتؤكد ما نتمنى». تجاوب السياسي، ولكنه كان يعرف أن المسألة مجرد وقت فقط، فقد ثبت منذ أشهر تفشي الخلايا الخبيثة، وعدم جدوى أي علاجات كيميائية أو عشبية. كان يأخذ تقارير الأطباء ويعرضها على أطباء آخرين في بلد ثالث بدون إبلاغ صديقه، ولم يقل أي منهم باحتمال الشفاء. «هذه هبة ربانية أن تعرف باحتمال اقتراب النهاية، انظر إلى النصف الممتلئ من الكوب. أنجزت الكثير مما تتمناه، كنت قريباً من ربك ومخلوقاته طوال الوقت، وها هو يعطيك الفرصة لضبط ما تريد من أوضاع. تصور لو

دهستك شاحنة بدون سابق إنذار، هذه ستكون كارثة.. لكن ربك يحبك بالفعل، ويدلعك».

«عندما تتحسن صحتي ستذهب معي إلى العمرة». قال المهندس وهو يضحك.

«تحسن وسأذهب معك إلى الحج». أراد أن يضيف: إكراماً للمعجزة، ولكنه توقف، فقد قال بما فيه الكفاية ليستوعب صديقه الذكي اللماح ما عليه وضعه في الاعتبار.

«أنا عملت على الدوام لدنياي وكأني أعيش أبداً ولآخرتي كأني أموت غداً.. وعليك أنت تذكر هذا الوعد، وسأذكرك به وسنحج معاً». قال لصديقه وتبسم كفقير ربح مليون دينار كونه يعرف درجة اغتراب صديقه عن الدين، وها هو يقترب من كسب هدايته.

قبل موسم حج ٢٠١٨ بشهر زار المهندس بلد إقامة صديقه ليومين، ثم عاد إلى بلاد غربته، في آخر رحلة جوية له. كان التدهور جلياً، وبعد أيام لجأ إلى الإقامة الدائمة في المستشفى، وقبل وقفة الحجاج على عرفات بأسبوع غادر الكوكب، انتقل من عالم الأحياء إلى عالم الأموات، عالم اللاشيء، وربما إلى عالم البشر الطيبين الذين لم يشاهدهم مخلوق، فمن يدري ماذا هناك طالما أن أحداً لم يعد ليُخبر عما رأى. أما الصديق فقد نظر إلى صديقه ميتاً، ورآهم يغسلونه، ووقف أمام الجامع وهم يصلون عليه، وتأمل كيف دفنوه ببساطة كعادتهم في تلك البلاد.. كانت أعداد المشيعين كبيرة ولكنها لا تتجاوب مع المتوقع، وقطع مخلوق واحد صديق إجازته وعاد للمشاركة في العزاء، أما بقية الثلة المقربة فأكملوا إجازاتهم في الخارج.. كم كان حكيماً في تعريفه للصداقة والأصدقاء.